الصراع المصري العبري
والصراع الفلسطيني الإسرائيلي

والمأزق الحضاري للمرجعية الدينية

عليكم أن تستشعروا الخطر دائماً ... حتى تتقدموا ولا تتخلفوا.



طلعت رضوان

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الصراع المصري العبري

المـــــؤلف : طلعت رضوان

مكتبة جزيرة الورد

ميدان حليم ـ خلف بنك فيصل الرئيسي ـ شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا .

ت: 02/27877574

محمول : 0100104115 – 0100004046

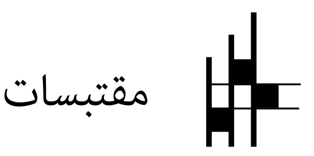
الطبعة الثانية 2018

الإهداء

إلى كــل مــصرى لا يــزال يــؤمن بمصريته ..

وإلى كــل إنــسان فى العــالم لا يــزال يؤمن بخصائصه القومية ..


@bookarb



مقتبسات

«إنّ تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، هو قصة ملوك همج يحكمون شعبًا من الهمج» .

جورج هربرت ويلز

موجز تاريخ العالم

***

« لستُ أعرف لماذا لم نفكر حتى الآن فى أنْ يكون يوم اكتشاف سر اللغة الهيروغليفية وحل رموزها عيدًا قوميًا لمصر ، باعتبار أنّ ذلك هو الحدث الذى كشف حقيقة الحضارة المصرية ووضعها فى مرتبة أعلى من سواها ».

الكاتب الأستاذ / محمد صالح

أهرام 2002/9/21 ص 10

***

«إنّ الفينيقيين (أهل لبنان) نقلوا الحروف الهيروغليفية إلى بلاد اليونان ، فبلوروا منها الأبجدية ، بمعنى – وبدون تزايد – أنّ مصر محت أمية حوض البحر المتوسط».

د. إسحاق عبيد

أستاذ متفرغ بقسم التاريخ

جامعة عين شمس

***

«إنّ المصريين القدماء هم أول من عرفوا الكتابة ، ولم تسبقهم أية حضارة أخرى فى هذا المجال . أما اللغة الهيروغليفية فإنها تتميز بالكثير من العناصر الفنية » .

عالم المصريات النمساوى

البروفيسور (زاتسنجر)

والأستاذ بمعهد المصريات

بجامعة فينا

***

«إنّ اليونانيين كانوا فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة، وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص ».

عميد الثقافة المصرية

طه حسين

مستقبل الثقافة فى مصر

***

«إنّ عقدة اليهود سبق مصر فى الحضارة » .

العالم الكبير (يهودى الديانة)

سيجموند فرويد

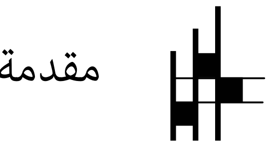
***

«إنّ خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحرر الاجتماعى نفسه، إنما هو تحرير المجتمع من اليهودية . وأنّ التحرر اليهودى فى معناه الأخير يقوم فى تحرير الإنسانية من اليهودية » .

العالم الكبير(يهودى الديانة)

كارل ماركس فى كتابه (المسألة اليهودية)





مقدمة

فى أواخر التسعينيات من القرن العشرين أنتجت الميديا الصهيونية فيلمًا للأطفال اسمه (أمير مصر) بتمويل يهودى الديانة أمريكى الجنسية ، أخرجه المخرج الأمريكى (ستيفن سبيلبيرج) الذى دافع فيه عن مبالغات اليهود فى أفران الغاز النازية فى فيلمه (قائمة شندلر) وهو الفيلم الذى أثار الكثير من الانتقادات والاعتراضات من نقاد سينمائيين عالميين معروفين بموضوعيتهم ، حيث ركز فيه على إثارة مشاعر التعاطف مع اليهود الذين أحرقتهم النازية بقيادة هتلر . وإذا كان عداء النازية لليهود وللديمقراطيين وللشيوعيين ، حقيقة لايمكن إنكارها ، إلاّ أنّ سبيلبيرج فى فيلمه قائمة شندلر، ركز على الاضطهاد ضد اليهود فقط ، كمبرر للهجرة من ألمانيا – بل من أوروبا كلها- إلى أرض الميعاد التوراتية – والاستيلاء على أراضى الشعب الفلسطينى .

أما فيلم (أمير مصر) الذى استخدم فيه أحدث التقنيات التكنولوجية المبهرة للكبار قبل الصغار ، فهو تكرار للأيديولوجيا العبرية المعادية لجدودنا المصريين القدماء . ومن هنا كان دافعى لكتابة فصول هذا الكتاب ، الذى قسّمته إلى قسمين :

فى القسم الأول رأيتُ أهمية الدفاع عن الحضارة المصرية ، فى مواجهة الميديا الصهيونية التى تحاول بشتى الأساليب سرقة التراث المصرى ونسبته للعبريين بنى إسرائيل ، وذلك لترسيخ الإدعاء بأنّ بنى إسرائيل هم أصحاب الحضارة المصرية . ومن خلال متابعتى لما يُنشرفى الثقافة المصرية السائدة ، لاحظتُ أنّ كتابًا (مصريين) كثيرين يعادون تراث جدودهم . ورأيتُ أنّ هذا التوجه فى الثقافة المصرية السائدة

أخطر من مخطط الميديا الصهيونية التى قد لا ينتبه إليها إلاّ المتخصصون والمتابعون . ومن هنا كانت أهمية تناول الغزو الثقافى العبرى الموجه ضد الحضارة المصرية ، مع تقديم أمثلة من كتابات يكتبها (مصريون) بالميلاد والنشأة والانتماء ومع ذلك فإنها (هذه الكتابات) تعادى جذورها الحضارية ، وبالتالى فهى تُرسّخ لدى القارئ المصرى الشعور بانحطاط هذه الحضارة ، وهو ما يترتب عليه شعوره باحتقارها ونفى انتسابه إليها ، والتغنى بسب وهجاء من أسسوها (الذين هم جدوده) خصوصًا وأنّ هذا التوجه يلتقى مع خط الأصولية الدينية المعادية للتراث المصرى القديم . كل ذلك يصنع فى النهاية ما يُسميه علماء الأنثروبولوجيا ب (الدونية القومية) والتمهيد ل (الفناء الحضارى والذوبان فى الآخر المعادى) وخطورة ترسيخ هذا الشعور بالدونية القومية ، أنه يعنى فقدان الانتماء للوطن الأم (مصر) وكما هو معروف ومؤكد ، فإنّ فقدان الانتماء يؤدى إلى انهيارات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية .

وفى المقابل كان لابد أنْ أقدم للقارئ بعض الأمثلة من الكتاب المصريين الذين دافعوا عن تراث جدودنا المصريين القدماء . وإذا كنتُ ذكرتُ أسماء هؤلاء الكتاب ، فإننى تعمدتُ عدم ذكر أسماء الكتاب المعادين للحضارة المصرية ، إيمانًا منى بأنّ القضية قومية وليست شخصية .

أما القسم الثانى فهو يتناول المأزق الحضارى (لأى شعب) عندما تحكمه المرجعية الدينية فى تأسيس معنى (الوطن) مثلما حدث مع المرجعية العبرية التى ترتب عليها احتلال أرض الشعب الفلسطينى ، ثم التهديد بالتوسع على حساب أراضى باقى شعوب المنطقة ، لدرجة أنْ يُروّج كتاب وسياسيون إسرائيليون كثيرون (منذ عدة سنوات وحتى كتابة هذه السطور) لمقولة أنّ حل المشكلة الفلسطينية يكون بتوزيع الشعب الفلسطينى على أجزاء من أرض سيناء المصرية وأجزاء من أرض الشعب الأردنى ، وكمجرد أمثلة فقط ، فقد صرّح رئيس مجلس الأمن

القومى الإسرائيلى الجنرال (جيورا آيلاند) أنه ((اقترح فى عام 2004 على رئيس الوزراء الإسرائيلى شارون ضم 600 كم إلى قطاع غزة من شمال سيناء ليعيش فيها مليـون فلـسطينى ، وضـم 600 كم من مساحة الضفة الغربيـة إلى إسرائيـل ، لـضمان إقامـة حـدود آمنـة ، مـع مـنح المـصريين تعويضًا إقليميًا فى النقب الجنوبى يصل إلى 150 كـم وتعويـضات أخـرى عـلى شـكل مـساعدات دولية وتنمية اقتصادية ، وحفر نفق يصل مصر بالأردن من شمال إيلات ، ونقل مساحة صـغيرة حوالى 100 كـم مـن أراضى الأردن إلى الفلـسطينيين حتـى تـصبح المـساحة التـى يُـسيطر عليهـا الفلسطينيون 105 % من المساحة التى يُطالبون بها اليوم)) (حوار أجرته معه صحيفة ها آرتس الإسرائيلية نُشريوم 2006/6/4 – ونقلا من جانبى عن مجلة مختـارات إسرائيليـة الـصادرة عـن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عدد 139 يوليـو 2006 ص 114) وفى تعليقـه عـلى هـذا الاقـتراح قـال وزيـر الخارجيـة المـصرى (أحمـد أبـوالغيط) أنـه ((كـلام فـارغ)) (أهـــــرام – 2006/6/9 ص 1) ولكن يظل اقتراح رئيس مجلس الأمن القـومى الإسرائـيلى يُـشكل خطـرًا حقيقيًـا على مصر والأردن ، خاصـة أنـه يـتردد فى كتابـات الكثـيرين مـن الكتـاب والـسياسيين والعـسكريين الإسرائيليين أمثال اللواء الإسرائيلى (إفرايم إيتام) الذى طالب بأنْ ((يتم تخصيص شبه جزيرة سـيناء لإقامة نصف دولة إسرائيلية وأنْ تكون الأردن لإقامة النصف الثـانى لدولـة إسرائيـل)) (نقـلا عـن أ. صبحى صادق النجار- أستاذ الدراسات العبرية بالجامعة العربية- أهرام 2002/9/2 ص 10) .

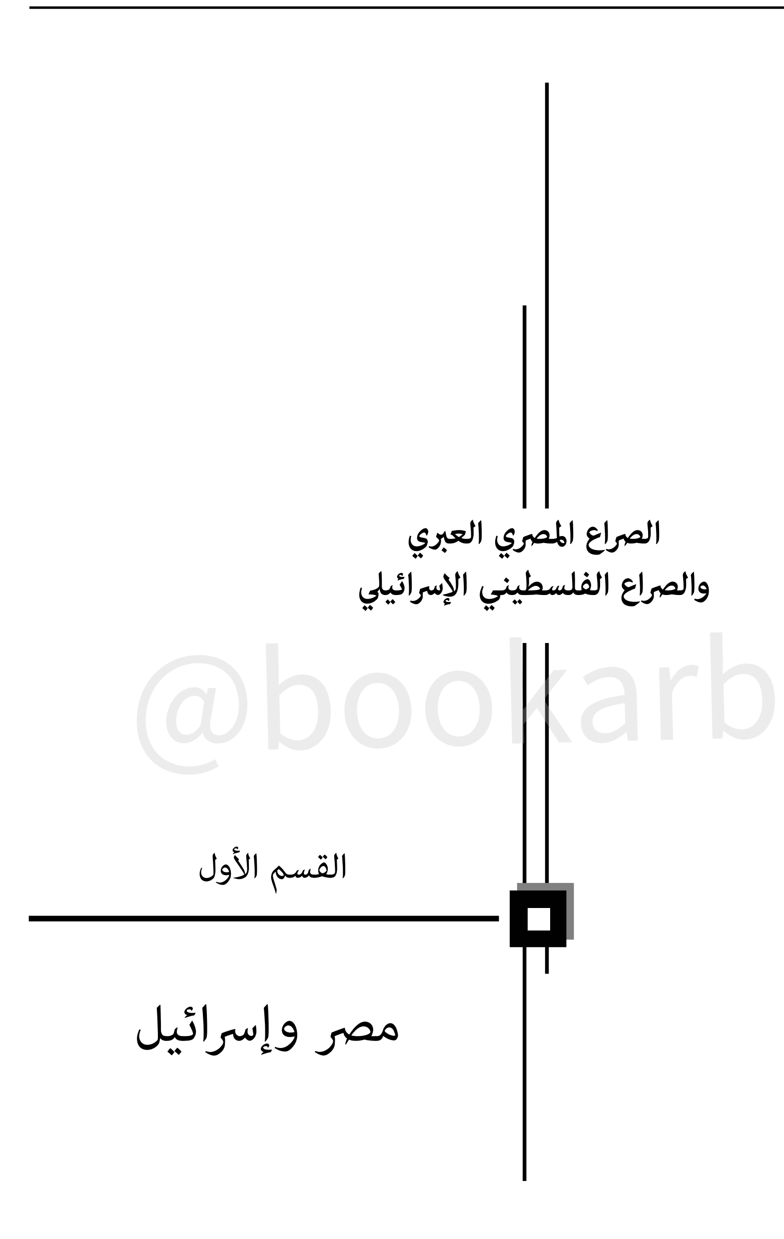
لذلك رأيتُ أنْ أتناول فى هذا الجزء العلاقة بين اليهودية والصهيونية ، وأدلـل على الأسـاس الأيـديولوجى لإقامـة دولـة إسرائيـل ، وأنّ هـذا الأسـاس مـستمد مـن مرجعيــة الديانــة العبريــة . كـما أوضـحتُ أنّ الـصراع الحقيقــى داخـل المجتمـع الإسرائيلى (منذ قيام دولة إسرائيل وحتى كتابة هذه السطور) هو صراع بين الآيـات / الحاخامات وبين العلمانيين الإسرائيليين الذين يرفضون المرجعية الدينية ويـسعون

لإقامة دولة علمانية / ديمقراطية ، ويؤيدون حق الشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة . وبناءً على ذلك فإنّ الفريق الذى سينتصر ويجلس على مقاعد الحكم فى إسرائيل هو الذى سيُشكل مصير المنطقة .

ورأيتُ استكمالا لهذا المحور أهمية عرض كتابين مهمين للراحل الجليل د. رشاد الشامى ، الأول عن (القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة) حيث دلّل فيه مؤلفه على خطورة سيطرة الأحزاب الدينية على المجتمع الإسرائيلى ، وبالتالى على المنطقة كلها . والثانى عن (الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية) .

وإذا كان إعلان الدولة الإسرائيلية تم فى عام 1948 بعد قرارالتقسيم بعام واحد ، وإذا كانت إسرائيل لاتزال – بسبب سيطرة المرجعيات الدينية التى تُشجّع التوسع والاعتداء على أراضى الشعوب المجاورة لأراضى فلسطين وعدم الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، إذا كان كل ذلك يُشكل حقائق واقعية (معاشة وملموسة) فإنّ الليبراليين المصريين فى العشرينيات من القرن العشرين ، أى قبل إقامة دولة إسرائيل ، تنبّؤوا بخطورة المخططات الصهيونية ، سواء بالنسبة لمصر أو لفلسطين ، وهو ما رأيتُ أنْ أخصص فصلا له ، حيث اكتشفتُ أنّ أ. عمر عنايت كتب فى مجلة العصورعدد أمشير / فبراير1927 دراسة غاية فى الأهمية ، حذر فيها من أنه إنْ لم ينتبه الفلسطينيون والعرب لما يُخطط له اليهود فى المنطقة ، وحسب نص كلامه فإنّ ((فلسطين ستكون ملكًا لبنى إسرائيل)) أما مصر- فى ظل نفس المخطط الصهيونى – فإنها ((ستكون كمية مهملة وعضوًا أثريًا فى مملكة داود الجديدة)) .





الصراع المصري العبري
والصراع الفلسطيني الإسرائيلي

القسم الأول

مصر وإسرائيل

الفصل الأول

الثقافة السائدة في مصر

والتراث العبري

تمهيد

ذكرتْ الأستاذة سكينة فـؤاد (أهـرام 2004/4/13) أنـه أثنـاء انعقـاد المؤتمر الدولى لعلـم المـصريات بالقـاهرة فى أوائـل شـهربرموده / إبريـل 2000 تقدّم أحد المشاركين (لم تذكر اسمه) ببحث ادعى فيه أنّ ((أشـهر رموز وأفكار الحضارة المـصرية مـستوردة ، وعـلى رأسـها الملكـات (تى) ، (نفرتيتى) ووالدة تحوت / مـوس الثالـث وحـورس وآمـون)) أى أنّ كـل هذه الرموز ليست مصرية . ومـن منطلـق إحـساسها بمـصريتها كتبـتْ الأستاذة سكينة فؤاد ((إنّ المأسـاة الحقيقيـة تمثلـتْ فى موقـف العلـماء المصريين المشاركين فى المؤتمر، حيث لم يتصد لهذه الخرافة إلاّ عالم مصرى واحد (لم تذكر اسمه) ووصـفها بــ « الهـراء الـذى لايمتلـك سـندًا علميًـا واحدًا » وبالتالى لابد أنْ تكون أخـرى (لا علاقـة لهـا بـالعلم) وراء هـذه الافتراءات)) .

هــذه المأسـاة – فى المـشهد الـذى روتـه الكاتبـة الكبـيرة سكينة فؤاد – تجسيد حى لغياب الإحساس بالحضارة المـصرية من علماء مصريين (متخصصين) فى علـم المـصريات . وأنّ عالمًـا مصريًا واحدًا فقط – من بين المصريين الحـاضرين المـؤتمر- هـو

الذى تصدى لهذه الافتراءات التى يُروّجها جهاز الميديا الصهيونية ، بهدف سرقة الحضارة المصرية لصالح الادعاء الكاذب الذى يُروّج لمقولة أنّ بنى إسرائيل هم أصحاب هذه الحضارة ، مثل الادعاء أنّ المصرى الكبير(يويا) والد الملكة (تى) هو النبى يوسف العبرانى . فى حين أنّ علماء علم المصريات أكدوا أنّ الملكة (تى) هى زوجة (أمنحوتب الثالث) الذى لم يكتف بخلع أرفع الألقاب فى البلاط الملكى عليها ، أى (الزوجة الملكية الكبرى) ولكنه – أيضًا – أصدر سلسلة من الجعارين التاريخية سجل عليها تذكار زواجه من هذه الفتاة التى تنتمى إلى عامة الشعب (المصرى) وهى ابنة أحد الكهنة المصريين وأمها إحدى الكاهنات بمدينة أخميم فى مصرالعليا . وكان الأب والأم يدعيان (يويا وتويا) ويبدو أنهما من بلاد النوبه السفلى (أنظركتاب المرأة الفرعونية- تأليف عالمة المصريات الفرنسية- كريستيان ديروش نوبلكور- ترجمة فاطمة عبدالله محمود- مكتبة الأسرة عام 1999 ص 47) وكذلك الادعاء بأنّ أخناتون هو النبى موسى الممثل الرسمى لبنى إسرائيل فى التراث العبرى . وأعتقد أنّ هذه المأساة هى تجسيدٌ حى لمستوى التعليم والإعلام فى مصر، ومستوى الثقافة السائدة بعد يوليو 1952 . ولذلك كانت الأستاذة سكينة فؤاد محقة عندما أضافت ((وقد أصاب العالم المصرى (الوحيد) الحقيقة تمامًا ، فقد كانت النية مبيتة لاستخدام المؤتمرالمقام على أرض مصر ، لاسقاط الهوية المصرية عن حضارتها القديمة)) .

ما ذكرته الأستاذة سكينة فؤاد تكرر ولكن بصورة أكثرمأساوية ؛ إذْ عندما استضافت مصر (مارتن برنال) مؤلف الموسوعة المهمة (أثينة إفريقية سوداء) والذى أكد فيها على أنّ مصرهى مهد الحضارة الإنسانية ، وليست اليونان كما يدعى البعض ، فى هذه الاستضافة ، وصف بعض (العلماء) (المصريين) كتاب جورج جيمس (التراث المسروق) وكتاب مارتن برنال (أثينة إفريقية سوداء) بأنهما ((زبالة فكرية)) (أنظر: شوقى جلال فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق – الفلسفة

اليونانية فلسفة مصرية مسروقة) المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة – عـام 96 ، هيئة قصورالثقافة عام 2008 ص 39) بل وصل الأمرلدرجة أنّ آخـرين (مـصريين أيـضًا بالاسـم وأكاديميين بحكم الوظيفة) قالوا: إنّ الكاتبيْن المذكوريْن يُـدعمان الـصهيونية وأنّ المـؤلفيْن لهـما توجهات صهيونية (المصدرالسابق ص 45) وهكذا تكون قمـة المأسـاة فى شـكل جريمـة يرتكبهـا (مصريون وأكاديميون) تذهب عقـولهم المريـضة وضـمائرهم (العلميـة) الميتـة باعتقـاد أنّ مـن يدافع عن الحضارة المصرية عميل لإسرائيل وللصهيونية العالميــة . وقد ذكـر لى الأسـتاذ شـوقى جلال أسماء هؤلاء المعادين لتراث جدودهم ، ويعـف قلمـى عـن ذكـر أسـمائهم ، لأنّ القـضية قومية وليست شخصية .

***

أعتقد أنّ أى مصرى مازالت مصرتنبض فى عروقه ، قد تملكـه الغـضب مـن إدعـاءات الميـديا الصهيونية التى تُروّج لأكذوبة أنّ بنى إسرائيل هـم بنـاة الأهـرام ، بـل وبنـاة مجمـل الحـضارة المصرية ، والنتيجة هى : أنّ مصر ملكٌ لبنى إسرائيل .

من بين هذه الإدعاءات الفيلم الأمريكى (أميرمصر) من إخـراج سـتيفن سـبيلبيرج ، الـذى روّج لمبالغات الإسرائيليين عن أفران الغـاز النازيـة فى فـيلم (قائمـة شـندلر) وهـو فـيلم دعـائى الهدف منه أنْ (يتعاطف) المشاهد مع اليهود الذين أحرقهم هتلر، وبالتالى يكون لهم الحـق فى استنزاف موارد الشعب الألمانى (فى شكل منح وقروض إلخ) تكفيراً عن جريمـة لم يرتكبهـا أحفـاد هتلر ، ولكنْ أخطرما فى الفيلم هو أنْ ينسى المشاهد مأسـاة الـشعب الفلـسطينى الـذى إحتـل اليهود الصهاينة وطنه .

أما فيلم (أميرمصر) فهو ترويج لأكذوبة أنّ موسى نبى العبريين ، تـربى مـع رمسيس الثانى ، على أنهما شقيقان ، وعندما يكبران يعلـم مـوسى أنـه لـيس ابـن

فرعون وإنما هو واحد من أبناء العبريين الذين يعملون فى بناء الأهرام والمعابد تحت سياط المصريين المتوحشين . ويُركز الفيلم على أنّ موسى هو المصمم العبقرى لكل ما أبدعته الحضارة المصرية ، ويضع فى إصبعه خاتم كبيرمهندسى الدولة . مع تكرار لقصة خروج بنى إسرائيل من مصركما جاءت فى كتب العبريين. وينتهى الفيلم بانتصار الخير(موسى وبنى إسرائيل) على الشر(فرعون والمصريين) وبعد خروج بنى إسرائيل من مصر، وبعد التأكيد على أنّ موسى وأتباعه هم بناة الحضارة المصرية، فإنّ الفيلم يُكرر ما جاء فى كتب العبريين التى يُقدسونها عن العقاب الذى أنزله ربهم على المصريين ، وهو العقاب المتمثل فى انهيار مصر وتحويل أرضها ونيلها إلى دم وبعوض وذُبان إلخ . فإذا كان بنو إسرائيل هم الذين شيّدوا الحضارة المصرية ، فإنّ مصر ملكٌ لهم خاصة وأنّ إله العبريين انتصر لهم ودمّر مصر والمصريين (لمن يريد تفاصيل أكثر عن هذا الفيلم أنْ يرجع إلى مقالات أ. عادل حموده – صحيفة الأهرام 6 ، 27 فبراير،6 مارس 99) .

إنّ إدعاءات الميديا الصهيونية ضد مصر تُركز على محورين أساسيين :

الأول : أنّ المصريين القدماء غلاظ القلوب ، لايعرفون الرحمة ، وأنهم اضطهدوا بنى إسرائيل وعاملوهم معاملة العبيد (انظر : العهد القديم، سفرالخروج 2 : 23- 25) .

الثانى : أنّ بنى إسرائيل هم المصممون والمنفذون والمشيّدون للحضارة المصرية .

لم يكن فيلم أمير مصر هو البداية ، وأعتقد أنه لن يكون النهاية ، حيث أنّ تاريخ الميديا الصهيونية فى الترويج لهذين المحورين ، تاريخ قديم . وسأكتفى بذكربعض الأمثلة :

الدور المشبوه الذى لعبه بعض الكتاب الأوروبيين الذين يتشحون بمسوح الأكاديمية وتمتلئ كتاباتهم بمغالطات تاريخية وعلمية ، ولهم أهداف أيديولوجية

سياسية تفتقـرإلى لغـة العلـم ، ويـتلخص كـل جهـدهم فى ترسـيخ اسـتبعاد أى دورللمـصريين القدماء فى بناء الحضارة الإنسانية ، ومن بين هؤلاء الكاتب البريطانى (جون تـايلر) الـذى روّج (لنظرية) قال فيها أنّ ((بناة الأهرام كانوا من أبناء شعب اللـه المختار، ومن نفس السلالة التى انحدرمنها إبراهام ، وإنْ كانوا من أزمنة سابقة بطبيعة الحال ، أقرب إلى نـوح فى واقـع الأمـر)) (نقلا عن كتاب قراءة سياسية للتـوراة- تـأليف أ. شـفيق مقـار- النـاشر ريـاض الـريس للكتـب والنشر- عام 1991 ص 91) .

ومن هؤلاء أيضًا الثيوصوفى (أى العارف باللـه عن طريق التجلى الـصوفى) بـازل سـتيوارد صاحب كتاب (سرالهرم الأكبر) الذى كتب ((ليس هناك ما يُبررالقول إطلاقًا بـأنّ المـصريين هـم الذين بنوا الهـرم لمجـرد أنّ الهـرم موجـود فى مـصر)) لـيس ذلـك فقـط ، بـل إنّ ((بذورعظمـة مـصربذرتها حفنـة مـن المـستوطنين دخلـت مصربـسلام ونظّمـت القيـام لعمليـات الانـشاءات العظيمة)) وهؤلاء المستوطنون من وجهة نظرالسيد سـتيوارد ، فـإنهم جماعـة مـن ((الآسـويين القادمين من أرض الفرات، وكانوا على مستوى رفيع مـن المعـارف العلميـة والرياضـية)) وأنهـم عندما دخلوا مـصر((نظّمـوا عمليـة إنـشاء الهـرم الأكـبر)) وبعـد أنْ تـم إنـشاؤه ((خرجـوا مـن مصرآخذين معارفهم معهم)) (المصدر السابق ص 92) .

وقد علّق أ. شفيق مقارعلى ذلك الكلام فكتب ((وأولئك (السوبر مِنْ) الآسويين الذين جاءوا من أرض ما بين النهرين ، هم بلا شك – حسب التجلى الصوفى الأممى – أسلاف إبرام وإسـحاق ويعقوب وأسلاف مستربيجين بطبيعة الحال)) والنتيجـة التـى تترسـب فى عقـل القـارئ الأوروبى هى أنّ المصريين ((كانوا متخلفين وبدائيين وعراة ، ولـيس أولئـك الرعـاة الرحـل الجيـاع الـذين تسللوا عبر حدود مصر ليأكلوا وينهبوا)) .

فى شـــهرمارس 1979 أثنـــاء مفاوضـــات توقيـــع معاهـــدة كامـــب ديفيـــد ســـأل أحـــد

الصحفيين رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجين عن سيرالمفاوضات فقال ((لقد عانيتُ فى المفاوضات كما عانى جدودى فى بناء الأهرامات)) وعندما جاء بيجين إلى مصر وزار الأهرام مع الرئيس السادات قال ردًا على سؤال من أحد الصحفيين ((إننى أشعر بالزهو والفخر وأنا وسط الأهرامات التى بناها جدودى)) وهنا تكون المأساة مزدوجة ، أو هى مأساة ذات وجهين مثل العملة النقدية : على أحد الوجهين ادعاء هذا الصهيونى (بيجين) بأنّ جدوده هم بناة الأهرام ، وعلى الوجه الآخر الصمت المزرى من كل (المصريين) الذين قرؤوا وسمعوا كلام بيجين (وخصوصًا من حضروا اللقاء مع الرئيس السادات) ولم ينطق واحد (واحد فقط) بكلمة يدافع فيها عن الحقيقة التاريخية ، ناهيك عن دفاعه عن ذاته القومية .

***

الأمثلة السابقة هى على سبيل المثال بالطبع ؛ لأنّ ما يهمنى ويهم كل مصرى هو رد فعل الثقافة السائدة فى مصر على هذه الإدعاءات .

إنّ أى مصرى – مهما كانت درجة ثقافته – سيرد على الفور: إنّ هذه الادعاءات مجرد أكاذيب . وأننا نحن المصريين أحفاد جدودنا المصريين القدماء الذين شيّدوا هذه الحضارة .. إلخ ولكن نظرة متأملة فى كتابات أغلب الكتاب (المصريين) توضح أنّ هذه الكتابات تلتقى مع الميديا الصهيونية (دون قصد بالطبع) حول محور أساسى هو احتقار الذات القومية لنا كمصريين . فإذا كان فيلم (أمير مصر) ركز على بلورة أنّ موسى وبنى إسرائيل هم رمز الخير، وأنّ الفرعون (=الملك) والمصريين هم رمز الشر، فإنّ صورة (الفرعون) فى كتابات كثيرين من الكتاب (المصريين) لاتختلف عن صورته فى الفيلم الأمريكى التمويل ، العبرى التوجه (أمير مصر) وفيما يلى بعض الأمثلة من كتابات بعض الكتاب (المصريين) وكيف ينظرون إلى الفرعون (جدهم ورمزهم القومى) .

كاتب كبيرفى صحيفة قومية عرض كتاب (التجديد السياسى والواقع العربى

المعاصر رؤية إسلامية) تأليف د. سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل . الكاتب الصحفى (المصرى) أبدى إعجابه بمؤلف الكتاب والسبب أنه عرض ((الوجه الآخرللالتزام بالرابطة الإيمانية السياسية ، والذى يحول دون الانحراف بها بإتجاه الرابطة الفرعونية)) وفى موضع آخر كتب أنّ الرابطة الإيمانية كما عرضها مؤلف الكتاب ((تُصاغ على تأسيس من قواعد إلهية ، وفى إطارمن قيم تحكمها ومن ضوابط تحميها ، فلا تترك تأسيسها لأحد من البشر، لأنّ محتواها الإيمان بما أنزل الله ونقيضها هو ما أسماه بالعلاقة الفرعونية)) والكاتب الصحفى (المصرى) ترجم إعجابه بالكاتب بطريقة عملية إذْ افتتح مقاله قائلا ((صاحبنا هذا قَلَبَ الطاولة على رؤوس بغيرحصر. ألقى قذيفة فكرية متقنة الصنع والتصميم ، طالب فيها بالتجديد من الأساس.. إلخ)) (صحيفة الأهرام 89/8/29) .

كاتب صحفى آخريكتب عن بعض رؤساء الدول الذين يصفهم بالطغيان ، فكتب عن صدام حسين ، وعن صراع زعماء القبائل فى اليمن . وعن زعماء القبائل فى آسيا وإفريقيا وعن (كيم إيل سونج) زعيم كوريا الشمالية (بعد وفاته) فكتب ((كيف يبكى الناس بكل هذه الحرارة دكتاتورًا رزح بحكم الطغيان على أنفاس الشعب)) الأستاذ الصحفى (المصرى) فى كل هذه المقالات لايفوته تشبيه كل هؤلاء الحكام الطغاة بالطاغى الأكبر(فرعون) بل إنّ (فرعون) فى رأيه قد لخّص ((كل مناهج الطغاة)) (انظرعلى سبيل المثال بالطبع – مربعه اليومى فى صحيفة الأهــرام 90/8/18 ، 90/9/1 ، 91/1/17 ، 94/5/29 ، 94/8/5 ، 99/2/19 ، 99/3/8 ، 99/3/13) وإذا كان الأستاذ (المصرى) لايشعربأى حرج (أو خدش للحياء) لكرامته القومية وهويسب الفرعون (جده) لذلك فإنّ سؤالا مشروعًا يفرض نفسه : ما الفرق بينه وبين العبريين أعداء مصر والمصريين ؟

وفى حين أنّ (مصريين) بعضهم يعمل بالصحافة أو يكتبون الشعر والقصة وسيناريو الأفلام والمسلسلات إلخ تسمح ضمائرهم بسب (الفرعون) مثلما فعل

الشاعر الذى كتب أغنية المقدمة لمسلسل (حدائق الشيطان) ونظرًا لأنّ بطل المسلسل طاغية ومستبد ، فإنّ الشاعركتب بصوت الكورس (المجاميع) ((مين قال لك يا فرعون تتفرعن ؟.. إلخ) مع ملاحظة أنّ المسلسل يشاهده ملايين المصريين والعرب ، بينما نجد أنّ الأمهات والآباء من الشعب الإيرانى لايزالون يختارون لأولادهم أسماء الأكاسرة (= ملوك) الذين حكموا فارس (إيران حاليًا) مثل (داريوش) ، (آراش) ،(كورش) إلخ رغم أنّ هؤلاء الأكاسرة وفق الحكم القيمى غيرالعلمى (وثنيون) وظهروا على مسرح العالم قبل ظهورالإسلام بعدة قرون (كورش الأكبر عاش وحكم فى القرن السادس ق . م) بل إنّ الشعب الباكستانى شائع بينه اسم (برويز) الذى هو حفيد كسرى الأول (أنوشروان) ولست فى حاجة إلى التأكيد على أنّ الإسلام هو الديانة الرسمية للشعبين الإيرانى والباكستانى .

وتتعاظم المأساة عندما نجد باحثًا كبيرًا (مصريًا) له عدة مؤلفات فى الفلوكلور، يخلط بين التراث العربى والتراث المصرى بإعتبارهما شيئًا واحدًا . هذا الباحث لايهاجم الفرعون بشكل مباشر، ولكنه يُكررمقولة أنّ الحضارة المصرية هى ((حضارة السخرة الإنشائية من أهرامات ومعابد ومقابرعلى طول وادى النيل ، فهى قوة عمل تقودها أسواط المشرفين..إلخ)) وإذا كان هذا هو رأيه فى الحضارة المصرية ، فلم تكن مفاجأة أنْ يكتب مُشبهًا (كتاب الموتى) ب ((عشرات الكتب التى تزحم الأرصفة عن القبر وعذابه.. إلخ)) (صحيفة الأهرام 98/5/10 ، 99/2/28) .

إنّ (كتاب الموتى) والترجمة الدقيقة عن الهيروغليفية هى (الخروج إلى النهار) الذى وضعه جدودنا فى رأى علماء علم المصريات جمع بين الفلسفة والأخلاق ، ورسم صورة للحياة الآخرة بعد الموت ، وأنّ مصيرالمذنب (الذى ارتكب بعض المعاصى على الأرض) أنْ يلتهمه (عم – موت) أى الوحش الذى يلتهم قلوب الأموات الشريرة . أما مصيرالإنسان الصالح الذى لم يرتكب الآثام ، فيدخل

حقول اليارو (= الجنة) وعلى سبيل المثال كتب العـالم الكبـير(برسـتد) أنّ الـذى خلّـص كتـاب الموتى من وصمة أنه كتاب سحرى ((تقديره الظاهرلمسئولية الضمير)) (انظركتـاب فجرالـضمير- ترجمة عالم المصريات سليم حـسن – أكـثر مـن طبعـة - ص 289) أمـا عـالم المـصريات محـسن لطفى السيد فكتب فى تفسيره لعبارة ((أنا الأمس وأعلم علم الغد)) الواردة فى (كتاب الموتى) أنّ ((الأمس هو أوزير والغد هو الإله أتوم (رع) وهكذا يُشير أوزيرإلى الزمـان المـــاضى ، أمـا (رع) فهو المستقبل ، وما الماضى والمستقبل إلاّ جزءان لاغنى عنهما كى تتم حركته الأبدية)) (انظركتاب ما هو كائن فى العالم الآخر- طبعة على نفقـة المؤلـف ص9) وذكرأيـضًا أنـه لا يوجـد متحـف فى العالم للمصريات يخلو من البرديات التى دُوّن عليها نص كتاب المـوتى (الخـروج إلى النهـار) (ص 13) أما أ. شفيق مقار، فلأنه يحترم العلم ويكتب بلغته ، فقد عقد مقارنة شديدة الذكاء بين ما ورد فى (كتاب الموتى) عن قصة الخلق كما تـصوّرها المـصرى ، وبـين مـا جـاء فى العهـد القـديم ، وكيف أنّ العبريين سطوا على التراث المصرى ، فى فصل ممتع بعنـوان ((نهـب أساطيرالـشعوب)) (قـراءة سياسـية للتـوارة – مـصدرسابق – ص 134) إنّ كتـاب الخـروج إلى النهـار الـشهير بـ(كتاب الموتى) الذى يراه الباحث (المصرى) الذى يخلط بين التراث المـصرى والـتراث العـربى ويعتبرهما شيئًا واحدًا ، والذى وصف كتاب الموتى بعشرات الكتب التى تزحم الأرصـفة عـن القبر وعذابه.. إلخ هذا الكتـاب الـشهيرب (كتـاب المـوتى) عبـارة عـن برديـة باسـم صـاحبها المرحوم (آنى) فى الفصول الأولى نتعرف على المحكمة التى ستحاكم روح المرحوم (آنى) يـرأس المحكمة الإله أوزير. وأعـضاء المحكمـة 42 قاضـيًا يُمثلـون محافظـات مـصر القديمـة. يقـف المرحوم آنى (كل متوفى فى مصرالقديمة كان يُطلق عليه أوزيرأى المرحوم) أمام القـضاة مـرتلا ((يا قلب أمى لاتقف ضدى شاهدًا . لاتفترى علىّ كذبًا أمام الإلـه)) وفى الختـام يقـول الإلـه تحوتى ((إنّ أفعاله وُجدتْ صالحة فى الميـزان العظـيم . الأوزيـرآنى لم يرتكـب إثمًـا ولم يـصنع

شرًا . إنّ عم – موت (الوحش الذى يلتهم قلوب الذين ارتكبوا الآثام) لن يكون له سلطة عليه)) .

الميزان فى قاعة المحكمة فى إحدى كفتيه ريشة ماعت (إلهة العدالة) وفى الأخرى قلب المتوفى ، والمعنى الرمزى هنا أنْ يكون القلب خفيف الوزن مثل الريشة ، لم تُثقله الخطايا . ورمز آخر هو أنّ القلب والريشة متساويان . وفى الفصول الأخيرة تدخل الروح حقول اليارو(= الجنة) ونرى آنى وهو يقود زوجًا من الثيران. ونراه وهو يحصد ثمار القمح ويقول ((أريد أنْ أكون قويًا عساى أنْ أحرث هناك وأصنع كل شىء كنتُ أصنعه على الأرض)) (أنظر ترجمة عالم المصريات محسن لطفى السيد ، الذى وضع النص الهيروغليفى وترجمته إلى اللغتين العربية والإنجليزية – مطابع روزا ليوسف ص 492 ، عام 2004 على نفقته الخاصة ، وأعادتْ الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة طباعته عام 2010) والمعنى أنّ الحياة فى حقول اليارو(= الجنة) صورة طبق الأصل من حياة المصرى على الأرض ، حياة تعتمد على العمل وبصفة خاصة الزراعة التى مهّدتْ لنشأة الحضارة . وهنا نلاحظ أنّ صورة الجنة عند جدودنا المصريين القدماء مختلفة تمامًا عن صورة الجنة فى تراث شعوب أخرى ، حيث تُصوّرالذين دخلوا الجنة وهم يأكلون ويشربون ويتمتعون بحورالعين والغلمان المخلدين ، وبدون أى عمل .

وتصل الفلسفة فى بردية آنى إلى معنى إنسانى عميق ، إذْ عندما يسأل آنى عن المتع الجنسية ، يرد عليه الإله (آتوم) : ((إنك سوف تحيا بسلام . لقد أعطيتك التجليات بدلا من الماء والهواء والمتع الجنسية. وهذا القلب عوضًا عن الخبز والحنكت (= البيرة وهى المشروب الشعبى فى مصرالقديمة) والمعنى هنا أنّ المتع فى حقول اليارو (الجنة) متع روحية.

وفى الفصل رقم 125 يُرتل المرحوم آنى الاعترافات الانكارية وعددها 42 اعترافًا ويتضح منها حرص المصرى القديم على نبذ رذيلة الكذب التى تمقتها

الشعوب المتحضرة فى عصرنا الحالى وتعتبرها من الكبائروذلك بعد آلاف السنين من كتابة بردية آنى الذى يقول لإله أبيدوس ((التحيات لك يا من تمقتْ الكذب)) وأكثرمن ذلك نجد فى اللوحة العاشرة نصًا بالغ الأهمية (لم أعثرعلى مثيل له – وفق قراءاتى - فى كل الشرائع والفلسفات) إذْ أنه يُساوى بين رذيلة الكذب وفضلات الكائن الحى ، ووفق نص البردية فإنّ ((الآلهة المصرية تمقتْ البراز والكذب)) كما أنّ البردية تُدين رذيلة أخرى وهى جريمة التلصص على الآخرين فيقول آنى ((أنا لم أسترق السمع)) وتشمل الاعترافات تجريم الاعتداء على حقوق الغير وتجريم الزنا والسرقة وعدم الاعتداء على مياه النيل بالتسبب فى تلوثها إلخ .

وخيال كاتب البردية يتضح من فكرة الصعود إلى السماء بواسطة (سلم) متخيل صنعه الإلهان (رع) و(حورس) وفى رصده لظاهرة الشروق والغروب ، فإنّ (رع) يغرب فى صورة (أوزير) وأوزير يُشرق فى صورة (رع) ثم أصبح أوزير هو الأمس و (رع) هو الغد . كما يُبدع مركبًا للصباح رمزًا للخلود ومركبًا للمساء رمزًا للأبدية وهما وجهان لشىء واحد هو الخالق السرمدى . وفى اللوحة رقم 16 نجد المرحوم آنى يركع فى بركة ماء نبتتْ فيها شجرة جميز مورقة وداخل فروع الشجرة نرى إلهة السماء (نوت) وهى تصب الماء على راحة المرحوم آنى . أى أنّ خيال كاتب البردية (أنسن) الإلهة (نوت) فى حركة صب الماء ، كما أضفى عليها صفات الرحمة والمودة بالصورة المجسدة وليس بالكلمات . ومن الخيال البديع تحوّل المرحوم آنى إلى طائريُحوّم حول قريته ليرى منزله ويُشاهد أهله . ويبدو أنّ المرحوم آنى اشتاق إلى زوجته (توتو) التى نراها معه فى اللوحة رقم 34 وهى تحمل باقة طويلة من أزهار اللوتس . وفى اللوحة رقم 28 نرى رأسا لإنسان يخرج من زهرة اللوتس ، وهو رسم رمزى يُمثل بزوغ الشمس يوميًا وفق عقيدة (منف) وتُسمى (نفرتوم) أى الحسن التام ، أوالجمال المكتمل وفق الترجمة عن الهيروغليفية. والرسم يرمز إلى ضمان بعث المتوفى ، وأنه يستطيع أنْ يتحوّل إلى زهرة لوتس . والخيال

يرسم صورة بديعة للإله الذى يرى كل شىء فى الوجود ، إذْ أنّ ((وجهه فى قفاه)) وتُشيرالبردية إلى أنّ جدودنا عرفوا تقسيم العمل والنظام الحسابى والأعداد الكبيرة مثل الحديث عن ملايين السنين .

إنّ بردية (الخروج إلى النهار) تؤكد على أنّ موت الإنسان على الأرض ما هو إلاّ موت الجسد ، أما الروح الطاهرة التى لم ترتكب الآثام المنصوص عليها فى الاعترافات الإنكارية ، فسوف تعيش فى حقول اليارو. وأنّ الروح تنتقل من حياة إلى حياة أخرى شبيهة بالحياة فى الحقول المصرية على أرض الواقع . وهذا الخيال ينفى افتراءات أعداء القومية المصرية وأعداء الحضارة المصرية الذين يزعمون أنها (حضارة موت) وعن العلاقة الجدلية بين الحياة والموت ، ذكرعالم المصريات الكبيرسليم حسن ، أنّ اللغة المصرية القديمة لم تعرف لفظة (الموت) وكان المصرى القديم يستخدم للتعبيرعنها لفظة (الغرب) وكان ((الغرب عند قدماء المصريين مكان الخلود ، والشرق مكان الولادة)) (الأدب المصرى القديم – ج 2 – مطبوعات كتاب اليوم - الصادرعن مؤسسة أخبار اليوم – ديسمبر1990- ص 79) كما أنّ العلاقة بين الحياة والموت ، استمدها المصرى القديم من ظاهرة شروق الشمس ثم غروبها ثم شروقها من جديد ، وكذلك من ظاهرة تجدد فيضان النيل كل عام إلخ . وعن تلك العلاقة الجدلية بين الحياة والموت قال الأديب الكبير(أندريه مالرو) وزير الثقافة الفرنسية عندما كان فى مصر فى صحبة وزير الثقافة ثروت عكاشة ((إنّ ما بحثتْ عنه مصر فى الموت ، هو (تحديدًا) القضاء على الموت 00 إننى باسم فرنسا أشكر مصر التى كانت أول من ابتكر الخلود)) (أنظر كتاب مصر ولع فرنسى – تأليف روبير سوليه – ترجمة لطيف فرج – مكتبة الأسرة – عام 99 ص 336) كما أنّ أصحاب هذه الحضارة اخترعوا أول أبجدية فى العالم القديم وأول تقويم مازال العالم المعاصر يعتمد عليه . وأسسوا علوم الطب والهندسة والفلك والرياضيات . وأبدعوا فى فنون الرسم والنحت والأدب

القصصى ، وصياغة منظومة من الأساطير انتقلتْ إلى الكثير من الأدب العالمى . كما أنّ الأساطيرالمصرية امتزج فيها طين الواقع بفضاءات الخيال كما فى بردية الخروج إلى النهارالشهيرة ب (كتاب الموتى) وهى البردية التى لم ير فيها الباحث (المصرى) سوى أنها تتحدث عن القبر وعذابه مثل عشرات الكتب الملقاة على الأرصفة .

***

كذلك نجد أستاذا آخر يحمل درجة الدكتوراه وله عدة مؤلفات فى العلوم الإنسانية يُردد مقولة أنّ الحضارة المصرية ((حضارة سخرة)) وينظر للأهرام على أنّ ((ألوف البشر ظلوا يعملون عشرات السنين ليُنشئوا قبرًا لإنسان واحد)) انظر: كتابه «الحضارة» دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها – سلسلة عالم المعرفة الكويتية – عدد 237 – سبتمبر 1998 ص11) .

إنّ منْ يُروّجون لمقولة أنّ الحضارة المصرية (حضارة سخرة) يتجاهلون الدراسات العلمية التى أكدتْ أنه تم اكتشاف مدينة للعمال ، وتم العثورعلى كشوف بأسماء العمال ، بها بيانات عن كميات الطعام بل والعطورالتى توزع عليهم. والأهرام – فى دراسات علماء علمىْ الآثار والمصريات- معجزة معمارية ، اعتمد المصريون فى تشييدها على علوم الهندسة والفلك والرياضيات . وردًا على إدعاءات السخرة كتب السير(فلندرز بترى) أنّ ((العمل كان يجرى أثناء موسم الفيضان ، أى بين آخريوليو وآخرأكتوبر، وهو الوقت الذى تُزرع فيه الأرض ويكون معظم الأهالى بلا عمل)) وأنّ الأهرامات ((شيّدها بناؤون مهرة وكانوا يسكنون فى مبانى وجدها (بترى) غرب هرم خفرع)) (أنظركتاب «أهرام مصر» تأليف أ. أ. س إدواردز- ترجمة مصطفى أحمد عثمان – هيئة الكتاب المصرية – سلسلة الألف كتاب الثانى رقم 272 عام 97 ص 212 ، 213) وتؤكد عالمة المصريات (مرجريت مرى) ذات الحقيقة وتُضيف أنّ الملك (= الفرعون) استخدم هؤلاء العمال فى عملية البناء ((وأمدهم بالطعام فى أسوأ فترة من العام ، وأنّ بقايا المستعمرة القائمة حول

هرم خفرع تُشيرإلى أنه كان يتعهدهم كذلك بالسكنى . وأنّ هيرودوت ذكرأنّ العمال كانوا يحصلون على الطعام الطيب)) (أنظر كتاب « مصر ومجدها الغابر» ترجمة محرم كمال – هيئة الكتاب المصرية- سلسلة الألف كتاب الثانى رقم 290 عام 98 ص 13 ، 39 ، 112 ، 209 ، 214) .

وبينما يرى الأساتذة الدكاترة الأكاديميون (المصريون) أنّ الحضارة المصرية (حضارة سخرة) يرى المتخصصون فى الحضارة المصرية عكس ذلك ، من بينهم (على سبيل المثال) العالم المصرى د. محمود سلام زناتى الذى كتب ((كانت الحرب المصدر للأرقاء بجانب التجار السوريين . وقد تمتّع الأرقاء فى مصر بوضع قانونى واجتماعى يفضل وضعهم فى كثير من المدنيات القديمة ، فقد كان الرقيق ، شأنه شأن الأحرار، يتمتع بحالة مدنية رسمية . فبالنسبة للأمور الجارية ، كان يتخذ اسمًا مصريًا ، وإنْ كان يُسجل فى مكاتب التوثيق باسمه. وكان يتمتع ببنوة شرعية ، حيث كان اسم أبيه واسم أمه يُدونان فى السجل المدنى . كما كانت تُدون جنسيته. وكان يُدون على وثيقة تحقيق شخصيته اسم مالكه أو من تصرّف فيه . ورغم انتشار الرق فى عصر الدولة الحديثة ، لم يبلغ يومًا نسبة مرتفعة إذا قيس بمجموع السكان)) وذكرد. زناتى أيضًا أنّ من بين الشواهد على عدالة الحكام فى مصر القديمة ، ما كتبه ديودور الصقلى الذى ذكر أنّ ((عادة المصريين كانت تجرى فى حالة وفاة أحد ملوكهم ، بأنْ يوضع فى آخر أيام الحداد النعش الذى يضم رفاته أمام مدخل القبر، وأنْ تُشكل محكمة لتنظرفيما قدّم المتوفى من أعمال فى هذه الدنيا . وأباحوا لمن شاء أنْ يتهمه أمام الكهنة ، فتؤبنه معددة مناقبه وألوف الناس الذين اجتمعوا لتشييعه يُنصتون ويشتركون فى تأبينه ، إذا كان المتوفى قد قضى حقًا حياة مجيدة . أما إذا كانت حياته على العكس وضيعة تصايحت الجماهير)) وأضاف ديودورأنّ كثيرًا من الملوك حُرموا من حق الدفن الرسمى الذى تُخوّله لهم الشرائع نتيجة ((لاعتراض الشعب)) ولهذا ((كان من يخلفونهم على العرش يُقيمون العدل

خوفًا من العار الذى يلحق بأجسادهم بعد الموت ، ومن اللعنة الأبدية كذلــك . فالحرمان مـن الدفن طبقًا للطقوس المرعية ، وما كان يستتبعه ذلك من لعنة أبديــة ، كان يُشكل جزاءً يتهدد الملك الذى ينحرف عن الجادة ويسقط فى حمأة البغى والفساد)) وليس عجيبًا أنْ يقول ديودور الصقلى بعد ذلك فى وصف ملوك مصر، من واقع المعلومات التى ترامتْ إليه ((أنهـم لم يكونـوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الأخرى ، فيعملـون مـا يـشاؤون تبعًـا لأهـوائهم ، غيرخاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم ، لا فى حياتهم العامة فحسب، بل فى حياتهم الخاصة ، وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك . وأنّ الملك لم يكن فى قدرته أنْ يقضى فى المخاصمات وفق ميوله الشخصية ، وإنما وفق ما تنص عليه القوانين فى كل حالة)) .

وذكرد. زناتى أنه تم العثورفى قبور الأسرة السادسة على بعض النصوص بها اعترافات وزراء هذه الأسرة ، منها ((كنتُ أقضى بين الطرفيْن على نحو يُرضيهما)) ، ((لقـد قـضيتُ بـين الطـرفيْن على نحو يُهدّئهما)) كذلك جاء فى نقوش مقبرة أحد وزراء الدولة الوسطى أنه كان يُـصدّق عـلى مستندات الحدود ، فيفصل بذلك بين مالك الأرض وجاره ، وأنّ كلماته كانت تُؤلف بين الأخوة ، فيعودون إلى بيوتهم فى سـلام . وذكرديـودور الـصقلى أيـضًا أنّ عـادة المـصريين ((كانـت تجـرى بتنـصيب أفـضل الرجـال مـن أحـسن المـدن قـضاة عمـوميين ، فكـانوا يُنتقـون مـن كـل مـدن هليوبولوس وطيبة ومنف عشرة قضاة ، ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون مـن بيـنهم أفـضلهم رئيسًا للقضاة ، ثم ترسل المدينة قاضيًا آخر ليشغل مكانه)) وأكد ديودورعلى أنّ النظام القضائى فى مصر القديمة ((عرف نظام الاستئناف أمام محكمة أعلى)) وأنّ ((القضاء فى مصركان مدنيًا ولم يكن دينيًا)) .

أمـا العـالم الكبـير(ماسـبيرو) فكتـب أنّ ((المـرأة المـصرية مـن الطبقـة الـدنيا والمتوسطة أكثراحترامًا وأكثراستقلالا من أيـة امـرأة أخـرى فى العـالم)) وكتـب العـالم

(ماكس ميلر) : ((لم يكفل أى شعب قديم أو حديث للمرأة مركزًا قانونيًا مماثلا فى سموه ، كما كفله لها سكان وادى النيل)) وذكرالعالم (باتوريه) : ((كل الشعوب القديمة ، فى الغرب كما فى الشرق ، يبدو أنها اجتمعتْ حول فكرة واحدة : أنْ تجعل من المرأة كائنًا أدنى من الناحية القانونية . أما مصر فإنها تعرض لنا منظرًا جد مختلف ، فنحن نجد فيها المرأة مساوية للرجل من الناحية القانونية ، لها نفس الحقوق وتُعامل بنفس الكيفية)) وبعد أنْ نقل د. زناتى هذه الفقرات من علماء متخصصين فى الحضارة المصرية ، كتب ((لقد تمتعتْ المرأة فى مصر(الفرعونية) بمكانة فى المجتمع والأسرة لم تبلغها المرأة لدى شعب من الشعوب القديمة ، بل فى كثيرمن المجتمعات الحديثة ، فلم يعرف المصريون فكرة انفصال الجنسين ولا حجاب المرأة ، بل كانت المرأة تغدو وتروح فى حرية وتتحدث مع من تشاء وتخرج بين الناس سافرة الوجه . وكانت تُسهم بنصيب كبيرفى الحياة الاجتماعية)) .

وذكرد. زناتى ((فى مصرالقديمة هناك من الدلائل ما تُشير إلى أنّ الزوج والزوجة ، كانا يُعاملان ، بالنسبة للحق فى الطلاق ، على قدم المساوة ، فكانت للزوجة حرية الانفصال عن زوجها ، كما كانت للزوج حرية الانفصال عن زوجته، وذلك عكس الكثيرمن الشرائع القديمة التى لم تكن تُساوى بين المرأة والرجل ، حيث كان الطلاق حقًا مطلقًا للرجل)) وفى مصرالقديمة ((فى حالة الطلاق يرد الطرف الراغب فى الانفصال الحقوق المالية للطرف الآخر، لا فرق بين المرأة والرجل)) كذلك فإنّ ((القانون المصرى سمح بزواج الأرامل ، لا سيما من النساء ، وهو أمر كان يُخالف ما جرتْ به بعض المدنيات القديمة التى كانت تحظرعلى الأرملة عقد زواج جديد)) كما أنّ ((القانون فى مصرالقديمة كان يعترف للبنت بحق ميراث يساوى تمامًا حق الابن)) .

وإذا كانت عقوبة الإعدام هى أشد وأغلظ العقوبات لمن يقتل غيره ، فإنّ جدودنا المصريين ابتكروا عقوبة أشد من الإعدام وأكثر قسوة من الإعدام ، خاصة

لمن يقتل أحد الأشخاص من ذوى الرحم ، مثل أنْ يقتل الأب ابنه أو العكس إلخ ، هذه العقوبة الفريدة رصدها ديودور الصقلى الذى ذكر أنّ الأب الذى يقتل ابنه ، لم تكن تُوقع عليه عقوبة الموت ، وإنما عقوبة أخرى هى ((أنْ يحتضن الأب القاتل جثة ابنه القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليال تحت إشراف حراس رسميين)) وذكر ديودور أنّ النساء اللائى يقضى ضدهن بالموت ((فإنّ العقوبة لا تُنفذ فيهن اذا كنّ حبالى . وقد نقل كثيرمن مدن اليونان هذا القانون)) وذكرد. زناتى أنه بعد دخول (= غزو) العرب مصر((أخذتْ المرأة المصرية (المسلمة) تفقد شيئًا فشيئًا من حريتها واستقلالها . أما المرأة القبطية (يقصد المسيحية) فقد ظلتْ محتفظة بحريتها واستقلالها زمنًا غيرقصير)) (لمزيد من التفاصيل أنظر : «تاريخ القانون المصرى فى العصور: الفرعونى والبطلمى والرومانى والإسلامى» تأليف د. محمود سلام زنانى – أستاذ تاريخ وفلسفة القانون وعميد كلية الحقوق بجامعة أسيوط – ط عام 1985- من ص 50 – 474) .

وقد ارتبط بمبدأ العدالة الاجتماعية ، فى الحضارة المصرية ، خاصية أخرى لصيقة بهذا المبدأ ، أى احترام الصغيرللكبير، حتى لوكان الصغيررئيسًا للكبير، وفى هذا السياق جاء فى نصائح الحكيم المصرى (آنى) : ((لا تبقى جالسًا عندما يكون آخر واقفًا ، إذا كان أكبر منك سنًا ، ولو كنتَ أعظم منه مقامًا)) وفى تعميق هذا المعنى الإنسانى النبيل ذكر هيرودوت (القرن الخامس ق. م) والذى زارمصر وقضى بها عدة سنوات ، أنّ المصريين فى زمنه ((كانوا يأخذون أنفسهم فعلا بهذا المبدأ الأخلاقى)) وقال ((يُشبه المصريون أهل (سبرطة) وحدهم دون سائر اليونانيين فى وجه آخر: إذا قابل الصغارمنهم الكبار أفسحوا لهم الطريق وتنحوا جانبًا . وإذا أقبل عليهم الكبار قاموا من مقاعدهم)) (أنظر : هيرودوت يتحدث عن مصر – ترجمه عن الهيروغليفية د. محمد صقر خفاجة – هيئة الكتاب المصرية – عام 87 ص 186، 187) وكانت ذروة العدالة فى الحضارة المصرية ، أنّ القانون

الجنائى والمدني فى مصرالقديمة ، لم يكن يُفرّق فى العقوبة على أساس الوضع الاجتماعى أوالطبقى للجانى ، بمعنى تطبيق مبدأ المساواة التامة على الغنى والفقير، على الوزير والخفير. وفى هذا السياق ذكرعالم المصريات الكبيرجيمس هنرى برستد، أنّ الأساس الخلقى اللازم للعدالة كان معدومًا كلية فى الحضارة البابلية ((حتى أنّ دستور قانون (حمورابى) كان يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى أو المذنب . أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية ، فلم يكن معروفًا فى بابل)) وكان العالم الكبيربرستد موفقًا عندما نقل للقارئ المادة المنصوص عليها فى قانون حمورابى التى نصّتْ على ((إنّ كل العقوبات والأحكام القضائية تُدرّج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية)) وكان تعليق برستد ((وهذه الحقيقة تُفسرلنا على الفور، السبب الذى من أجله نعتبر أنّ ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلقى فى غربى آسيا ، فى حكم العدم)) أما عن القانون الجنائى والمدني فى مصر القديمة فذكر((إنّ المنزلة الاجتماعية أو المرتبة العالية لم تعط المصرى القديم أية ميزة فى نظرالقانون . وكان الفرعون يُنبّه على وزيره الأكبر بألا يُظهر احترامه للأفراد بصفة كونهم أمراء أو مستشارين . أى أنّ هذا المبدأ كان من صلب دستورالدولة المصرية قديمًا . أما عند البابليين فكانت العدالة الاجتماعية التى هى بعينها الأساس الذى يقوم عليه الرقى الخلـــقى ، ناقصة جدًا ، بل معدومة بالمرة ، وعلى ذلك لم تُساهم مدنيتهم مساهمة جوهرية فى تاريخ آسيا الغربية الخلقى)) (فجرالضمير- ترجمة سليم حسن – مكتبة مصر- دارمصر للطباعة – سعيد جودة السحاروشركاه – وهيئة الكتاب المصرية – مكتبة الأسرة عام 99- ص 33 ، 236 ، 368) .

***

وبينما نجد علماء علم المصريات يُجمعون على تطبيق مبادئ العدالة فى الحضارة المصرية ، نجد – فى نفس الوقت – أنّ مؤرخى الحضارات القديمة ، يُجمعون على

أنّ الحضارات القديمة التى تزامنت – نسبيًا – مع مصر لم تعرف مبادئ العدالة بين مواطنيها . وفى هذا السياق ذكرالعالم المصرى د. إمام عبدالفتاح إمام: أنّ من العيوب الخطيرة فى النظام السياسى والاجتماعى فى أثينا : (1) لم يكن مفهوم الشعب مُحددًا تحديدًا صحيحًا ، بل اقتصر الأمر على الأثينيين واستبعد الأجانب والرقيق (= العبيد) والنساء (2) لم تكن الحرية الشخصية مكفولة (حرية الانتقال وحرمة المسكن وحق الأمن) (3) حرية الفرد بالمعنى الدقيق لم يكن لها وجود (حرية العقيدة – الملكية.. إلخ) ذلك أنّ ((الدولة كانت تُسيطرعلى الأفراد سيطرة تامة ، فلابد للفرد أنْ يعتنق دين الدولة ، كما أنّ أملاك الفرد وثروته لابد أنْ تكون تحت تصرف الدولة. كما أنّ اليونان فهموا معنى مصطلح (الشعب) فهمًا قاصرًا ، فجعلوه يعنى مجموع المواطنين الأثينيين الذكور الأحرارممن بلغوا سن العشرين ، وبذلك أخرجوا النساء والمقيمين والعبيد من مفهوم الشعب . بل إنّ أفلاطون فهم الشعب فى النظام الديمقراطي على أنه مجموع الغوغاء أو الدهماء ومن على شاكلتهم . ولهذا السبب كان حكم الشعب عند اليونان ذا تطبيق محدود جدًا ، فلم تكن السلطة السياسية فى الواقع فى يد الأغلبية ، وإنما كانت فى يد المواطنين (الأحرار) وحدهم ، وهم فئة محدودة لاتتجاوز عُشرسكان المدينة فى بعض الروايات على أحسن الفروض . وهذا الفهم القاصر ذاته لمصطلح (الشعب) هو الذى ساد الديمقراطية الرومانية ، إذْ كان المواطن الرومانى الحر الذكر هو وحده الذى يحق له الاشتراك فى إدارة شؤون الدولة السياسية. وفضلا عن ذلك ، فقد استطاعتْ الإمبراطورية الرومانية أنْ تُخضع لسيطرتها الجزء الأكبر من العالم المعروف وقتئذ ، وأنْ تُحوّل أسرى الحروب إلى عبيد ، بل أنْ تُحوّل أعدادًا غفيرة من أبناء الشعوب المهزومة إلى عبيد . وكانت النتيجة أنْ بلغ عدد العبيد فى الإمبراطورية الرومانية عام 24 ق. م نحو 20 مليون نسمة مقابل 214 ألف نسمة فقط من المواطنين «الأحرار»)) .

فى هذا النظام الاجتماعى والسياسى ، الذى ميّز بين أبناء الشعب الواحد وقسّمهم إلى (أحرار) و(عبيد) كان من الطبيعى أنْ يُباع الفيلسوف أفلاطون فى سوق العبيد فى عهد الطاغية (ديونسيوس) وشاء قانون المصادفة أنْ يتعرّف أحد تلاميذ أفلاطون عليه ، فاشتراه وأعتقه. ورغم ذلك فإنّ أفلاطون (الفيلسوف الكبير) يعتبر الديمقراطية من ((أنظمة الحكم الفاسدة ، وجعلها تحتل المكانة قبل الأخيرة فى دورته لأشكال الحكومات الفاسدة ، بل جعل الطغيان – وهو أشد أشكال الحكم فسادًا وسوءًا – نتيجة مباشرة للديموقراطية)) كما هاجم أفلاطون فكرة المساواة (بين المواطنين) رغم أنّ المساواة واحدة من أهم أركان الديموقراطية. أما أرسطو(الفيلسوف الكبير) فهو((يُحذر من مخاطر الديمقراطية ويؤكد أنها نظام من الحكم يؤدى إلى عدم الاستقرار السياسى)) .

وفى ضوء ما تقدم كان من الطبيعى أنْ يكون عدد (العبيد) أكبرمن عدد (الأحرار) ولذلك يرى الفقيه القانونى الفرنسى (بارتلمى) فى كتابه (القانون الدستورى) أنّ عدد العبيد كان يبلغ فى مدينة أثينا 200 ألف ، فى حين أنّ عدد المواطنين (الأحرار) لم يكن يزيد على 20 ألفًا ، أى أنّ عدد العبيد يبلغ عشرة أمثال عدد المواطنين (الأحرار) (د. عبدالحميد متولى – الوجيز- حاشية رقم 23) وجاء فى مدونة (جوستنيان) أنّ عادة أمراء الجيوش جرتْ بعدم قتل الأسرى إبقاءً على حياتهم ، وهؤلاء يُطلق عليهم ((مِلك اليمين)) أو يُباعون إلى الغير باعتبارهم عبيدًا أو يكون الشخص عبدًا بمولده (مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى ، نقلها إلى العربية عبدالعزيز فهمى – عالم الكتب بيروت – ونقلا من جانبى عن د. إمام عبدالفتاح إمام – الديموقراطية والوعى السياسى – نهضة مصر- يناير2006 – الصفحات 16، 24، 37، 60، 63، 78، 79، 111) فى هذا الواقع الاجتماعى والسياسى الذى شهدته اليونان القديمة وروما القديمة ، الواقع الذى وضع البذرة الضارة للتمييز بين البشر على أساس الثنائية الشريرة (عبد / سيد) فى هذا الواقع

اللاإنسانى لم تكن مصادفة أنْ يتم (صلب) ستة آلاف إنسان وصـمتهم رومـا ب (العبيـد) وذلـك على طول الطريق من كابو capual إلى روما بعد (النصر) الرومانى (أنظر: أثينا إفريقية سـوداء- تأليف مارتن برنال – مجموعة مترجمين – المجلس الأعلى للثقافة- عام 97 ص 705) وهوالواقع الذى لم تعرفه الحضارة المصرية بشهادة علـماء علـم المـصريات وشـهادة المـؤرخين الـذين زاروا مصر القديمة وعاشوا فيها لعدة سنوات . وبينما تم فى اليونان إعدام الفيلسوف سـقراط ، وبيـع الفيلسوف أفلاطون ، فإنّ علماء علم المصريات والمؤرخين توقفوا عند ظاهرة غايـة فى الأهميـة ، وهى أنّ الحضارة المصرية ، لم تعرف أى شكل من أشكال اضطهاد الحكماء (= فلاسفة) مـثلما حدث فى اليونان ، رغم العثورعلى برديات تنتقد فكرة (الآلهة) بل وتتشكك فى وجودهم (برستد – فجرالضمير- مصدرسابق – ص 175، 182، 187) بل أكـثرمن ذلـك شـهدتْ الحـضارة المـصرية فترة أطلق عليها عالم المصريات الكبيرأدولف إرمان ((عهد الإلحاد)) (أنظر: ديانة مـصرالقديمة – ترجمة د. عبـدالمنعم أبـوبكر، د. محمـد أنورشـكرى – مكتبـة الأسرة – عـام 97 ص 126، 393، 447) وعن التشكيك فى الآلهة المصرية نقل الشاعر د. حسن طلب عددًا من النـصوص المـصرية مـن واقـع البرديـات التـى تؤكـد عـلى وجـود (فلـسفة ماديـة) لاتـؤمن إلاّ بظـواهر الطبيعـة والواقع (انظر رسالته للدكتوراة فى كتابه «أصل الفلسفة- حول نشأة الفلسفة فى مصر القديمـة- وتهافت نظريـة المعجـزة اليونانيـة- » عـين للدراسـات والبحـوث الإنـسانية والاجتماعيـة- عـام 2003 مـن ص 156- 162) ومـع ذلـك لم يحـدث أنْ تـم إعـدام أحـد مـن هـؤلاء المتـشككين فى وجـــود الآلهـــة المـــصرية ، بيـــنما تـــم إعـــدام الفيلـــسوف ســـقراط بتهمـــة ازدراء الآلهـــة اليونانية والترويج لآلهة أجنبية ، الآلهة المصرية تحديدًا ، وهو الأمرالذى جعل أدولف إرمان أنْ يكتب أنّ ((الآلهة اليونانية قد تمصّرتْ)) (المصدرالسابق – ص 437) فإذا كان هـذا هـو المـشهد الحضارى فى مصر، فلماذا يُـصركتاب (مـصريون) عـلى وصـف الحـضارة المـصرية بأنهـا (حـضارة

سخرة) ؟ هل هناك سبب آخر غير فقدان الانتماء لتراثهم وغير درجة عالية من الدونية القومية ، أفقدتهم الحد الأدنى من الموضوعية (ناهيك عن الحس القومى) وذلك عكس (كل) الكتاب فى (كل) دول العالم ؟ إنّ (الموضوعية) و(الحس القومى) لا غنى عنهما لأى باحث تكون (الحقيقة) هى قبلته الوحيدة ، ولأنّ الشاعرحسن طلب امتلك الموضوعية والحس القومى ، لذلك ذكرأنّ الحضارة المصرية لم تعرف السخرة ، ولم تعرف عبودية الشعب للفرعون (= الملك) فكتب ((إنّ التاريخ الحضارى المصرى يُكذب هذا الوصف ، ويجعلنا نقطع بأنّ المصريين ، حتى فى أدنى طبقاتهم ، لم يكونوا مجرد عبيد للفرعون ، والبحوث التى تشيع عكس ذلك مغرضة ، أو هى على الأقل غيرخالصة لوجه العلم)) (د. حسن طلب - مصدرسابق – ص 29) وإذا كنتُ أستبعد مخاطبة أصحاب الأفكار سابقة التجهيز، فإننى أتوجه إلى أصحاب العقول الحرة المتجردة من أية أيديولوجيات ، ليقرؤوا معى ما كتبه الفيلسوف أفلاطون فى (الجمهورية) ورأيه فى الحرية حيث نص على ((إنّ أقصى ما تصل إليه الحرية من تطرف فى مثل هذه الدولة (= المدينة الفاضلة التى كان يطمح فى وجودها) هى أنْ يغدو العبيد من الرجال والنساء ، الذين يُشترون بالمال ، متساوين فى حريتهم مع ملاكهم الذين اشتروهم)) وكان د. فؤاد زكريا الذى ترجم (جمهورية أفلاطون) على حق عندما ذكر فى الهامش ((كان العبيد فى أثينا يتمتعون بحرية نسبية ، تفوق تلك التى كانوا يتمتعون بها فى سائر مدن اليونان . ولنلاحظ جيدًا أنّ أفلاطون يحمل بشدة على هذا النوع من الحرية ، مؤكدًا أنه أسوأ مظاهر الديمقراطية)) (جمهورية أفلاطون – ترجمة د. فؤاد زكريا – المؤسسة العامة للتأليف والنشر- دار الكاتب العربى للطباعة والنشر- عام 1968- ص 314) هذا هو الوضع فى اليونان ، التى يُسبّح بعظمتها كثيرون من (المصريين) الذين يُهاجمون الحضارة المصرية ، حضارة جدودهم ، ويتهمونها بالعبودية ، دون أى دليل من علم المصريات أو علم اللغويات ، وإنما بتأثير التراث العبرى المعادى لمصر.

كما نجد أنّ المسئول عن ملحق الجمعة بصحيفة الأهرام يوافق على نشر(نـص) مـسرحى لا علاقة له بالإبداع الأدبى لأحد الكتاب بعنـوان (محاكمـة فرعـون) وهـذا الـ (نـص) كلـه إسـاءة للفرعون (الجد الأعلى والرمزالقومى لكل المصريين) والكاتب لايُفرق بين ما هـو دينـى ومـا هـو تاريخى ، فى عمل – المفترض أنه عمل أدبى – وتكون قمة المأساة أنْ يكـون ممثـل الـدفاع عـن الفرعون هو (أبوبكرمحمد الحاتمى الطائى المعروف باسم ابن عربى) (صحيفة الأهرام 98/12/4).

أما الضابط اليسارى (يوسف صديق) الذى كان السبب فى نجاح انقـلاب يوليـو52 وأحـد الذين غدر بهم عبدالناصر الذى أمر باعتقاله واعتقال السيدة زوجتـه وبعـض أقاربـــه . انتقـل يوسف صديق من سجن الأجانب إلى السجن الحربى ، وفى المعتقـل شـعر الرجـل بمـرارة الغـدر، ولأنه كان يُجيد كتابة الشعر، كتب قصيدة وصف فيها عبـد النـاصر بالـدعى اللعـين ، المـضلل ، الجبار، الذى سجن النساء ولم يحترم وقار الشيوخ . وتكون ذروة إحساسه بالمراة وهو يكتب :

أعرضى يباح ويُلقى به   على ناظريك بقاع السجون

وكل رجالى غدرت بهم   أكل رجالى من المجرمين ؟

والقصيدة كلها ترجمة ذاتية لأحاسيس ومشاعر الرجل (يوسف صديق) تجاه عبد الناصر الذى أحكم قبضته على الحكم وغدر بالشرفاء أمثال يوسف صديق وخالد محيى الدين ، فكتب يوسف صديق هذه القـصيدة فى الـسجن الحـربى فى شـهر يونيـو54 عـن هـذا الحـاكم الطـاغى (عبدالناصر) ويختار لقصيدته عنوان (فرعون) ثم يـستخدم هـذا الرمـز ثـلاث مـرات فى أبيـات القصيدة ، قارنًا عبدالناصر الطاغى بالفرعون (الطـاغى الأعظـم) (انظـر كتـاب « أوراق يوسـف صديق» – هيئة الكتاب المصرية – ص 278) .

أمـا عبـدالناصر الـذى شـبّهه يوسـف صـديق ب (الفرعـون) فإنـه يُعلـن أنـه بـرىء

(ومعه الشعب المصرى كله) من هذه التهمة (الفرعونية) حيث وقف أمام الشعب السورى فى ساحة الجلاء ، أمام قصر الضيافة فى دمشق يوم 9 مارس 58 ليقول: ((كنا نشعر بكم فى هذه المنطقة من العالم وقد عزلونا عنكم وأرادوا أنْ يُقيموا فى مصر بلدًا يتنكر لعروبته وينتمى إلى الفرعونية)) وفى خطاب 59/7/22 قال – والعالم كله يسمعه – ((واستطعنا أنْ نرى أنّ الدعوة الفرعونية التى حاول الاستعمار(هكذا) أنْ يبثها بيننا ضمن الدعوات الأخرى التى حاول أنْ يبثها بين الأمة المصرية (لاحظ – عزيزى القارئ - التناقض) إنما هى محاولة زائفة يحاول الاستعمار بها أنْ يُقسّم الأمة العربية ليقضى عليها جزءًا جزءًا ويقضى على العرب والقومية العربية ليحل محلها قوميات أخرى)) (مجلد مجموعة خطب عبدالناصر القسم الثانى- فبراير58 إلى يناير1960- طبعة مصلحة الاستعلامات ص 55 ، 468) .

***

كان عبدالناصر صريحًا ومباشرًا وهو يُعلن عداءه للشيوعيين (مصريين ولبنانيين وسوريين وعراقيين) وكانت المفردات التى استخدمها فى كل خطبه لاتخرج عن المعانى التالية : إنّ الشيوعيين عملاء لتعاونهم مع الاستعمار والصهيونية (وهى تهمة عقوبتها الإعدام) وفى خطاب 59/12/23 (المصدرالسابق من ص 693 – 705) استخدم صيغته المفضلة ((الشيوعيين العملاء)) 26 (ستة وعشرين مرة) أما باقى المفردات فهى إطلاق الصفات التى تمس الكرامة الإنسانية مثل الوضاعة والسفالة .. إلخ ووفقًا للمصدر السابق الصادرعن مصلحة الاستعلامات ، فإنّ الصفحات التى هاجم فيها الشيوعيين تعدت الأربعين صفحة ، مع ملاحظة أنّ هذه الصفحات تُغطى الفترة من فبراير58 إلى يناير1960 فقط .

كان من الطبيعى أنْ يكون للشيوعيين الشرفاء الذين تعرّضوا للاعتقال

والتعذيب فى معتقلات عبدالناصر، أنْ يكون لهم موقف من هذا الحاكم المستبد المعادى لأبسط حقوق الإنسان ، أى حقه فى الاعتقاد . فكيف وصف (بعض) الشيوعيين عبدالناصر؟ فى شهادته عن تجربة اعتقاله فى سجن القلعة ، ذكرالشاعر أحمد فؤاد نجم (المتهم بالانتماء لأحد التنظيمات الشيوعية) أنه اكتشف وجود كتابات محفورة على جدران الزنزانة . كان من بينها العبارات التالية ((إنّ غدًا لناظره قريب)) ، ((لينصرن الله من ينصره)) ، ((إنّ فرعون علا فى الأرض)) وكتب أحمد فؤاد نجم أنه بدأ يتعرف على سكان المكان (أى زملائه الشيوعيين) من هذه الكتابات المحفورة على جدران الزنزانة ، والتى من بينها ((إنّ فرعون علا فى الأرض)) (انظر نص الشهادة- صحيفة الميدان 99/2/9 ص 7) .

إنّ درس علاقة عبدالناصر ببعض الشيوعيين (أو العكس) يؤكد أنّ ثمة لغة مشتركة جمعت بين الجلاد والضحية ، وكانت هذه اللغة المشتركة هى احتقارالذات القومية ، وتمثل ذلك الاحتقار فى شخص جدهم الأعلى فرعون (أيًا كان اسمه) وبمراعاة أنه جد كل المصريين .

كذلك يحلو لكاتب كبيركما تصفه الثقافة السائدة أنْ يُردد (بين الحين والحين) مزاعم بنى إسرائيل المعادية للمصريين ، فكتب أنّ ((النبى موسى عليه السلام خرج بقومه اليهود هاربًا إلى سيناء ، بعد أنْ قتل مصريًا انتقامًا لواحد يهودى)) وذكرأيضًا أنّ رمسيس الثانى قتل كل أطفال اليهود إلاّ واحدًا)) (انظرعلى سبيل المثال – صحيفة الأهرام 99/3/6 ، 99/4/6) .

إنّ هذا المثال يُثيرالتساؤل التالى : لمصلحة من التركيز(فى صحيفة سيارة واسعة الانتشار) على تشويه صورة الفرعون العظيم رمسيس الثانى ، وتقديمه للقارئ على أنه سفاح لايتورع عن قتل الأطفال ، فى خلط متعمد بين ما هو دينى وما هو تاريخى . بل إنّ هذا الصحفى (الكبير) عندما كتب عن واقعة أنّ موسى قتل مصريًّا انتقامًا لواحد يهودى فهو يتبنى التراث العبرى ، ويُردد ما جاء فى العهد القديم ، حيث

نص على ((وحدث فى تلك الأيام لما كبرموسى أنه خرج إلى إخوته لينظر فى أثقالهم، فـرأى رجـلا مصريًّا يضرب رجلا عبرانيًّا من إخوته ، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنْ ليس أحد فقتل المصرى وطمره فى الرمل)) (خروج 2 : 11- 13) والسؤال الذى لم يتوقف أمامـه هـذا الكاتـب الـصحفى (الكبير) هو : إذا افترضنا صدق ما جاء فى العهد القديم ، وأنّ المصرى كان يضرب العبرانى ، فهـل مجرد (الضرب) يُبرر القتل ؟ خاصـة وأنّ القاتـل نبـى مرسـل مـن الإلـه العـبرى ؟ كـما أنّ هـذا الصحفى بتبنيه لنصوص العهد القديم ، زايد على ما جاء فى القـرآن العظـيم ، إذْ جـاء فيـه عـن موسى (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَـا رَجُلَـيْنِ يَقْتَـتِلَانِ هَـذَا مِـن شِـيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِـنْ عَـدُوِّهِ فَـوَكَزَهُ مُـوسَى فَقَـضَى عَلَيْـهِ) [القصص:15] ففى هذه الآية الكريمة لانجـد أى ذكـر لحكايـة أنّ ((رجـلا مـصريًا يـضرب رجـلا عبرانيًا)) كما جاء فى العهد القديم ، وإنما مشاجرة بين رجلين ، كما أنّ موسى شعر بالندم بعد أنْ قتل المصرى (قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَـدُوٌّ مُّـضِلٌّ مُّبِـينٌ {15/28} قَـالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْـتُ نَفْـسِي فَـاغْفِرْ لِي) [القـصص :15 ، 16] بـل وأكـثر مـن ذلـك مـا جـاء فى سـورة طـه (وَقَتَلْـتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) [طه:40] وذكر الإمام أبوجعفرمحمد بن جرير الطـبرى أنّ موسى عندما دخل المدينة وجد رجليْن يقتـتلان ، أحـدهما مـن شـيعة مـوسى ، أى مـن بنـى إسرائيل ، والآخرمن القبط . قال (موسى) ربّ إنى ظلمتُ نفسى فاغفرلى فغفرله إنه هـو الغفـور الرحيم . فأصبح (موسى) يترقب خائفًا أنْ يؤخـذ ، فـإذا الـذى استنـصره بـالأمس يستـصرخه أى يستغيثه (قال له موسى إنك لغوى مبين) ثم أقبل لينصره فلما نظـر إلى مـوسى قـد أقبـل نحـوه ليبطش بالرجل الذى يُقاتل الإسرائيلى قال الإسرائيلى (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِـالْأَمْسِ إِن تُرِيـدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّـارًا فِي الْأَرْضِ وَمَـا تُرِيـدُ أَن تَكُـونَ مِـنَ الْمُـصْلِحِينَ) (تـاريخ الطـبرى المعروف بتاريخ الأمم والملوك - مؤسسة الأعلمـى للمطبوعـات - بـيروت - لبنـان - ط 4 عـام 1983 ج 1 ص 275 ، 278) الـسؤال الثـانى هـو : لمـاذا يُزايـد صـحفى (مـصرى) عـلى القـرآن

العظيم وعلى ما ذكره الطبرى فى تاريخه ، ويتوقف بصفة خاصة أمام العهد القديم ، مُردّدًا ما ذكره أنّ موسى قتل المصرى انتقامًا لواحد يهودى ؟ مع ملاحظة أنّ الصياغة فى التوراة غامضة ، حيث أنّ النص لم يذكرأسباب الانتقام .

والسؤال الثالث هو : لماذا يُردد صحفى (مصرى) أنّ رمسيس الثانى قتل كل أطفال اليهود فى تبنى واضح لأكاذيب بنى إسرائيل ؟ ولايذكر(مثلا) ما جاء فى سفرالتثنية ((وهوالكلام الذى كلم به موسى جميع إسرائيل)) (الإصحاح الأول) ففى هذا السفريقول موسى لبنى إسرائيل أنه عند الدخول إلى مدينة لمحاربتها وقبلتْ الصلح ، فإنّ أبناء الشعب المغزو يتحولون إلى عبيد لبنى إسرائيل . أما فى حالة رفض الصلح ، يقول موسى ((وإنْ لم تُسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها . واذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك)) (تثنية 20 : 10- 15) ولماذا لم يذكر((وكلّم الرب موسى قائلا احص النهب المسبى من الناس والبهائم ، أنت وألعازر الكاهن ورؤوس آباء الجماعة ، ونصّف النهب بين الذين باشروا القتال)) (عدد 31 : 25- 28) ولماذا لم يذكر التحريض الصريح على سرقة المصريين (خروج 3 : 18- 22) وآيات التحريض على القتل والسلب والتخريب فى العهد القديم يصعب حصرها خشية التكرار، وإنما ذكرتُ الأمثلة السابقة لأعيد صياغة السؤال : لماذا تحرص الثقافة السائدة (والأستاذ الصحفى جزء منها) على تصوير ملوك مصر(الفراعنة وفق التعبير العبرى) على أنهم قتلة أطفال اليهود ؟ ولماذا لم يُفكر كتاب تلك الثقافة فى رد فعل أحفاد بنى إسرائيل المعاصرين وهم يقرأون هذا الكلام ؟ ولماذا لا يُشير هؤلاء الكتاب إلى أنّ العهد القديم به آيات عديدة تنص صراحة على أنّ إله العبريين (قتل كل بكرفى أرض مصر من بكرالناس إلى بكرالبهائم) (خروج 12 : 29 ، خروج 13 : 15 ومزمور87 : 51) وهى مجرد أمثلة بالطبع .

فى عام 1954 أنتجت السينما الأمريكية فيلم (الوصايا العشر) من إخراج سيسل دى ميل ، وهو تكرارفج للأيديولوجيا العبرية المعادية للحضارة المصرية . ومنذ ذلك التاريخ لم تُقدّم السينما المصرية فيلمًا واحدًا يرد على أكاذيب وفجاجة سيسل دى ميل ، وإنما شاهد المصريون (وبالطبع شعوب أخرى) فيلم (المهاجر) من إخراج (مصرى) تصفه الثقافة السائدة بالمخرج العبقرى ، ومع ذلك فإنه لم يفعل شيئًا مختلفًا عما فعله دى ميل ، وإنما قلّده تقليدًا حرفيًا وتبنى توجهاته ، وليته اكتفى بذلك ، إنما زايد عليه .

إنّ بطل فيلم المهاجر(رام) يُمثل شخصية يوسف بن يعقوب (وهو ما تؤكده التترات باللغة الفرنسية) والفيلم تكرارفج لأكاذيب بنى إسرائيل كما وردت فى العهد القديم ضد مصر، فالمصريون فى الفيلم وحوش ، تُعبر وجوههم عن القسوة وفى أيديهم السياط ، والفرعون أبله والفنان المصرى مصاب بداء اللواط (وهى عادة عبرية ولم تعرفها الحضارة المصرية ، ومارسها العبريون باعتراف كتابهم الذى يُقدّسونه) وفى المقابل فإنّ رام (= النبى يوسف) هو الذى علم المصريين الزراعة . ويُركزالفيلم على أنّ ثمة قطعة أرض عجزالمصريون عن زراعتها ، فإذا ب (رام / يوسف) هو الذى يقود فريق العمل ، وفى نهاية الفيلم تنجح خطته العبقرية ، وتتحول الصحراء الجرداء إلى جنة خضراء بفضل عبقرية رام / يوسف . فى إسقاط واضح على ما فعله الإسرائيليون فى سيناء بعد إحتلالها عقب كارثة بؤونة / يونيو 67 ، وبالتالى فإنّ رسالة الفيلم هى : أنه لامفر من الاستعانة بالخبرة الإسرائيلية ولا بأس من العمالة المصرية .

إنّ مخرج فيلم المهاجر زايد على ما جاء فى العهد القديم وعلى ما جاء فى القرآن العظيم ، إذْ لايوجد أى ذكر فيهما على أنّ يوسف علّم المصريين الزراعة ، وإنما كان دوره فى (هذين المصدرين اللذين اعتمد المخرج عليهما متجاهلا المراجع العلمية والمؤرخين المعاصرين للأحداث وعلم المصريات) هو تخزين الغلال فقط لمواجهة

سنوات القحط ، ففى القرآن العظيم (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) [يوسف] وفى شرحه لهذه الآية الكريمة ذكرالطبرى ما يلى ((فى قوله (أى يوسف) اجعلنى على خزائن الأرض ، قال على حفظ الطعام ، إنى حفيظ عليم ، يقول إنى حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى المجاعة فولاه الملك ذلك)) (المصدر السابق ج1 ص 243) وهو ذات المعنى الذى ورد فى العهد القديم (تكوين 41 : 33 – 36) .

يقول المثل الشعبى ((فاقد الشىء لا يُعطيه)) فإذا كان يوسف ، باعتراف العهد القديم ، مجرد راعى غنم (تكوين 37 : 2) فإنّ السؤال هو : كيف يُمكن مخاطبة العقل البشرى فى العصر الحديث وإقناعه بالتزوير(وهوتزوير ضد النصوص التى اعتمدها المخرج وضد وقائع التاريخ وضد المنهج العلمى) بأنّ راعى الغنم علّم الزراع الزراعة ؟

إنّ التوجه الأيديولوجى يختلف عن لغة العلم ، كتب أ. شفيق مقارأنّ ((سجلات التاريخ توقفنا على أنّ المصريين لم يعرفوا نظام صوامع الغلال وتخزين الغلال من أقدم العصور فحسب ، بل وعرفوا أيضًا نظام تخزين المياه ، والمثال الحى على ذلك فرعون الأسرة الثانية عشر أمنمحوتب الثالث (1959- 1910 ق .م) وخزان المياه العظيم فى منخفض الفيوم . أما الحبوب – كالذرة والشعير، لا القمح وحده- فهذا ما كان المصريون يفعلونه فيما يخصها ، منذ عهد المملكة القديمة)) ونقل أ. مقارعن عالم المصريات الكبير أدولف إرمان ما يلى ((فى نهاية الحصاد ، كان مستخدمان من مستخدمى المزرعة ، هما (كاتب الصوامع) و(كيّال الغلال) يأتيان وبعد أنْ يؤدى كل منهما عمله ، فيكيل الكيّال أكوام الغلال ، ويقوم كاتب الصوامع بتسجيل ذلك . كانت الغلال تؤخذ إلى الصوامع ، وكانت الصوامع – على مرالعصور – تُبنى على نفس النسق)) وأضاف إرمان أنّ ((المصريين كانوا يزرعون الخضر. وقد ذكرالعهد القديم على ألسنة الخارجين من مصرعندما جاءوا

فى القفر وافتقدوا قدوراللحم والسمك وغيره مما كانوا يأكلونه فى أرض مصر(مجانًا) وأنّ المصريين زرعوا مختلف الخضروات والقثاء والبصل والثوم والبطيخ)) وكان تعقيب أ. مقار((فالمصريون- كما ترى- لم يكونوا بحاجة إلى عبد عبرانى من البدو الرحل الرعاة كيوسف ليُعلّمهم (حكمة) تخزين الغلال فى سنى الوفرة ، ليكون لديهم احتياطى منها فى سنى الشح ، وهم الذين أعطوا العالم أول حضارة عرفها التاريخ عندما تعاملوا ، فى وطن مستقر مع النيل ، وعرفوا أهمية السياسة الزراعية وسياسات أخرى)) (شفيق مقار- المصدرالسابق – ص 89) .

إنّ فيلم المهاجر يُجسّد مأساة الهجوم على الحضارة المصرية ، هجوم لم يعد قاصرًا على الميديا الصهونية (سيسل دى ميل ، ستيفن سبيلبيرج وغيرهما) وإنما يأتى الهجوم من فنان مصرى ، كان تاريخ السينما المصرية ينتظرمنه أنْ يرد على المخرجيْن المذكوريْن ، فإذا به يمشى وراءهما ، مردّدًا أكاذيب بنى إسرائيل . كنا ننتظرمن المخرج (المصرى) أنْ يرد على هذه الأكاذيب ، خاصة أنّ فيلم (الوصايا العشر) الأمريكى يزيد الجرح إيلامًا ، فهذا الفيلم تم تصويره فى مصرعام 1954 (أى بعد انقلاب يوليو بعامين) وأنّ ((مجاميع الكومبارس كانت من جنود الجيش المصرى)) (نقلا عن الناقد السينمائى أ. مصطفى درويش فى كتابه أربعون سنة سينما- صندوق التنمية الثقافية-عام 2003 ص 101) والدرس هنا أنّ ضباط يوليو تصرّفوا مع الشركة المنتجة لفيلم (الوصايا العشر) بأحد احتمالين لاثالث لهما: الأول تكليف أحد المختصين بقراءة ومراجعة سيناريو الفيلم ومتابعة تصوير المشاهد ومراحل تنفيذ الفيلم وبالتالى وافقوا عليه ، وإما أنهم لم يهتموا أصلا (سواء بقراءة السيناريو أو الاطلاع على مضمون الفيلم إلخ) مع أنّ هذا حق أصيل لمصر بمراعاة أنّ التصويرتم على أرضها ، ومع ذلك سمح ضباط يوليو باستخدام جنود الجيش المصرى فى فيلم معادى للمصريين . وأيًا كان أحد الاحتمالين ، فإنّ المسئولين فى هذه الفترة الحالكة من تاريخ مصر، قد شاركوا فى ارتكاب جريمة

إنتاج فيلم أمريكى تعمّد صانعوه تشويه الوجه الحضارى لمصر. وإذا المخرج المصرى (العبقرى) لم يُفكرفى الرد على أكاذيب سبيلبيرج مخرج فيلم (أميرمصر) أو على أكاذيب سيسل دى ميل مخرج فيلم (الوصايا العشر) فإنّ عالمة المصريات (الفرنسية) الكبيرة كريستين نوبلكلور ذكرتْ فى كتابها عن (رمسيس الثانى) والذى طبع منه مليون نسخة ((عندما أرى أفلامًا مثل (الوصايا العشر) تُصوّر المصريين وهم يدوسون فوق رقاب العبيد الساميين ، أشعر بالغضب . فهذا كذب وافتراء)) .

***

وقرأتُ هجومًا من كاتب سيناريو مصرى على فيلم (أميرمصر) ولكن انصبّ هجومه على استبعاد أنْ يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج فكتب أنّ ((فرعون الخروج هو الفرعون السادس من ملوك الهكسوس تحديدًا)) (أهرام 99/3/6) أى أنّ هذا السيناريست (المصرى) يعتبر الدفاع عن الوطن وطرد اليهود الذين احترفوا الجاسوسية لحساب الهكسوس ضد مصر، وصمة عار يجب نفيها عن الفرعون المصرى ، ويُقدّم هذا الشرف للهكسوس . وهنا تجدر الإشارة إلى الملاحظات التالية :

* لم يستقرعلماء المصريات على اسم الفرعون الذى طرد بنى إسرائيل من مصر .

* الفرعون (أيًا كان اسمه) الذى طرد بنى إسرائيل من مصر، هو واحد من الملوك العظام ، ويجب على كل مصرى أنْ يفخربه للأسباب التالية :

سمح بسماتيك الأول لليهود أنْ يتدفقوا على مصر، وأنْ يُنشئوا لأنفسهم مستعمرة خاصة بهم ، بل سمح لهم أنْ يُقيموا معبدًا لإلههم (يهوه) بل إنه بفضل تسامح المصريين ورحابة صدورهم ، عاش اليهود فى مصر(أنظرد. محمد بيومى مهران- تاريخ الشرق الأدنى القديم- دار المعارف بمصر عام 1976 ج 3 ص

325 ، 384) بعد هذا العطاء والتسامح من المصريين ، ماذا حدث ؟ ((وهكذا انتهت الأمور باليهود أنْ نسوا لمصر أنها أطعمتهم من جوع وآوتهم من تشرد وكستهم من عرى ، فردوا لها الجميل نكرانًا ، وكانوا عليها للفرس أعوانًا وفى حاميتهم جنودًا)) وكان لابد أنْ تزداد كراهية المصريين لليهود ((بعد أنْ رأوهم بعد أطول إقامة فى البلاد خونة وجواسيس ومثار فتن ودسائس وأذنابًا لأعداء البلاد)) (د. محمد بيومى مهران – المصدر السابق ص 380) .

يمتلئ العهد القديم بالتناقض بين اعتراف بنى إسرائيل بفضل مصرعليهم وبين العداء لمصر وشعبها . فنجد أنّ (كل) جماعة بنى إسرائيل تتذمر ضد موسى وهارون والسبب ((وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذْ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزًا للشبع)) (خروج 16 : 2 ،3) وكذلك ((فعاد بنو إسرائيل وبكوا وقالوا منْ يُطعمنا لحمًا . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانًا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم)) وأيضًا ((إنه كان لنا خير فى مصر)) وأكثرمن ذلك ((أليس خيرًا لنا أنْ نرجع إلى مصر)) (عدد 11 : 4- 6 ، 18 عدد 14 : 3 وأنظر أيضًا عدد 24 ، 25) هذا الاعتراف الصريح من بنى إسرائيل بفضل مصر عليهم ، يقابله عداء بشع ضد مصر والمصريين ، وليس له أى تبرير على المستويين التاريخى والإنسانى ، من ذلك- كمثال- ما جاء فى سفر حزقيال ((وتكون أرض مصر مقفرة وخربة ، فيعلمون إنى أنا الرب ، وأجعل أرض مصر خربًا خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تُخُم كوش . وأجعل أرض مصر مقفرة فى وسط الأراضى المقفرة ومدنها فى وسط المدن الخربة تكون مقفرة أربعين سنة وأشتت المصريين بين الأمم وأبددهم فى الأراضى .. إلخ)) حزقيال 8-16 .

هؤلاء هم بنو إسرائيل ودورهم المخرب والمعادى لمصر باعتراف كتابهم الذى يقدسونه ، واذا كان البعض لايؤمن إلاّ بالمرجعية الدينية ، فها هو العهد القديم ينص على ((ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين ،

على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتـصير دمًـا ، فيكـون دم فى كل أرض مـصر، فى الأخـشاب وفى الأحجـار)) وبعـد أنْ أطـاع مـوسى وهـارون أمـر ربهـما العبرى ((تحوّل كـل المـاء الـذى فى النهـر دمًـا ومـات الـسمك الـذى فى النهـر وانـتن النهـر فلـم يقدرالمصريون أنْ يشربوا ماءً من النهر . وكان الـدم فى كـل أرض مـصر)) (خـروج 7 : مـن 19 – 22) .

والإله العبرى المنحاز لبنى إسرائيل لم يكتف بأنْ جعل الدم فى كل أرض مصر، وإنما أطلق الضفادع والبعوض والدمامل والجراد و(الذبان) إلخ على كل المصريين ، ليس فى الحقـول والنهـر فقط ، وإنما داخل البيوت وفوق المخادع والأسرّة (أى فى غرف النوم) هـذا بخـلاف قتـل مـواشى المصريين لأنّ الرب ((يُميّز بين مواشى إسرائيل ومواشى المصريين)) (خروج 9) .

هذا الانحياز لبنى إسرائيل مـن الإلـه العـبرى وصـل لدرجـة القـضاء عـلى كـل المـصريين ((فدفع الرب المـصريين فى وسـط البحـر، فرجـع المـاء وغطـى مركبـات وفرسـان جميـع جيـوش الفرعون الذى دخـل وراءهـم فى البحـر، لم يبـق مـنهم ولا واحـد)) (خـروج 14 : مـن 26- 31) وكذلك ((قال موسى يقول الرب إنى نحو نصف الليل أخرج وسط مصر فيموت كل بكـر فى أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحـى وكـل بكـر بهيمـة ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر لم يكن مثله ولن يكون مثله أيضًا)) والإله العبرى قبل أنْ يقتل المصريين ، وحتى لا يُخطئ بين بيوتهم وبيوت بنى إسرائيل ، فإنه يطلب من الأخيرين مـا يلى ((ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها ، فـأرى الـدم وأعـبر عـنكم ، فلايكـون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر ويكون لكم هذا اليوم تذكارًا فتعيدونه عيدًا للرب ، فى أجيالكم تُعيدونه فريضة أبدية)) (خروج 11 :4- 7 ، خروج 12 : 13، 14) .

وقبـل تنفيـذ هـذه المجـزرة ، فـإنّ الإلـه العـبرى يُحـرّض بنـى إسرائيـل صراحـة عـلى

سرقة المصريين فقال ((فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل إلى مصر وتقولون له إله العبرانيين إتقانا . فالآن نمضى سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا ، ولكنى أعلم أنّ ملك مصرلا يدعوكم تمضون ولا بيد قوية . فأمد يدى وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها . وبعد ذلك يُطلقكم . وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين . فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبناتكم . فتسلبون المصريين)) (خروج 3 : من 18- 22) .

وصل العداء إذن لدرجة الجاسوسية والتحريض على السرقة وتحويل المياه والأرض إلى دم ، بل والإبادة ، وهو ما عبّرعنه العهد القديم إذْ نص على ((فخلّص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظرإسرائيل المصريين أمواتًا على شاطىء البحر)) (خروج 14 : 30 ،31) وكذلك ((... فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضًا إلى الأبد . الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمتون)) (خروج 14 : 11 – 14) وفى القرآن العظيم (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) [البقرة] وإذا كان علم المصريات يؤكد أنّ بنى إسرائيل عملوا مع أعداء مصر(مع الحيثيين ومع الهكسوس إلخ) ضد جدودنا المصريين القدماء ، ورفضوا الاندماج فى المجتمع المصرى الذى أمّن حياتهم ، ورفضوا العمل فى البناء والتشييد ، واعتبروا أنّ (العمل اليدوى) إهانة لا تليق بهم ، إزاء كل هذه الحقائق التى تمتلىء بها كتب علم المصريات ، ماذا كان يُنتظر من أى حاكم وطنى غير طردهم من مصر، وليس التمسك بهم كما يدعى العبريون ؟

***

وإذا كانت الميديا الصهيونية تتعمد تشويه صورة جدودنا الذين شيّدوا أول حضارة إنسانية ، فإنّ التليفزيون (المصرى) فعل نفس الشىء ، والأمثلة كثيرة ، منها مسلسل (لا إله إلاّ الله) ورسالته الهجوم على مصر، وهو ما جعل الشاعر الكبير أحمد

عبدالمعطى حجازى أنْ يكتب مقاله الشهيرفى صحيفة الأهـرام (الهكسوس يغـزون التليفزيـون المصرى) وكذلك مسلسل آخر للأطفال كتبتْ عنه المواطنة (منال غالب) أنه (من أجمل ما رأيتُ فى برامج التليفزيون الرمضانية ، برنـامج قـصص الأنبيـاء . وقـد أهلـتُ نفـسى وأطفـالى للتفـرغ لمشاهدة العرض . وكنا فى كل حلقة وكأننا نجوب معها العصر الذى تـروى عنـه بكـل مؤثراتـه ، ونحطم الأصنام ونحارب فرعون وجنوده ، ولهذا استمتعنا به كبارًا وصـغارًا . تحيـة للتليفزيـون على هذا البرنامج الممتع)) (بريد الأهرام 99/1/10) .

إننى أطرح هذا السؤال وأترك إجابته لضمير القارئ : ما الفرق بين ما يُقدّمه التليفزيـون (المصرى) وما تُقدّمه الميديا الصهيونية ؟ لقد رأينا بريد الأهرام يحتفى برسالة مواطنة (مصرية) لأنها شاهدتْ الحرب ضد ((فرعون وجنوده)) وتحرص على أنْ يجلـس أطفالهـا معهـا لمـشاهدة قتل جدودهم واحتقـار رمـوزهم القوميـة . وإذا كـان هـذا هـو الإعـلام الرسـمى ، فهـل يمكـن الحديث عن أى انتماء لأى مصرى لوطنه مصر ؟

إنّ احتقار الذات القومية ، المتمثل فى سب الفرعون ، خـط مـشترك لـدى العديـد من الكتاب (المصريين) الذين كتبوا عن ((فرعون الطاغى المـستبد)) ولأنّ المـسألة قوميـة وليست شخصية ، سأكتفى بذكر مصدر النشر ونقط بدل اسم الكاتب (... أهرام 90/9/7 ، ... الأهالى 92/5/20 ، ... الأهـالى 94/7/20 ، ... أهـرام 94/2/12 ، ... أهـرام 98/12/30 ، ... أهرام 99/3/1 ، ... أخبار اليوم 99/3/20 ومع ملاحظة أنّ هـذه الأمثلـة ليـست عـلى سبيل الحصر، وملاحظة أننى تعمّدتُ استبعاد الاستـشهاد بالكتـاب الـذين يؤمنـون بـأنّ مرجعيتهم الوحيدة هى المرجعية الدينية ، بمراعاة أنّ موقف هؤلاء الكتـاب لايحتـاج إلى دليل ، فهم بسبب مرجعيتهم الدينية مع الفكر العبرى المعـادى لمـصر، ولـذلك تعمّـدتُ التركيـزعلى الكتـاب الـذين يُفـترض أنهـم يُفرّقـون بـين المرجعيـة الدينيـة والمرجعيـة

المؤسسة على العلم والتاريخ ، ولكن تبين أنّ أولئك لايختلفون عن هؤلاء .

تعمّدتُ استخدام تعبير(الثقافة السائدة) ولم أستخدم (كل) الثقافة فى مصر، لأنّ الأمانة العلمية تقضى بالاعتراف بوجود بعض الكتاب المصريين الذين يحترمون لغة العلم ، التى سلّحتهم بإطار معرفى ، جعلتهم يُقدّرون خصوصية مصروحضارتها ومن أمثلة ذلك أننى نظمتُ سلسلة ندوات فى أتيليه القاهرة عام 1983 تحت عنوان رئيسى (صحيحة لغويًا وليس رئيس) هو (أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر) تحدث فيها كل من : أ. فتحى رضوان ، أ. السيد ياسين ، د. نعمات أحمد فؤاد ، د. سيد عويس ، د. فؤاد مرسى ، د. عبدالحميد يونس، د. حسين فوزى النجار. كان الملفت للنظر- وأنا أراجع هذه الندوات لطبعها فى كتاب- أنّ كل هؤلاء الكتاب أجمعوا على أنّ الحضارة المصرية هى مهد الحضارات الإنسانية ، وأنّ فكرة (الضمير) نشأت فى مصر، وأنّ هذه الحضارة كانت فيها الأسرة والمرأة والطفولة من المقدسات ، هذا بخلاف أنّ المصريين القدماء هم أول من أبدعوا علوم الهندسة والطب والفلك إلخ بالاضافة إلى فنون النحت والرسم وكتابة القصة ووصايا الحكماء إلى أبنائهم إلخ كما أجمعوا على أنّ الحضارة المصرية لم تكن حضارة سخرة أو عبودية (كما يدعى العبريون) وذكرأكثرمن محاضرأنّ العبيد لايُبدعون .

وإذا كان فيلم (أمير مصر) تم إنتاجه عام 1998 فإنّ د. حسين فوزى النجار حذر فى عام 1983 من ((تزييف المعرفة التى يقوم بها الإسرائيليون ، فإنهم يقومون بإنتاج فيلم سينمائى يُثبتون فيه أنهم بناة الأهرام)) وهو نفس الشىء الذى حذرت منه د. نعمات أحمد فؤاد (انظر نص الندوات فى كتاب أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر- إعداد وتقديم طلعت رضوان - هيئة الكتاب المصرية عام1999) .

ومن الكتاب الذين دافعوا عن الحضارة المصرية د. ميلاد حنا الذى كتب أننا

نحن المصريين لم نتعمق فى دراسة تاريخنا القديم بالقدرالكافى . ونوّه إلى الحقيقة التـى يتغافـل عنها كثيرون وهى أنّ مصر ليس بها كلية أو قـسم مـصريات . ومـا كتبـه د. مـيلاد حنـا فى هـذا الشأن يُساهم فى تعميق إحساس المصرى بمصريته ، ولكنه هدم ما كتبه- فى ذات المقال- إذْ ردّد مقولة أنّ المصرى الكبير(يويا) والد الملكـة (تى) هـو يوسـف النبـى العـبرى (أهـرام 97/9/2) إنّ ترسيخ الإدعاء بأنّ بعض الأنبياء العبريين مصريون ، يُشجع الميديا الـصهيونية التـى يُـسعدها أنْ يكتب كاتب مصرى مؤيدًا توجهاتها التى تسعى إلى تأصيل مقولـة أن بنـى إسرائيـل هـم بنـاة الحضارة المصرية ، وإنْ كان د. ميلاد حنا لم يقصد بالطبع الوصول إلى هذا الهدف ، فـإنّ العـبرة فى أثر هذا الكلام على القارئ ، لهذا كان من المهم الرد عـلى هـذا الادعـاء ، فكتبـت د. نعـمات أحمد فؤاد مقالا مهما فنّدتْ فيه هذا الزعم ، وكدأبها دائمًا ذكرت المراجع العلميـة التـى تؤكـد نفى هذه المزاعم ، وذكرت أنّ ((عقدة اليهود- كما يقول عالمهم فرويد- سبق مصرفى الحضارة)) (أهرام 97/10/15) .

وعندما تجـدّدتْ ادعـاءات الميـديا الـصهيونية فى الـترويج لأكذوبـة أنّ اليهـود هـم بنـاة الأهرام ، كتبت د. نعمات أحمد فؤاد سلسلة مقالات فنّدتْ فيها هذه الأكاذيـب بمرجعيـة مـن المؤرخين المعاصرين للأحداث وعلماء علم المصريات (أهرام 2 ، 9 ، 16 ، 23 سبتمبر98) .

وفى الوقت الذى هلّلتْ فيه الثقافـة الـسائدة لفـيلم المهـاجر، فـإنّ بعـض النقـاد الـذين يحترمون لغة العلم ، كتبوا نقدًا للفـيلم يتـسم بالموضـوعية ، مـنهم الناقـد الـسينمائى أ. أحمـد يوسف الذى كتب دراسة مهمة اختلف فيها مع لغة التمجيد الـسائدة التـى لم يهتـز ضـميرها ، ولم يتوقف عقلها أمام معادة الفيلم للحضارة المصرية، ولا للتزوير فى التاريخ ، ومن هنـا كانـت أهمية هذه الدراسة المنشورة فى مجلة اليسار فى العددين نوفمبر وديسمبر94 .

وخفّـف مـن حـزنى أنى قـرأتُ للطالـب الجـامعى (حـسام فـتح اللــه) الـذى كتـب بعـد

أنْ شاهد فيلم (أميرمصر) رسالة طويلة ، تنم عن وعى قومى يفتقده كثيرون من (كبار) الكتاب . ومن بين ما جاء فى رسالته ((اذا ربطنا بين فكرة الفيلم وبين الإدعاءات المتكررة بأنّ اليهود هم الذين بنوا الأهرام ، بل وبنوا حضارة مصر، لوجدنا أنّ هناك يدًا خفية تغزل بمهارة شديدة خيوط مؤامرة لتهويد حضارة مصر، وإرجاع مجدنا وحضارتنا إلى اليهود . ومن خبث من هم وراء هذا الفيلم ، أنه فيلم كرتون . فإذا كنتُ أنا الشاب 21 عامًا قد انبهرتُ به ، فماذا يفعل هذا الفيلم بالأطفال فى أنحاء العالم ؟ بالقطع سينبهر الأطفال ويُصدّقون ما ورد بالفيلم على أنه حقيقة ، ونجد أنفسنا بعد جيل أو إثنين قد أخذنا هذه الإدعاءات على أنها مسلمات لاتحتاج لجدال)) (انظر نص الرسالة – بريد الأهرام 99/1/25) .

ورغم أنّ المفكرالكبير المرحوم أ. خليل عبدالكريم متخصص فى التراث العربى والإسلامى ، إلاّ أنه وهو يكتب يكون بصره وتكون بصيرته دائمًا على مصر، واكتشفتُ أنه فى (كل) كتبه يعقد مقارنة بين الحضارة المصرية وبين العرب الذين غزوا مصر، وعلى سبيل المثال فإنه فى كتابه (العرب والمرأة) وبعد أنْ أثبت الوضع المزرى للمرأة العربية ، عقد مقارنة بينها وبين المرأة فى الحضارة المصرية ، ولأنه عالم يحترم لغة العلم ، فقد اعتمد على مجموعة من المراجع المتخصصة التى تناولت وضع المرأة فى مصر القديمة . أما عن السبب الذى فرّق وميّز بين الوضع الإنسانى للمرأة المصرية ، والوضع المتدنى للمرأة العربية ، فإنه ((بكل بساطة الفرق بين الحضارة ، بل أعرق حضارة عرفها التاريخ وبين البداوة)) (انظر كتاب العرب والمرأة – دار الانتشار العربى ، دارسينا للنشر- عام 98 ص 229 ، 230) ومن المفكرين المصريين الذين دافعوا عن الحضارة المصرية ، الراحل الجليل بيومى قنديل ، وخاصة فى كتابه (حاضر الثقافة فى مصر- أربع طبعات على نفقته الخاصة) وكذلك كتابه (دفاع عن تراثنا القبطى- الصادر عن دار ميرت للنشر- عام 2008) وكذلك مؤلفات د. مرفت عبدالناصر التى دافعتْ فى كل كتبها عن الحضارة

المصرية ، من واقع علم المصريات ، وليس بدافع حسها القـومى فقـط ، ومـن بـين كتبهـا عـلى سبيل المثال (لماذا فقد حورس عينه – قراءة جديدة فى الفكر المصرى) الصادر عن دار شرقيات عام 2005 ، وكتاب (معنى الوطن) الصادر عن نهضة مصر- عام 2009 ، وكتـاب(نقـش الـبردى) الصادر عن نهضة مصر – عام 2007 ، موسوعة (مصر فى عيون العالم) للـشباب فى عـشرة أجـزاء الصادرة عن دار الكتاب المصرى ، ودار الكتاب اللبنانى ثـم أعيـد نـشرها ضـمن مـشروع مكتبـة الأسرة عام 2007 ، وموسوعة (الفن المصرى القديم) للناشئين فى عـشرة أجـزاء الـصادرة عـن دار الكتاب المصرى ، ودار الكتاب اللبنانى ثم أعيد نشرها ضمن مـشروع مكتبـة الأسرة عـام 2005 ، وموسوعة (تاريخ الأفكار) للشباب الصادرة عن نهضة مـصر- ثلاثـة أجـزاء الـصادرة عـن نهـضة مصر- عام 2007 مع مراعاة أنّ ماذكرته على سبيل المثال بالطبع .

***

إذا كان بنو إسرائيل نجحوا فى احـتلال فلـسطين ، مـسلحين بمـرجعيتهم الدينيـة ، فـإنهم يستهدفون الاستيلاء على مصر، مُدججين بذات المرجعية ، فهم إلى الآن لازالوا يفرضون عـلى أولادهم أنْ يُردّدوا فى المدارس وفى صلواتهم فى المعابد ، ما جـاء فى العهـد القـديم ((فى ذلـك اليوم قطع الرب مع إبرام (إبراهيم فيما بعد) ميثاقًا قائلا لنسلك أعطـى هـذه الأرض ، مـن نهـر مـصر إلى النهـر الكبـير نهـر الفـرات)) (تكـوين 15 : 18) وإلـه العبريـين يُـوزع أراضى الغيرعلى بنى إسرائيل وبالجملة ، ويجد القارئ فى سفر التكوين وحده آيـات عديـدة ، منهـا على سـبيل المثـال ((وكـان فى الأرض جـوع غـير الجـوع الأول الـذى كـان فى أيـام إبـراهيم . فـذهب إسـحق إلى أبي مالـك ملـك الفلـسطينيين إلى جـرار. وظهـر لـه الـرب وقـال لا تنـزل إلى مصر. أسـكن فى الأرض التـى أقـول لـك . تغـرّب فى الأرض . فـأكون معـك وأباركـك . لإنى لـك ولنـسلك أعطـى هـذه الـبلاد)) (تكـوين 26 : 1- 5) وأكـثر مـن ذلـك فـإنّ أى أرض

تطأها أقدامهم هى ملك لهم طالما أنّ مرجعيتهم الدينية التى يتمسكون بها تقول لهم صراحة ((وكان بعد موت موسى عبد الرب أنّ الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات . فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلّمتُ موسى . من البرية ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات. جميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير.. إلخ)) (يشوع 1 : 1- 5) .

إنّ بنى إسرائيل المعاصرين لم يكتفوا بالمرجعية الدينية للاستيلاء على أراضى الغير، وإنما يزايدون على تلك المرجعية بإدعاء أنهم بناة الحضارة المصرية ، والترويج للكثيرمن الأكاذيب مثل أنّ (يويا) هويوسف وأنّ أخناتون هو موسى . وهى إدعاءات يُكذبها التاريخ والعلم . واذا كانت هذه هى إرادة الميديا الصهيونية ، فأين (إرادتنا) نحن المصريين ؟

إنّ الأمثلة المذكورة بعاليه ضئيلة قياسًا على الكم الهائل من الأمثلة التى تحت يدى ، وكانت النتيجة مرعبة ، وهى أنّ الثقافة السائدة فى مصر، تُقاوم الهجوم على الحضارة المصرية ، بل وعلى القومية المصرية بالعبرى ، أى على أرضية التراث العبرى المعادى لمصر، شعبًا وحضارة . ويعف ضميرى عن إتهام أى كاتب بالعداء لمصر، ولكننى فى نفس الوقت أقدّم السيادة للعقل الحر، وأنّ العبرة بما هو مدوّن ووصل إلى يد القارىء ، وليست العبرة بالنيات . وتكمن المأساة فى أنّ كثيرين من الشرفاء يكتبون بلغة العاطفة مرة أوبحسابات الأيديولوجيا مرات ، ضد لغة العلم، ويتخلون عن عقولهم ، عندما يخلطون بين ما هو تاريخى وما هو دينى ، وأنّ الكاتب الذى يسمح ضميره أنْ يسب ويهجو(الفرعون) ويعتبره النموذج الأكبر لكل الطغاة لايحترم لغة العلم ، ناهيك عن الدرجة التى وصل إليها من الدونية القومية .

إنّ ترديد إدعاءات بنى إسرائيل يستدعى استنفار كل الكتاب المصريين ،

بالإضافة إلى جهازىْ التعليم والإعلام ، للتصدى والرد على الميديا الصهيونية ، وهذا التصدى لن يكون ذات جدوى ، طالما أنّ الثقافة السائدة تقاوم إدعاءات الصهيونية الدينية بالعبرى (أى أنها مؤمنة بالتراث العبرى المعادى لمصر) بل إنّ هذه المقاومة بالعبرى تُضاف إلى رصيد العبريين أعداء مصر. وأرى أنّ المقاومة الجادة يجب أنْ تمر من خلال ترسيخ احترام علم المصريات ، وأنْ يكون مادة أساسية فى كل مراحل التعليم ، من الابتدائى إلى الجامعى ، كما تفعل دول الشعوب المتحضرة ، ولن تكون إلاّ بتعليم اللغة المصرية القديمة بمراحلها الثلاث (الهيروغليفية والديموتيقية والقبطية) وأعتقد أنه لو تمت الاستجابة لهذا المطلب القومى ، نكون قد ضمنّا- خلال عشرين أو ثلاثين عامًا- تخريج أجيال تعى تاريخها وتراثها ، وبالتالى تكون هذه الأجيال مسلحة بإطار معرفى- على أسس علمية- ويتأكد لديهم اليقين العلمى أنّ الحضارة المصرية التى أبدعها جدودهم ، كانت مهد الحضارات الإنسانية ، وأنّ الفراعين (= الملوك) كانوا وطنيين ، وكانوا يدافعون عن مصرفى الصفوف الأولى ، مثلهم مثل أى جندى (فى المتحف المصرى- قسم المومياوات- جثة الفرعون العظيم سقنن – رع وعلى وجهه وفى صدره آثارالجروح التى نتجت عن مشاركته الجنود فى محاربة الهكسوس) وسوف يترتب على هذا الوعى احترام وتبجيل جدودهم كما يفعل الإيرانيون وغيرهم من الشعوب ، وبالتالى لن يسمح ضمير أى مصرى بأنْ يسب جدوده ، كما تفعل الثقافة السائدة حاليًا .

إنّ الإطار المعرفى المدعم بأسس علمية ، هو بداية الطريق لاحترام ذواتنا القومية .



الفصل الثاني

مصر

والتراث العبري

عرض صحفى بجريدة الأهرام (97/11/13 ص 3) مُلخصًا لمحاضرة ألقاها د. مراد محمد الدش أستاذ مساعد الهندسة الإنشائية بجامعة عين شمس . والعرض يتسم بالإعجاب والانبهار، لأنّ المحاضر قدّم تفسيراً مختلفًا لأحداث التاريخ المصرى القديم ((يحمل مفاجأة علمية ضخمة تتعلق بمكان عبور موسى . وكان تحوتمس الثالث هو فرعون مصر آنذاك الذى بغى وتجبر.. إلخ)) وهذه المفاجأة (العلمية) الضخمة تُثير الملاحظات التالية :

كل الشعوب المتحضرة (اليونانيون ، الصينيون ، اليابانيون إلخ) يحترمون تراثهم ويُقدّسون جدودهم الذين حكموا بلادهم فى العصور القديمة ، وهؤلاء الحكام ينطبق عليهم الحكم القيمى غيرالعلمى (وثنيين) بمراعاة أنهم عاشوا قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين . وأنّ الأحفاد فى قرننا الحالى يُطلقون أسماء هؤلاء الجدود على أبنائهم . فلماذا ينفرد (المثقف) المصرى بهذه الدونية المتمثلة فى سب جدوده وتشويه تاريخهم الوطنى فى الدفاع عن مصر ضد الغزاة ؟

إنّ هذا الاحتقار ضد رموزنا القومية يشترك فيه أغلب الكتاب (المصريين) وبدأ بعد كارثة أبيب / يوليو 1952 عندما امتلك عبدالناصر جرأة شطب اسم مصر، وأصبحتْ هوية المصرى الحروف الثلاثة الشهيرة (ج . ع . م) وهو الفعل الذى لم يرتكبه الغزاة ، بدءًا بالهكسوس وحتى الإنجليز. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من النادر أنْ تجد مثقفًا فى قامة لطفى السيد أو طه حسين أو سلامة موسى أو درية شفيق أو سعاد الرملى أو منيرة ثابت إلخ الذين كانوا يدافعون عن مصر مهد الحضارة الإنسانية .

إنّ تحتمس الثالث الذى اتهمه د. مراد الدش بالبغى والتجبر، هو واحد من الفراعنة (= الملوك) العظام وعلى سبيل المثال كتب عنه (وولترإمرى) أنّ ((شهرة انتصارات تحتمس الثالث فى سوريا كانت كافية لردع أية فكرة ثورية فى كوش)) وأثناء حكمه ((وصلت إدارة النوبة إلى أعلى المستويات . وأنّ العمل فى مناجم الذهب والطرق التجارية قد تمتعا بالأمان فلم تقلقها إغارات البدو)) (انظركتاب : مصر وبلاد النوبة – ترجمة تحفة حندوسة – عام 1970 من ص 192 – 195) وكتب (جان يويوت) أنّ تحوتمس الثالث ((استمر يحكم أكثرمن ثلاثين عامًا ، كانت كلها سنوات مجد وازدهارعظيمين)) وأنه تمكن من ((جعل فينيقيا فى متناول الجيوش المصرية عندما أقام فى بيرو نفر(ضاحية منف) ترسانة بحرية بنى فيها أسطولا عظيمًا لنقل الجيوش)) وروى المؤلف تفاصيل انتصار تحتمس الثالث على ملك قادش فى معركة مجدو (تلك المدينة الحصينة) بفضل التكتيك العسكرى الباهر. وبعد معركة مجدو ((قام مندوبو دولة أشور بزيارته ، كما أرسل ملوك خاتى وبابل الهدايا للفرعون بعد عبوره الفرات ، ثم قدّم ملوك عازى وألالاخ فروض الطاعة للفرعون ، وهكذا تمكن فى أواخر حكمه أنْ يُعلن بحق أنّ حدود إمبراطوريته تمتد من كاروى جنوبًا إلى نهارين شمالا ، كما كان يتوجّه أحيانًا إلى النقب ليتعقب البدو ويقمع التمردات التى كانت تتوالى تباعًا)) (أنظركتاب : مصر الفرعونية- ترجمة سعد زهران- الناشر مؤسسة سجل العرب- سلسلة الألف

كتاب الأولى عام 1966 ص 108 ، من 115- 117) .

وجاء فى (معجم الحضارة المصرية) أنّ تحتمس الثالث أثبت أنه فاتح عظيم ، فقد هزم عصبة من الأمراء السوريين فى مجدو ، وقضى على مقاومة الممالك العظمى والصغرى فى فلسطين وسوريا ، فى حملات سنوية ، وأوقف زحف الميتانى ، تلك الدولة العراقية الشمالية التى زحفت حتى نهرالفرات ، وثبّت أقدام المصريين فيما بين الشلال الأول والرابع للنيل . وهذه الانتصارات منقوشة على جدران معبد آمون بالكرنك ، تُثنى على فتوحاته وأعماله الدينية الخيّرة. وأنّ مقصورته بالكرنك وبعض الآثار الطيبة الأخرى ومقابر موظفيه الجميلة ، تُفصح عن عظمة مؤسس أعظم حقبة فى تاريخ مصر)) (تأليف مجموعة من علماء المصريات- ترجمة أمين سلامة- مكتبة الأسرة- عام 96 ص 96 ، 79) .

أما د. محمد بيومى مهران فذكرأنّ تحتمس الثالث ((أعظم الفراعين المحاربين على الإطلاق فيما أعتقد)) (تاريخ الشرق الأدنى القديم- مصدرسابق- ج 3 ص 157 ، 227) .

وعن هذا الفرعون العظيم كتبت عالمة المصريات (مرجريت مرى) أنه فى عهده ((كانت القضايا المدنية متعلقة فى الغالب بالأراضى والوراثة ، وتتم محاكماتها أمام الوزير. ولما كانت كلها فى الغالب لفئة من الناس لها مكانتها ، كان لزامًا على الوزير أنْ يكون قاضيًا منصفًا . وقد أشار تحتمس الثالث إلى أهمية ذلك عندما عيّن (رخ- م- رع) لهذا المنصب فقال « إنّ المحاباة رجسٌ ضد الإله » ونبّه على الوزير الجديد بأنْ يُعامل الصديق والغريب والغنى والفقير على قدم المساواة « لأنّ الرهبة الحقيقية للأمير هى فى عدالته »)) وكتبتْ أيضًا أنّ المصريين أحبوا هذا الفاتح العظيم حبًا جمًا)) (أنظركتاب : مصر ومجدها الغابر - ترجمة محرم كمال- هيئة الكتاب المصرية- سلسلة الألف كتاب الثانى- رقم 290- عام 98- ص 91 ، 92 ، 221) .

هذا هو تحتمس الثالث فى علم المصريات ، ولكنه من منظور أستاذ الهندسة

الإنشائية فهو الفرعون الذى بغى وتجبّر لأنه اضطهد بنى إسرائيل وبالتالى ((هبط الوحى على موسى وتلقى رسالة ربه ليؤدب فرعون مصر.. إلخ)) وهنا تجدر الإشارة إلى الملاحظات التالية :

لم يستقر علماء علم المصريات على اسم الفرعون الذى طرد بنى إسرائيل من مصر . كما أنّ د. الدش اعترف بأنّ بنى إسرائيل فى عهد إمنمحات الثالث حاولوا ((السيطرة على الاقتصاد المصرى وجلبوا الهكسوس وساعدوهم فى السيطرة على البلاد. وتحوّل الهكسوس إلى مرتزقة يُسيطرون على المنطقة الشرقية لمصر، وحكموا فيها بدعم من بنى إسرائيل ، وعانى الشعب المصرى أشد المعاناة على يد بنى إسرائيل والهكسوس حتى تولى أحمس الأول مقاليد الحكم وعكف على وضع الخطط لطرد الهكسوس وكسر شوكتهم ومسانديهم من بنى إسرائيل ، حتى استطاع طرد الهكسوس الغزاة وكسر شوكة بنى إسرائيل . وجاء أمنحوتب الأول الذى تعقبهم وطاردهم فى كل مكان)) هذا هو نص كلام د. الدش الذى إتهم تحوتمس الثالث بالبغى والتجبر ، أضعه أمام القارئ ليحكم على هذه العقلية التى تتشبث وتُردد خراريف بنى إسرائيل .

***

ولاينقطع انشغال المتعلمين (المصريين) فى البحث عن (فرعون) الخروج . وقبل الإدعاء بأنه تحتمس الثالث ، كان السائد أنه رمسيس الثانى ، ولكن الرحلة التى قطعها هذا الملك العظيم من القاهرة إلى باريس أخرستهم . والحكاية أنّ الرئيس الفرنسى ديستان طلب من الرئيس السادات أنْ يسمح لبعض (العلماء) أنْ يأخذوا مومياء الفرعون الشهير ويُقدّمونها فى عرض مسرحى فى باريس ، وبعد ذلك كانت الحجة أو الحيلة هى العلاج . كان وراء هذا العلاج المزعوم التأكد من أنّ رمسيس الثانى هو فرعون الخروج ، وذلك من خلال الفحص المعملى ، لمعرفة ما اذا كان قد مات غريقًا أم لا . والنتيجة بالطبع هى تشويه المومياء .

وذكرأ. سعيد أبوالعنين أنّ جريمة خروج المومياء من القاهرة ، كانت بإلحاح

من طبيب مغربي يهودى ، كان يُعالج محمود أبو وافيه ، عديل الرئيس السادات . وللأمانة فإنّ د. جمال مختار رئيس هيئة الآثار فى ذاك الوقت (ديسمبر1975) رفض عرض الرئيس الفرنسى وقال له ((هذا شىء صعب . فهذا الملك هو من ملوك مصر العظام . ومن غير المقبول أنْ تسافر الجثة لتُعرض فى فرنسا . وهل توافقون سيادتكم على أنْ نأخذ منكم التابوت أو حتى غطاء تابوت نابليون بونابرت ، لنعرضه هنا فى مصر؟ وذكرد. جمال مختار أنه اتصل بيوسف السباعى (وزير الثقافة وقتها) ونقل له مخاوفه عن ردود الفعل التى يمكن أنْ يُحدثها سفر المومياء إلى باريس . ولكن يوسف السباعى لم يفعل شيئًا . ثم لجأ د. جمال مختار إلى رئيس الوزراء أيامها (ممدوح سالم) لإقناعه برفض فكرة خروج المومياء من مصر، ولكن ممدوح سالم لم يهتم بالأمر. وللأمانة أيضًا فإنّ أستاذة فرنسية فى كلية العلوم عارضتْ الرئيس ديستان . وقالت إنّ هذا عبث . وأنّ هذه المومياء التى يريدون إخراجها من مصر لعرضها فى فرنسا هى لواحد من أعظم ملوك مصر. وأنها سوف تقود مظاهرة تُندد بهذا العبث إذا لم يتراجع الرئيس ديستان . وكان لإثارة القضية على هذا النحو أثره الكبير، فقد تراجع الرئيس ديستان وبعث برسالة إلى الرئيس السادات أعلن فيها أنه تراجع عن فكرة عرض المومياء فى باريس . ونشرت الصحف الفرنسية رسالة ديستان إلى السادات .

ولكن بعد تدخل أبو وافيه تغير الموقف ووافق الرئيس السادات على سفر المومياء . وكان أكثر المُصرين على خروج المومياء من مصر هو الطبيب الفرنسى (بوكاى) الذى كانت له علاقات واسعة بكثير من الشخصيات المرموقة فى العالم (العربى والإسلامى) وكان يعرف الكثيرين من الشخصيات المسئولة فى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية فى مصر. وتبعًا لذلك صدرتْ توصيات من كبار المسؤولين ومن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالاحتفاء به ومساعدته وتلبية طلباته وتسهيل مهمته (العلمية) .

وإذا كانت الثقافة السائدة فى مصر لم تهتم بخروج مومياء رمسيس الثانى من مصر، فـإنّ صحيفة (الهيرالد تريبيون) كتبت أنّ الضجة التى أثيرت فى الإعلام الفرنسى حول مـرض الفرعـون وضرورة علاج المومياء إلخ ، لم تكن سوى حيلة لإخراج الملك رمسيس من مـصر، لوضـعه تحـت الفحص والبحث والدراسة ، لمعرفة أسرار هذه الشخصية . وتعمّد موشى ديّان أنْ يـزور موميـاء الفرعون العظيم فى المستشفى ، وأخذ ينقرعلى أصابع قدميه بعـصا المارشـالية ، وقـال لـه بكـل أحقاد اليهود ((أخرجتنـا مـن مـصر أحيـاءً . وأخرجنـاك منهـا ميتًـا)) ووصـلت ذروة المأسـاة فى التقرير المصور فى التليفزيون الفرنسى ، ومدته 20 دقيقة. فى هذا التقرير المصور ظهرتْ المومياء عارية تمامًا بعد أنْ نزعوا اللفائف الكتانية التى كانـت تحميهـا . وكـان المـذيع الفرنـسى شـديد التعصب لخراريف بنى إسرائيل ، فقال للمشاهدين ((إلـيكم فرعـون مصرالـشهير. إلـيكم ملـك ملوك الفراعنة . إليكم الملك رمسيس الثانى . إليكم الفرعون الذى طارد اليهود قبل أكثرمن ثلاثة آلاف عام . الفرعون الذى اضطهد بنى إسرائيـل وسـخرّهم فى أعـمال البنـاء والتـشييد وسـقاهم سوء العذاب)) هذا التقرير المـصور فى التليفزيـون الفرنـسى ، هـزّ ضـمير الـشعب الفرنـسى وفى المقدمة المثقفين الفرنسيين ، الذين توجه عدد كبير منهم إلى السفارة المصرية فى باريس وسجلوا رفضهم واستنكارهم لهذا العمل المشين الذى أساء إلى شخصية تاريخية عظيمة .

كتبتْ عالمة المصريات كريستين نوبلكورفى كتابها عـن رمـسيس الثـانى والـذى طبع منه مليون نسخة أنّ ((التوراة ظلمت رمسيس وكل ما قالته عنه غير صـحيح . وظلمت مـصر والمـصريين)) وأنّ التـوراة كتـاب مليـىء بالقـصص والحكايـات التـى جُمعتْ مـن هنـا وهنـاك . وأنهـا لايمكـن أنْ تُعـد وثيقـة تاريخيـة وبـصفة خاصـة بالنسبة لمصر)) وكتبتْ ((إننى أرفض الافتراء على التاريخ وعلى الملك رمـسيس . وأنّ الإدعاءات اليهودية على الملك رمسيس هى محض افتراء ولـيس لهـا أى أسـاس مـن

الصحة . إنّ سِفر الخروج يُشير إلى وقائع لايوجد لها أى أثر فى كل ما وجدناه من كتابات ونقوش مصرية ، على الرغم من أنّ هذه الكتابات والنقوش كانت ترصد تفصيلات صغيرة جدًا لا تقارن بخروج مئات الآلاف من البلاد . هناك فى سجلات الحدود تسجيل لكل حركات المرور عبر الحدود ، حتى إنّ راعيًا ومعه 40 رأس غنم يعبر الحدود ، كان عبوره يُرصد ويُسجل . واذا كنتُ فى كتابى عن رمسيس الثانى قد تحدثتُ عن خروج اليهود من مصر، فقد فعلتُ ذلك للأمانة العلمية . إنّ واجب عالم المصريات أنْ يقول رأيه بأمانة . إنّ ما تقوله التوراة من أن المصريين كانوا يُسخرون اليهود لضرب الطوب ، يجعل أى دارس لتاريخ مصر القديمة يبتسم . إنّ ضرب الطوب فى مصر قديم قدم الزمن . وأنا أرفض تمامًا الافتراء على التاريخ لإدانة فترة أو زمن بعينه . ولم يكن الفراعنة قساة ، لأنّ الساميين الذين كانوا يفدون إلى مصر للعمل بها ، كانوا يعيشون حياة هانئة . هذه هى حقائق التاريخ الثابتة . إنّ الشعب المصرى يتمتع بحكمة هائلة لا أجدها فى الشعوب الأخرى . كما يتمتع بنظرة فلسفية للأمور. وعندما أرى أفلامًا مثل فيلم (الوصايا العشر) تُصورالمصريين وهم يدوسون فوق رقاب العبيد الساميين ، أشعر بالغضب . فهذا كذب وافتراء)) هذا هو رأى عالمة مصريات فرنسية عن جدودنا المصريين القدماء . و ذكرتْ أنه عند نقل تابوت الملك رمسيس إلى مركب بالنيل تتجه به إلى القاهرة ((وقف المصريون على الشاطىء عند الأقصر وكأنهم يُشاركون فى جنازة عصرية . فالنساء يولولن من الحزن وينشرن الغبارعلى شعورهن . والرجال يُطلقون النار من البنادق)) .

بعد أنْ أثبتتْ الفحوص الطبية والمعملية أنّ مومياء رمسيس الثانى ليس بها أية آثار تدل على الغرق ، وبالتالى ليس هو فرعون الخروج ، فإذا بالطبيب الفرنسى (بوكاى) يركب رأسه العبرى فى اتجاه مومياء الفرعون العظيم مرنبتاح ، وأنه هو الغريق وبالتالى فهو فرعون الخروج ، ولكن د. جمال مختار رفض هذا الرأى وقال إنّ

(بوكاى) ليس موضع ثقة وليس مؤهلا علميًّا .

من هو مرنبتاح ؟ لقد اضطر هذا الملك فى العام الخامس من حكمه إلى إرسال حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصرالغربية ، بعد علمه أنّ رئيس قبيلة الليبو(ليبيا) غزا حدود مصرالغربية ومعه زوجاته وعددهن 12 زوجة ، الأمرالذى فسره مرنبتاح أنّ هذا الغزو يعنى الاستيطان فى وادى النيل . فأعدّ جيشًا قويًا من المشاة والمركبات الحربية . واستطاع فى معركة دامت 6 ساعات أنْ ينتصرعلى (اللوبيين) وأنْ يأسر9 آلاف منهم . وذكرت النقوش المصرية التى ترجع إلى عهده تفاصيل هذه الحرب على أحد جدران معبد الكرنك . وفى أعقاب هذا النصر كُتبتْ (أنشودة الانتصار) التى ورد فيها عبارة ((وإسرائيل قد انقطعت بذرتها)) ويرى عالم المصريات د. عبدالعزيز صالح أنّ لوحة إسرائيل التى تتضمن أنشودة النصر قد اعتبرت إسرائيل من ((نزلاء فلسطين)) وأنّ مرنبتاح فى هذه اللوحة لم يذكر تتبعه لهم ، وهو ما يؤكد أنّ بنى إسرائيل دخلوا فلسطين قبل عهده ، وأنهم خرجوا من مصر- بالتالى- قبل عهده . واذا كان مرنبتاح حكم مدة 10 سنوات ، فمعنى ذلك أنه عاش 5 سنوات فى الحكم بعد خروج بنى إسرائيل . وأنّ هذا الأمر((يتناقض مع قول التوراة بأنّ (فرعون) قد غرق فى البحر الأحمر. بل ويتنافر مع قول القرآن العظيم بأنّ (فرعون) غرق وأنّ جثته قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه . قال تعالى: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) . وأكثر من ذلك فإنّ جثة مرنبتاح (فرعون الخروج حسب تفسيرات بعض اليهود) موجودة وقد عُثر عليها فى طيبة الغربية ، أى بالبر الغربى للأقصر، وهم يقولون أنه غرق فى البحر الأحمر ولم تظهرجثته)) .

رغم كل هذه الحقائق لجأ الطبيب (بوكاى) إلى التلفيق ليؤكد أنّ مرنبتاح هو فرعون الخروج وأنه مات غريقًا إلى آخر هذه الخراريف . وكانت الكارثة الأكبر- كما ذكرأ. سعيد أبوالعنين- أنّ بعض المجلات المصرية نشرت هذا التلفيق ووضعت

صورة (بوكاى) على الغلاف (لمزيد من التفاصيل انظر كتاب الفرعون الذى يُطارده اليهود بين التوراة والقرآن – تأليف سعيد أبوالعنين – سلسلة كتاب اليوم – مؤسسة الأخبار- عدد مايو97) .

***

بعد فشل الجرى وراء تحتمس الثالث ووراء رمسيس الثانى ووراء مرنبتاح ، استدار الدماغ العبرى ليبحث عن ملك آخر ليكون هو فرعون الخرج ، فقال إنه أمنحوتب الثالث (صحيفة القاهرة – 2007/8/7) وهكذا يتطوع دماغ باحث (مصرى) ليؤكد خراريف بنى إسرائيل عن ملوكنا العظام . فهذا الملك هو ابن تحتمس الرابع ، وبلغت الإمبراطورية المصرية فى عهده أوج مجدها . وكانت تعتمد على سياسة خارجية ماهرة . وكان من جراء تحاشى الدولة القيام بأعمال حربية ، أنْ سنحتْ للأمراء الوطنيين فى آسيا الفرصة كى ينكثوا بولائهم . فبدأ النفوذ الحبشى يقوى على حساب مصر. وقد اعترف أمنحوتب الثالث بآتون كإله شخصى (قبل أخناتون) ولكنه استمر يُكرم قدامى آلهة وطنه (معجم الحضارة المصرية- مصدرسابق- ص 57)

الملاحظ أنّ الباحثين (المصريين) المنشغلين بمن هو فرعون الخروج ، يعتمدون على المرجعية الدينية ، وهى مرجعية لاتصلح لأى بحث علمى ، يعتمد على البرديات وكتب المؤرخين وعلماء المصريات وعلماء اللغويات ، والأهم إجادة اللغة المصرية القديمة . كما أنهم لايتوقفون أمام ذواتهم ليسألوا أنفسهم : أليس هذا البحث العبثى عن من هو فرعون الخروج ، هو أحد هموم الصهيونية الدينية ؟

وفى هذا السياق دأب كثيرون من الكتاب (المصريين) على ذكرأنّ اسم مصر ورد كثيراً فى العهد القديم (انظر: صحيفة القاهرة 2008/6/30 كمثال) وأنّ اسم مصرتردد 560 مرة . مشكلة هذه الكتابة أنها تهتم بالكم ولاتراعى أهداف

هذا التكرار لاسم مصر، خاصة أنّ التكرار له صبغة أيديولوجية معادية لمصر.

ورد اسم مصر لأول مرة فى الإصحاح 12 من سفر التكوين ، الذى ذكر أنـه كـان جـوع فى الأرض ، لذلك انحدر إبرام (إبراهيم فيما بعد) إلى مصر. وقال لساراى (سارة فـيما بعـد) امرأتـه قولى إنك أختى ، ليكون لى خير بسببك . ولما ذهبتْ ساراى إلى بيت فرعون ، صنع إلى إبرام خيرًا بسببها . وصارله غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وجمال . ثم تكون المفاجأة أنـه فى الآيـة التاليـة مباشرة نقرأ ((فضرب الربُ فرعونَ وبيتـه ضربـات عظيمـة بـسبب سـاراى امـرأة إبـرام . فـدعا فرعونُ إبرامَ وقال ما هذا الذى صنعت بى . لماذا لم تُخبرنى أنها امرأتك ؟ لماذا قلـت هـى أختـى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى ؟ والآن هو ذا امرأتك (مكتوبة هكذا) خـذها وإذهـب . فـأوصى عليه فرعون رجالا فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له)) (الآيات مـن 10- 20) والـسؤال هـو: لمـاذا غضب الرب وأنزل ضرباته العظيمة على الفرعون وبيته ، رغم أنـه وثـق فى كـلام إبـرام عـلى أنّ ساراى أخته وبالتالى أخذها الفرعون كزوجة وأعطـى لأخيهـا مهرهـا ؟ سـؤال تتجاهلـه الثقافـة السائدة ، ناهيك عن التفكير فيه . كما تتجاهل أنّ عمر سـاراى عنـد دخولهـا مـصركان 65 سـنة وفق رواية التوراة ، وتتجاهل أنها قادمة مـن صـحراء جـرداء بعـد رحلـة صـفعتها فيهـا الريـاح وغطتْ وجهها بالرمال ، فأىُ جمال هذا الذى ادعته التوراة فى وجه ساراى حتى تـسبى فرعـون مصر، وبالتالى خشى عليها زوجها (إبرام) من أنْ تفتن بجمالها ملك مصر، فأمرها أنْ تـدّعى أنهـا أخته (أخت إبرام) وليست زوجته ؟ وهل مصر خلتْ من البنات الجمـيلات ليختـار ملـك مـصر من بينهن زوجة له ؟ وهل كان (الفرعـون) أعمـى البـصر والبـصيرة ليتـزوج مـن امـرأة عجـوز قادمة من الصحراء الجرداء وعلى وجهها وجسدها آثار الجوع (وفق رواية التوراة أيضًا) ؟ أسئلة مسكوت عنها ، ناهيك عن التفكير فيها .

فى المـرة الثانيـة نجـد أنّ مـصرهى جنـة الـرب (13 : 10) وبعـد ذلـك بإصـحاحين

فإنّ الرب يهب مصر(وغيرها) إلى بنى إسرائيل . فإذا انتقلنا من سِفر التكوين إلى سِفر الخروج ، نجد تصاعدًا دراماتيكيًا فيقول الرب لموسى اذهب إلى مصر فإنى معك ((فأمد يدى وأضرب مصربكل عجائبى)) وأثناء خروج بنى إسرائيل من مصر ، فإنّ إلههم العبرى يُحرّضهم على سرقة المصريين (3 : من 6- 22) هذا غير تحويل كل مظاهر الطبيعة والجماد فى مصر إلى دم (7 : من 1- 21) بعد ذلك ينزل الرب بنفسه ليُدمر مصر(11 ،12) .

لايتوقف الكتاب الذين استبدلوا الدماغ العبرى بالدماغ المصرى (فى اللغة العربية تُلحق الباء بالمتروك ، وإنْ كان المصريون يُفضلون العكس رغم وعيهم بهذه القاعدة اللغوية) لايتوقف الكتاب (المصريون) الذين فضلوا الدماغ العبرى على الدماغ المصرى ، أمام الآيات التى تتحدث عن ندم العبريين بعد خروجهم من مصر، حيث كانوا يأكلون اللحم والسمك إلخ بالمجان ، ورغبتهم فى العودة إلى مصر ليموتوا فيها (خروج 14 ، 16 وسِفرالعدد من 11- 14) .

بعد هذه الأمثلة (وهى قليلة جدًا) عن اسم مصر فى العهد القديم ، ألا يكون السؤال مشروعًا عن هدف الكتاب (المصريين) من الإشارة إلى أنّ التراث العبرى اهتم بذكر اسم مصر، وهل الهدف هو ترسيخ التشوهات التى لحقت بجدودنا المصريين القدماء ؟ وإذا كانت هذه التشوهات تخدم المشروع العبرى المعادى لمصر، فلماذا تلجأ الثقافة السائدة إلى تثبيتها فى عقول الأجيال الجديدة من أبنائنا المصريين؟ وهل هؤلاء الكتاب قرأوا العهد القديم ؟ أم اكتفوا برصد عدد المرات التى ورد فيها اسم مصر؟ وإذا كانوا قد قرؤوه ، فلماذا لم يتوقفوا أمام التعارض الواضح بين لغة التراث العبرى ، ولغة العلم ؟ خاصة علم المصريات الذى ينفى كل مزاعم بنى إسرائيل عن مصر فى العصور القديمة . وإذا كان التراث العبرى معاديًا لمصر، فالكارثة الحقيقية هى تبنى غالبية المتعلمين المصريين لهذا التراث . وأنا أقول (المتعلمين) ولا أقول (المثقفين) لأنّ التعريف العلمى للمثقف أنه ((طليعة روحية

لشعبه)) طليعة تحرص على الدفاع عن الخصائص القومية لشعبها ، وتحرص عـلى الـرد عـلى أى هجوم أو أى عداء لتاريخ شعبها ، خاصة إذا كـان هـذا الهجـوم وهـذا العـداء ، ذات توجهـات أيديولوجية وبعيدة كل البعد عن لغة العلم .



الفصل الثالث

أولاد حارتنا بين الإبداع الأدبي والنص الديني

للأديب الكبير نجيب محفوظ كتاب بعنوان (أولاد حارتنا) أثار سخط الأصوليين المسلمين والمسيحيين واليهود ، إذْ أنّ الرموز عنده يسهل على أى تلميذ التوصل إلى مقابلها التراثى ، مثل رمز الإله (= الجبلاوى) ورمز الأنبياء عليهم السلام (جبل = موسى) ، (رفاعة = عيسى) ، (قاسم = محمد) ووقعتْ المؤسسات الدينية فى حيص بيص ، فأولاد حارتنا (الكتاب) لو نُشرعلى نطاق واسع ، فهو تكريس طيب للفكرالدينى عن قصة (خلق العالم) ولكنها تنتهى بموت الجبلاوى (الإله) فإلى أى جانب تنحاز المؤسسات الدينية ؟ انحازت إلى جانب المصادرة ، لأنه لايُعقل أنْ توافق على موت الجبلاوى . بالإضافة إلى أنّ الفكر الدينى عن قصة خلق العالم لن يخسر كثيرًا من قرار المصادرة . فإذا كانت الأصول موجودة (التوراة والأناجيل والقرآن العظيم) فما قيمة النسخة المقلدة ؟

وإذا كان الكتاب وقفوا مع حرية التعبير وطالبوا بإلغاء قرار المصادرة (وهذا رأيى أيضًا) فإنّ أحدًا منهم لم يهتم بما فى الكتاب من هجوم على جدودنا المصريين القدماء ، فى تكرار لما

جاء فى الكتب (المقدسة) على النحو الذى سأذكره . وأنا أعتمد على طبعة دار الآداب – بيروت- الطبعة الأولى – يناير1967 . ومع ملاحظة أننى سأقصر كلامى على فصل (جبل) لعلاقته بمصر . أما من يود قراءة دراستى الكاملة فإننى أحيله إلى مجلة فصول – ربيع 1992 أو إلى كتابى (أنساق القيم فى الإبداع المصرى) هيئة قصور الثقافة- سلسلة كتابات نقدية- عدد رقم 103مايو2000 .

***

شخصية جبل فى أولاد حارتنا هى صدى لشخصية النبى موسى فى التراث العبرى . فالطفلان (موسى وجبل) لقيطان . ولكى يكون التطابق تامًا ، فإنهما لقيطا ماء (فى التوراة على حافة النهر) وفى أولاد حارتنا ((فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار)) (قارن سفرالخروج – الإصحاح الثانى وأولاد حارتنا ص 131) وفى التوراة فإنّ ابنة ملك مصر(الفرعون حسب الاستخدام العبرى) هى التى رأتْ الطفل وسمعتْ بكاءه ورقتْ له وقالت ((هذا من أولاد العبرانيين)) (خروج 2 : 6 ، 7) وفى أولاد حارتنا فإنّ هدى هانم (زوجة الأفندى ناظرالوقف) هى التى رأت الطفل وسمعت بكاءه فرق قلبها إلخ . وكما تربى موسى فى بيت الملك المصرى (الفرعون) كذلك ينشأ جبل . وكما قتل موسى رجلا مصريًا كذلك يفعل جبل . وإذا كان أحد العبريين يتشكك فى موسى (فى اليوم الثانى للقتل مباشرة) ويقول له ((أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى)) (خروج 2 : من 11- 15) فإنّ دعبس (وهو من آل حمدان مثل جبل) يقول لجبل ((أتريد أنْ تقتلنى كما قتلت قدره ؟)) (أولاد حارتنا من 137 – 140 ، 151) .

وإذْ يُصور العهد القديم لقاء موسى بربه إله العبريين ، وأنهما تكلما سويًا عن ذل شعب بنى إسرائيل فى مصر ونزول الإله ليُنقذهم من أيدى المصريين ، فإنّ أولاد حارتنا – لأنها ليست رواية ، بل صدى لما جاء فى العهد القديم- لاتُفوّت الفرصة وتصوّرلقاء جبل بجده الجبلاوى . فى هذا اللقاء فإنّ الجبلاوى (رمزالإله

العبرى) يُحرّض جبل على الثأر من ناظرالوقف (أى الفرعـون) ومـن الفتـوات التـابعين لـه (أى باقى المصريين) الذين يذلون ويـضطهدون أسرة آل حمـدان ، وهـى الأسرة التـى تُمثـل الامتـداد لسلالة الجبلاوى ، أى العبريين . يقول الجبلاوى لحفيده جبل ((أنت يا جبل ممن يركن إلـيهم ، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضبًا لأسرتك المظلومة ، وما أسرتك إلاّ أسرتى ، وهم لهم فى وقفـى حق يجب أنْ يأخذوه ، ولهم كرامة يجب أنْ تصان ، وحيـاة يجـب أنْ تكـون جميلـة . وعنـدما يسأله جبل ((كيف السبيل إلى ذلك ؟)) فإنّ الجبلاوى يرد عليه قائلا ((بالقوة تهزمـون البغـى . وتأخذون الحق . وتحبون الحياة الطيبة)) (قارن سفرالخروج – الاصحاحين 3 ، 4 وأولاد حارتنـا من ص 176 – 178) .

وكـما يـذهب مـوسى إلى (الفرعـون) مـن أجـل بنـى إسرائيـل ، كـذلك يـذهب جبـل إلى ناظرالوقف من أجل آل حمـدان . تقـول زوجـة النـاظر لجبـل (وهـى التـى التقطتـه وربّتـه) : ((علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان إكرامًا لك)) فيرد جبـل عليهـا ((الحـق يـا سـيدتى أنهـم يُعانون ذلا ألعن من الموت ، وقد قُتـل مـنهم مـن قُتـل)) فيقـول الأفنـدى نـاظرالوقف ((إنهـم مجرمون . وقد نالوا ما يستحقون)) فيرد جبل عليه ((المجرمون حقًـا هـم الفتـوات)) (ص 184) أى أنّ المجرمين هم المصريون . وقارن أيضًا بـين وصـف العهـد القـديم للمـصريين والفرعـون فى سفرالخروج فى أى إصحاح تشاء ، ووصف أولاد حارتنـا للفتـوات ونـاظرالوقف فى فـصل (جبـل) لتكتشف بسهولة ويسرالتطابق التام بين الرمز والمرموز إليه ، وأنّ الكتاب الثانى ما هوإلاّ صـدى للكتاب الأول) حتى سيطرة موسى على الثعابين نجد شبيهًا لها عند جبـل (قـارن سـفرالخروج – إصحاح 4 وأولاد حارتنا من ص 190- 191) .

فى العهد القديم نقرأ كيف انتصرموسى على المـصريين ((فقـال الـرب لمـوسى مـد يدك على البحرليرجع الماء على المصريين . على مركبـاتهم وفرسـانهم . فمـدّ مـوسى يـده على البحرعنـد إقبـال الـصبح إلى حالـه الدائمـة والمـصريون هـاربون إلى لقائـه . فـدفع

الرب المصريين فى وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر. لم يبق منهم ولا واحد . وأما بنوإسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم . فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظرإسرائيل المصرين أمواتًا على شاطىء البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين)) (خروج- إصحاح 14 الآيات من 26- 31) فكيف كان انتصارجبل وآل حمدان على ناظر الوقف والفتوات التابعين له ؟ إنّ (زقلط) الفتوة ممثل سلطة ناظرالوقف ، يهجم هو ورجاله الفتوات على بوابة آل حمدان (آل جبل سلالة الجبلاوى) وعندما يصلون إلى الدهليز الطويل الممتد وراء باب الحوش ، يحدث التطابق مع النص التوراتى . يقول الكاتب ((وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادتْ أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليها إلى قاع حفرة عميقة)) (ص 196) فهل هناك شبهة تجنٍ عندما أقول إننا لسنا إزاء عمل أدبى ، بل مجرد صدى لما سطره العبريون عن تاريخهم كما أرادوه ؟ لنقرأ كيف يُصوّرالكاتب نهاية زقلط (رمز سلطة البطش عند المصريين) كتب ((وتشبّثتْ يدا زقلط بجدارالحفرة يريد أنْ يثب (بالضبط كحال الفرعون وهو يحاول رفع رأسه قبل أنْ يغرق) وقد تجلى الحقد فى عينيه وراح يُغالب الإعياء والخور ويزفر أنات كالخوار)) (لاحظ التشبيه بالحيوان) وبعد ذلك ((انهالتْ عليه النبابيت حتى تهاوى إلى الوراء وتراخت يداه عن الجدار فسقط فى الماء وفى كل راحة من راحتيه قبضة من طين)) (ص 196) بعد هذه الهزيمة لممثلى البطش والظلم (أى المصريين) فإنّ شاعر آل حمدان يصيح ((هذه عاقبة الظالمين)) (لاحظ اللغة الدينية) ثم يقول المتجمهرون من آل حمدان ((إنّ جبل قد أهلك الفتوات كما أهلك الثعابين)) (196 ، 197) والكاتب يتشكك فى ذكاء القارئ ، ويخشى أنْ يكون التقابل التوراتى قد أفلت منه ، فيعاود تذكيره على لسان رفاعة فى الفصل المعنون باسمه ، قال رفاعة ((ليت الدهليز بقى لنا . إنه

دهليز مبارك . إذْ فيه تقررالنصرلجبل على أعدائه)) (ص 267) .

بعد هذا الانتصار الساحق لجبل كتب المؤلف ((هاجم الجميع (من آل حمدان) بيوت الفتوات فاعتدتْ الأيدى والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم يتحسسون أقفيتهم وخدودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع)) وهذا غير نهب البيوت بكل ما فيها (ص 197) فإذا كنا إزاء عمل أدبى ، فإنّ العقل الحر يتساءل ، كيف يتحول الفتوات الوحوش الجبابرة ، إلى جبناء ضعفاء يتلقون الصفعات ويتحسسون أقفيتهم إلخ دون أدنى مراعاة لعامل التحول الدرامى للشخصيات ؟ كما لو كنا نشاهد فيلمًا سينمائًا هابطًا لايراعى أبسط قواعد الدراما .

ويستبدل كتاب (أولاد حارتنا) بخروج العبريين من مصركما جاء فى التوراة ، انتصارآل حمدان بزعامة جبل وهزيمة ناظرالوقف والفتوات (المصريين) بل إنّ ناظرالوقف ((يقف أصفر الوجه ذليلا ثم يوافق على شروط جبل ويُعلن موافقته على استرداد حقوق آل حمدان)) وأكثرمن ذلك يُعلن أنّ جبل هوالذى سيُديرالوقف إنْ أراد (ص 200) فبدلا من خروج العبريين من مصركما ينص التراث العبرى ، تتم السيطرة والسيادة لآل حمدان على الحارة (وهذا أول خروج عن النص العبرى فى أولاد حارتنا) وعندما يقول دعبس (من آل حمدان) : ((ولمَ لا يكون الوقف كله لنا ؟)) فإنّ جبل يرد ((أمرنى الواقف (أى الجبلاوى) باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين)) وفى هذا خروج على النص التوراتى الذى يُعيد الكاتب تدوينه ، فالتوراة تُحرّض العبريين صراحة على نهب المصريين إذْ جاء النص صريحًا ((فيكون حينما تمضون أنكم لاتمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين)) (خروج 3 من 18- 22) فهذه دعوة صريحة للعبريين، عندما تخرجون من مصرلاتمضون فارغين . ويكون ذلك بالطبع من خلال ((سلب المصريين)) وهذا الخروج على النص التوراتى يُحسب لكتاب (أولاد

حارتنا) ولكن بعد هذا الخروج على النص التوراتى تعود (أولاد حارتنا) فتستدرك الموقف ، فبعد أنْ أعلن جبل أنّ الواقف أمره باسترداد حقوق آل حمدان (لاحظ الاسم الذى يُذكرك بآل عمران) لاباغتصاب حقوق الآخرين ، إذا به يرد على (دعبس) : ((ومن أدراك أنّ الآخرين سيأخذون حقوقهم)) قائلا ((لا شأن لى بذلك وإنك لاتكره الظلم إلاّ إنْ وقع عليك)) (ص200) إنّ هذا التحول من النقيض إلى النقيض تم فى الصفحة ذاتها . إنّ جملة ((أمرنى الواقف باسترداد حقكم لاباغتصاب حقوق الآخرين)) تبدو- رغم الإسقاط الظاهر- كصياغة أدبية ، ولكن لأنّ الكاتب مهتمٌ بإعادة تدوين الفكرالعبرى ، يشعر أنه ضبط نفسه متلبسًا بالخروج على النص ، لذلك يُسارع- فى الصفحة ذاتها- إلى ضبط الشخصية على البوصلة الموضوعة لها سلفًا ، لذلك تأتى جملة ((لاشأن لى بحقوق الآخرين ، وإنك لاتكره الظلم إلاّ إنْ وقع عليك)) مناقضة لما قبلها. بل هى شديدة القسوة على الإنسان ، لأنها تُشبهه بأدنى وأحط الكائنات الحية. فأنا لا أعرف – ولكننى مستعد لتصور أنّ الدودة قد لا تشعر بألم دودة أخرى ملاصقة لها ، ولكننى أعرف أنّ الإنسان- الكائن الوحيد المتطور من مرحلة إلى مرحلة أرقى- يتألم ويشعر بالظلم الواقع على الآخرين ، حتى وإنْ لم يمسه هذا الظلم (برنارد شو، برتراند رسل ، جان بول سارتر إلى آخر أسماء الفلاسفة والمبدعين والمفكرين العظام الذين قادوا الحملات ضد الاستعماريْن الإنجليزى والأمريكى ، لصالح تحريرالشعوب من هذيْن الاستعماريْن مثل الشعب المصرى والشعب الفيتنامى إلخ) والمسألة فى ظنى- ومن واقع صفحات أولاد حارتنا- أنّ الكاتب أراد أنْ يؤكد أنّ جبل يُدافع عن آل حمدان فقط ، كما كان موسى يُدافع عن العبريين فقط .

وعندما يقول دعبس لجبل ((إنك لاتبغى الفتونة . سأكون أنا الفتوة)) فإنّ جبل يصيح ((لافتونة فى آل حمدان.. ولكنْ ينبغى أنْ يكونوا فتوات جميعًا على من يطمع فيهم)) (ص202) وهذا هو الخروج الثالث على النص التوراتى فى فصل

(جبـل) إنّ البـشرية كانـت تتمنـى أنْ يتحقـق الجـزء الأول مـن كـلام جبـل ((لافتونـة فى آل حمدان)) ولكن الحاصل غيرذلك تمامًا ، فالجزء السامى من العبريين الـذين اختلطـوا وعاشـوا فى أوروبا ، تجمّعوا وقرّروا الاستيلاء على أى مكان ولو بنزع السكان الأصليين عـن طريـق الإبـادة . فكروا فى الاستيلاء على سيناء ، ثم فكروا فى أوغندا. وأخيرًا نجحوا فى الاستيلاء على فلسطين بعـد المجازر والمذابح المعروفـة . وحتـى لايظـن القـارئ أنّ هنـاك شـبهة تجـنٍ أو شـبهة تعـسف فى التفسير ، فإننى أرجوه أنْ يُراجع معى الأمثلة السابقة والتالية : يقول جبل لأهله ((إنكـم أحـب أهل الحارة إلى جدكم (الجبلاوى) فأنتم سادة الحارة دون منازع)) (ص 202) إنّ هـذه الجملـة توقظ – وفق قانون التداعى الحر- مقولات العبريـين عـن ((شـعب اللـه المختـار)) وفى العهـد القديم نقرأ ((طوبى للأمـة التـى الـرب إلهها الـشعب الـذى اختـاره ميراثًـا لنفـسه)) (المـزامير- مزمور33) وكذلك نقرأ ((فالآن إنْ سمعتم لصوتى وحفظتم عهـدى تكونـون لى خاصـة مـن بـين جميع الشعوب)) (خروج 19 / 5) وفى القرآن العظيم نقرأ (يَـا بَنِـي إِسْرَائِيـلَ اذْكُـرُواْ نِعْمَتِـيَ الَّتِـي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)[البقرة: 47، 122] .

وبدأب شديد يُـصرالكاتب عـلى المبـاشرة دون أدنى مواربـة ، فيجعـل شخـصيتين مـن آل حمدان يتشاجران ، فيفقأ أحدهما عين الآخر. كانت المشاجرة بسبب النقود . قال حمدان لجبل ((سيرد دعبس النقود إلى كعبلها)) فصاح جبل بأعلى صوته ((فليرد إليه بصره أولا)) قال رضـوان شاعرآل حمدان ((ليت فى الإمكان رد البصر)) فقـال جبـل وقـد أظلـم وجهـه كالـسماء الراعـدة البارقة ((ولكن فى الإمكان أنْ تؤخذ عين بعـين)) ويُـصرجبل عـلى رأيـه ويقـوم بنفـسه ويـضرب دعبس (المعتدى) ويُطوّقه من الخلف ويأمر كعبلها (المعتدى عليه) قـائلا ((قـم فخـذ حقـك)) وعندما يقوم كعبلها مترددًا فإنّ جبل يصيح فيه وينظر إليه نظرة قاسية ويقول ((تقدم قبـل أنْ أدفنــك حيًــا)) فيقــوم كعبلهــا فعــلا ويفقــأ عــين دعــبس عــلى مــرأى مــن الجميــع

(ص207 ، 208) إنّ أية شخصية من الشخصيات الشريرة فى الأدب العالمى لم تصل فى دناءتها إلى هذه الدرجة من القسوة ، بل إنّ القارىء يتعاطف معها ويحبها (راجع شخصيات «تورتيلا فلات» لـ «جون شتاينبك» وشخصيات ديوستوفيسكى ، وشخصيات ديكنز وبصفة خاصة فى روايته البديعة «الصغيرة دوريت» وهذه نماذج على سبيل المثال بالطبع) والمشكلة أنّ كاتب (أولاد حارتنا) لايُبدع أدبًا ، وإنما يُعيد كتابة الفكرالعبرى ، وفى المثال الأخير يريد أنْ يؤكد على جزء من شريعة العبريين : ففى التوراة نقرأ ((وإنْ حصلت أذية تعطى نفسًا بنفس . وعينًا بعين . وسنًا بسن . ويدًا بيد إلخ)) (خروج 21 من 23- 25 وفى القرآن العظيم انظر سورة المائدة / 45) فهل هناك شبهة تجنٍ فى وضوح التطابق التام بين موسى وجبل ؟ وأنّ آل جبل وآل حمدان سلالة الجبلاوى هم اليهود العبريون ؟ وبالتالى فإنّ ناظرالوقف والفتوات هم المصريون المجرمون المعتدون ؟! إنّ الأمثلة كثيرة أربأ بنفسى من تكرارها . وإنما أختتم بنموذج أخير من فصل جبل حيث يدور حوار حول شخصية الجبلاوى : هل هو جد الجميع أم جد آل حمدان فقط ؟ ترديدًا لما جاء فى العهد القديم ((تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب)) (قارن أولاد حارتنا ص 203 ، 204 مع سفر الخروج 19 / 5) .

***

إنّ كتاب أولاد حارتنا ألقى على كاهل تاريخ النقد الأدبى مجموعة من التساؤلات :

1- ما الذى دفع كاتبًا مثل نجيب محفوظ ، خاض أجمل متعة يمر بها الفنان ، أى لحظات الخلق والإبداع ، ليكتب عملا لا علاقة له بالفن والأدب ؟

2- لماذا يتطوع كاتب مصرى ، سبق له أنْ ترجم كتاب (مصر القديمة) تأليف جيمس بيكر عام 32 وكتب رواية (عبث الأقدار) عام 39 ورواية (رادوبيس) عام 43 ورواية (كفاح طيبة) عام 44 أى أنه اقترب من تاريخ الحضارة المصرية ،

وبالتالى فإننى أفترض افتراضًا مشروعًا ، أنـه كـان يعـرف – أو يجـب عليـه أنْ يعـرف – أنّ لغـة العلم (وخاصة علم اللغويات وعلـم المـصريات) تختلـف عـن اللغـة الدينيـة ، وبالتـالى هنـاك اختلافات شديدة التباين بين ثقافة المصريين الزراعية وثقافة العبريين الرعوية ، وعـرف - بالتأكيـد- وهو ينقل عن العهد القديم ، التوجه الأيديولوجى المعادى للمصريين ، ليتأكد من حجم العـداء الموجه ضد جدودنا ، وأنّ إله العبريين حوّل أرض مصر إلى خـراب ، والبيـوت والـزرع والنهـر إلى دم . فلماذا يتطوع كاتب (مصرى) ليُعيد تدوين كتـاب (العهـد القـديم) ؟ فى حـين أنّ المواطنـة الأيرلندية (كاثرين ماك أنثير) أقامت دعوى قضائية أمام محكمة دبلن العليا طالبتْ فيها بحظر تداول العهد القديم لأنه أساء إلى مصر والمصريين ومجمل الحضارة المصرية ، التـى كانـت مهـد الحضارات الإنسانية !! والعداء العبرى ضد مصرلا يفترضه أحد ، فرغم التناقض الواضح فى الآيات العبرية التالية ، فإنّ العقل الحر يلتقط المغزى بسهولة ، فقد نـصّتْ صراحـة عـلى ((قـال بنـو إسرائيل لموسى ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هذا هوالكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كفّ عنا فنخدم المصريين . لأنه خيرلنا أنْ نخـدم المـصريين مـن أنْ نمـوت فى البريـة. فقال موسى للشعب لاتخافوا . قفوا وانظروا خلاص الرب الـذى يـصنعه لكـم اليـوم . فإنـه كـما رأيتم المصريين لاتعودون ترونهم أيضًا إلى الأبد . الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمتون)) (خروج 14 : 11- 14) وفى القرآن العظيم خطاب إلى بنى إسرائيل ينص صراحة على ((وإذْ فرقنا بكم البحـر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)) (البقرة / 50) .

3- إنّ الأدب يربأ بنفسه عن إطلاق الأحكام القيميـة عـلى الشخـصيات ، ولكـن بمراعــاة أنّ (أولاد حارتنــا) صــدى ل (العهــد القــديم) ولمجمــل الــتراث العــبرى المعادى لمصر، فإنّ ناظرالوقف (أى الملك المصرى / الفرعون) رجل ((فاقد الـشرف)) (ص 199) أمــا إذا انتقلنــا إلى التــاريخ فــإنّ علــماء علــم المــصريات أكــدوا مــن

واقع البرديات أنّ ملوك مصرالعظماء (الفراعنة وفق التسمية العبرية) كانوا يموتون فى ساحة القتال دفاعًا عن شرف الوطن ، ولم يُحاربوا من داخل القصور كما يفعل الزعماء المعاصرون لنا ، وإنما كانوا أمام الصفوف الأولى مثلهم مثل أى جندى . ولمن يريد مثالا حيًا فعليه أنْ يذهب إلى المتحف المصرى- قسم المومياوات- ليشاهد جثة الملك العظيم سقنن – رع ليعرف عدد الطعنات التى تلقاها على وجهه وصدره .

4- إنّ علماء علم المصريات أكدوا على أنّ العبريين عملوا بالتجسس ضد مصرلصالح الغزاة – مرة مع الهكسوس ومرة مع الحيثيين- كما أكدوا- من خلال البرديات- على أنّ ملوك مصر سمحوا لبنى إسرائيل الرعاة الرحل الهاربين من القحط والمجاعة- باقتطاع الأراضى الزراعية على الحدود ، ليزرعوا ويعيشوا حياة كريمة ، وهذه سمة من سمات الشعوب المتحضرة ، شعوب الثقافة الزراعية التى تعرف مجتمع (الوفرة) ولكن العبريين أصحاب الثقافة الرعوية ومجتمع (القحط والندرة) قابلوا إحسان المصريين بأبلغ إساءة : التزويرالذى يؤكد الحقد . وفى هذا السياق ذكرد. رشاد عبدالله الشامى أنّ فرعون (= ملك) مصر طلب من بنى إسرائيل العمل ((كسائرالمصريين فى الزراعة وصناعة البناء اللتين كانتا الصناعتين الرئيسيتين فى مصر، وأضفوا (أى بنى إسرائيل) على أمانيهم ورغباتهم قدسية إلهية تستر ما يخفونه من تآمر على أبناء الشعب المصرى ، وجعلوا (يهوه) إلههم القبلى ينكل بالمصريين فى صورة عمليات انتقامية بشعة ، ردًا على جميل الإقامة لخمسة قرون نعموا خلالها بخيرات مصر، وهى الخيرات التى ندموا على تركها عندما عانوا الأهوال والجوع والتشرد فى التيه)) (انظر كتابه : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية- سلسلة عالم المعرفة الكويتية- عدد 102- يونيو1986- ص 12) .

5- إنّ فتوات أولاد حارتنا (= المصريين فى العهد القديم) ظلمة ، عتاة ، مجرمون ، وحوش ، غلاظ القلوب ، فهل هذه الأوصاف تنطبق على جدودنا ؟ لنستمع إلى رأى العالم سيجموند فرويد الذى وصف المصريين القدماء ب (الوداعة) ووصف

السامين ب (الهمج) (أنظركتابه موسى والتوحيد- ترجمة عبدالمنعم الحفنى- ص109) هذا هو عالم (موسوى الديانة) ولكنه احترم وانحاز إلى لغة العلم قبل ديانته . وقبله بعدة قرون ذكر المؤرخ الإغريقى هيرودوت (484- 425 ق .م) الذى زار مصر فقال عن جدودنا المصريين فى كتابه الثانى- فقرة رقم 37 بأنهم ((يزيدون كثيراً عن سائر الناس فى التقوى)) (مصدر سابق – ص 124) .

6- إنّ التاريخ المصرى الممتد شهد الكثير من الأحداث والغزوات ، ينتظر المبدعين الذين ينطلقون من أرضية مصرية ، تتوخى لغة العلم والأمانة والموضوعية (وهى لغة لاتتحقق إلاّ إذا كان عقل المبدع خاليًا تمامًا من جرثومة الأيديولوجيا ، سواء سياسية أو دينية أو عاطفية) فيكون لدينا العشرات من الأعمال الإبداعية على مستوى (جسرعلى نهردرينا) أو (النهر الهادئ) أو (المسيح يصلب من جديد) أو(مائة عام من العزلة) إلى آخر هذه الأعمال الخالدة . إنّ المبدع المصرى منعزلٌ عن تاريخه ، ومازالت رائعة سعد مكاوى (السائرون نيامًا) شامخة وحدها تشهد على هذا الانعزال .

إنّ كتاب (أولاد حارتنا) يُثير الأسى على المستويين : الإبداعى والتاريخى . وإذْ أعترف بأننى أحترم الكاتب الكبير نجيب محفوظ – الإنسان والمبدع- كما أننى لا أسمح لنفسى بالاقتراب من منطقة (ضمير الآخر) وبالتالى أرفض استخدام أسلوب الاتهامات ، كذلك فإننى لا أقيم وزنًا لما فى (النيات) بمعنى إذا قال أحد أنّ الأستاذ نجيب محفوظ لم يقصد شيئًا مما ذكرته ، فإنّ الرد بسيط : إنما العبرة بما هو مدوّن على الورق ووصل إلى القارئ وليست العبرة بالنيات . وصدق أرسطو فى قوله الحكيم ((أفلاطون حبيب إلى قلبى .. ولكن الحقيقة أحبُ إلىّ من أفلاطون)).

أنّ (أولاد حارتنا) كتاب مشكلة فى تاريخ المصادرة ، رفضه الكهنوت الدينى وتجاوز عنه نقاد الأدب ، من منظوريْن مختلفيْن ، فهل نأمل فى مناخ ليبرالى يسمح بالإفراج عن الكتاب ، ليكون القارئ – وحده – هو الحكم على الكتاب وهو القيم على نفسه ؟

الفصل الرابع

سرقة الآثار المصرية مع غياب الحس القومي

تمتلك مصر ثلثىْ الآثار على مستوى العالم . وهذه الآثارالتى تركها جدودنا المصريون القدماء ، ملكٌ لشعبنا المصرى ، وبالتالى فهى ليست (ميراثًا) لفئة حاكمة أو طبقة مسيطرة على الحكم ، وبناءً عليه لا يجوز بيعها أو إهداؤها أو التصرف فيها ، وإنما يجب الحفاظ عليها ، لأنها ليست ملكًا للأجيال الحالية ، وإنما هى ملكٌ لكل الأجيال القادمة من المصريين . ورغم هذه الحقيقة الساطعة واللاهبة كشمس بؤونة ، فإنه لايكاد يمر أسبوع إلاّ ونقرأ فى الصحف المصرية (أحيانًا) وفى الصحف الأوروبية (غالبًا) عن سرقة بعض الآثار المصرية. و(غالبًا أيضًا) أنْ يكون اكتشاف السرقة بحكم قانون المصادفة ، و (غالبًا للمرة الثالثة) أنْ تتم عملية السرقة والتهريب بمعرفة بعض كبار رجال الدولة (المصرية) ولعلّ أشهرالأمثلة على ذلك ما ورد فى شهادة (مارك بيرى) المتورط فى قضية تهريب الآثارالكبرى من مصر إلى لندن ، إذْ جاء فى التحقيق معه ((أنّ ضابطًا فى البوليس المصرى برتبة لواء ، كان يُتابع عملية تهريبه للآثارالمصرية من مطار القاهرة)) (نقلا عن صحيفة الأهرام 97/2/7) والجدير بالملاحظة أنّ الكشف

عن هذه العملية تمت بمحض الصدفة ، إذْ أنّ مواطنًا إنجليزيًّا شاهد فى أحد المعارض بعض الآثار المصرية ، وبخبرته عرف أنها (أصلية) وتذكرأنه رآها فى المتحف المصرى ، فبادر بإبلاغ الشرطة الإنجليزية التى تولت التحقيق .

وغالبًا (للمرة الرابعة) ما نقرأ – فى تبرير أنماط القيم المنحطة- أنّ الفساد موجود فى كل دول العالم . وهذه الحجة هى تشجيع على استمرار الفساد والتسليم بعدم جدوى مقاومته ، لأنها تنطلق من قاعدة التعميم ، وهى قاعدة ملفوظة فى علميْ المنطق والفلسفة ، ناهيك عن علم الاجتماع ، فهذه العلوم الإنسانية تؤمن بالنسبى وترفض المطلق . فإذا كان الفساد موجودًا فى كل دول العالم (وهى حقيقة لايمكن إنكارها) فإنّ أحجامه وأنواعه تختلف من بلد إلى آخر، وهذا الاختلاف يحكمه عاملان أساسيان :

الأول : وجود آلية الديمقراطية أو غيابها . فالدول الديمقراطية لاتعترف بقداسة الشخصيات العامة ، حتى وإنْ كانوا حكامًا (وليستْ لديهم آفة بالروح بالدم نفديك يا فلان) لذلك تملك أجهزة الإعلام جرأة تناول جرائم الكبار بمن فيهم رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء ، وليس الوزراء فقط . كما أنّ النيابة العامة والقضاء فى هذه الدول الديمقراطية يتمتعان بالاستقلال التام عن السلطة التنفيذية ، الأمر الذى يسمح بإقامة الدعوى القضائية ضد أى مسؤول على رأس السلطة التنفيذية ، والأمثلة عديدة فى كل دول العالم المتحضر- من أميركا إلى أوروبا إلى اليابان إلى الهند والصين إلخ حتى إسرائيل التى يُحسبْ عمرها بعمر الأطفال الرضع ، قياسًا بعمر أغلب دول العالم ، نجد أنّ نظامها السياسى لايُفرق – فيما يتعلق بالمال العام – بين الغفير والوزير، وأمثلة استدعاء رؤساء وزراء إسرائيل أمام محققى الشرطة كثيرة وقرأها كل العالم نقلا عن الصحف الإسرائيلية ذاتها بل والتليفزيون الإسرائيلى ، ومن أمثلة ذلك ما فجّره التليفزيون الإسرائيلى عن فضيحة تعيين المدعى العام فى إطار صفقة مع حزب شاس الدينى ، وبالفعل تم

استجواب رئيس الوزراء (وقتها) نيتانياهو بمعرفة فريق تحقيق من الشرطة الإسرائيلية (أهرام 18 ، 19 فبراير97) أما فى الدول الشمولية ، فالوضع عكس ذلك تمامًا ، حيث يسود مبدأ القداسة لشخص الحكام ، وبالتالى فإنّ آلية الديمقراطية غائبة أو شبه غائبة ، لذلك فإنّ أجهزة الإعلام – وهى مملوكة للشعب وتُمول من خزينة الدولة ، ولكنها تحت سيطرة الأنظمة الحاكمة ، لاتمس – إنْ مسّتْ – إلاّ الصغار أو صغار الكبار. وهو الأمر المشاهد فى كل الأنظمة الدكتاتورية ، وبصفة خاصة الأنظمة التى تجمع بين سلطة العسكروت والكهنوت . وفى ضوء هذا التوضيح فإنّ الفساد يقل فى الدول الديمقراطية ويزداد بصورة بشعة وملحوظة فى الأنظمة الشمولية .

العامل الثانى : هو الحس القومى ، وهو مسؤولية الشعوب قبل الحكام ، فالشعب الذى يُدرك القيمة الحضارية لتاريخه وتراثه يضع عرفًا لحدود الفساد ، خاصة اذا مسّ هويته القومية. فلم يحدث أنّ يونانيًا كفّر سقراط أو أرسطو أو ساهم فى تهريب الآثار اليونانية ، ولكن مع غياب الحس القومى فى مصر- بعد كارثة أبيب / يوليو 1952 ، والادعاء الكاذب أنّ مصرعربية ، نجد مسئولين (مصريين) على درجة كبيرة من الثراء المادى ، ومع ذلك يتعاملون مع آثار جدودهم كما يتعاملون مع مواسير الصرف الصحى ، فلواء الشرطة (المصرى) الذى شارك فى تهريب الآثار المصرية ، تربى تحت سنابك ثقافة سائدة تُروّج لمقولة أنّ الحضارة المصرية (وثنية) وبالتالى يجب تدمير آثارها . فإذا كان تدميرها واجبًا دينيًا ، فلا بأس من سرقتها ، بل إنّ سرقتها حلال وفقًا لأصول الفقه الإسلامى ، لأنها من ((بدع الكفار)) .

وتحت سنابك هذه الثقافة السائدة ، اقترح الصحفى أ. أحمد بهجت تحطيم الأحجار التى تسقط من الهرم الأكبر إلى قطع صغيرة ، توضع فى سلسلة مفاتيح وبيع الواحدة بعشرة دولارات للسياح (أهرام 91/6/8) فلو أنّ هذا الصحفى يُحرّكه حس قومى ، لطالب بإعادة الأحجار المتساقطة ، وليس اقتراح الهدم من أجل

حفنة دولارات . ومع غياب الحس القومى ، فإنّ هـذه الـدعوة المـدمرة لم يتـصد لهـا إلاّ بعـض المصريين فى بريد القراء ، بينما تجاهلها أغلب الكتاب ، باستثناء عالم المصريات الراحـل الجليـل بيومى قنديل الذى كتب ((إنّ الأستاذ الفاضل قارن بين هذه الفكرة التى طرحهـا تحـت عنـوان أفكار وبيع إسرائيل لهواء القدس على هيئة علب صغيرة مغلقة وخالية لكن مباركة ، فإسرائيـل لم تُفكر فى لحظة فى بيع قطعة واحدة من آثارها أو تراثها أو تاريخها سواء سقطت تحت وطـأة الزمن أو الجور أو الإهمال ، بل تبيع والحالة هـذه الهـواء ، أى ثـروة متجـددة باسـتمرار. لكـن الأستاذ الفاضل يدعو إلى بيع حجرأو اثنين من الأحجار المتساقطة ، أى بيـع ثـروة غـير متجـددة بل ومحدودة للغاية حتى ولو كان العزم مبيتًا على مساعدة الزمن قليلا كى يتدخل بإسقاط آخر فآخر كلما سال اللعاب للأخضر الساحق ، وهذا أمر مرجح فى ضوء عبادة إله المال وشعار((كـل شىء للبيع)) والسؤال الوحيد المشروع هو بكـــم ؟ وفى هـذه الحالـة نـتمكن مـن هـدم الهـرم الأكبر الذى يُعد الأعجوبة الأولى من أعاجيب الدنيا السبع وأعظم بناء معمارى بنته يد الإنـسان على سطح المعمورة . ويؤمن أمريكيون غير مصريين بأنه مركز الكرة الأرضية . ويقف رمـزًا عـلى وحدة المصريين من كل الطوائف والفئات والـلـهجات والمشارب. ووقف أمامه نابليون بونـابرت مشدوهًا وقال ((إنّ أمة تستطيع أنْ تبنى لنفسها قلبًا مـن حجـر عـلى هـذا النحـو لجـديرة أنْ تعيش إلى الأبد)) وإذا سقط حجر فعلينا لو كنا جديرين بالانتساب لمن بنـوه انتـساب الأحفـاد للأجداد أنْ نعمل على إعادته إلى مكانه وفقًا لعلوم ترميم الآثار، لا أنْ نفكر فى تحطيمه وبيعـه لمن يريد)) واختـتم مقالـه قـائلا ((الحـق أننـى لا أدرى مـا إذا كنـتُ أتقـدم بالـشكر لأولئـك الأجانب الذين سيتبركون بمثل تلك الميدالية الحجرية ، لأنها جزء من الهرم الأكبر، أم أعتـب كـل العتـب عـلى الـذين يمكـن أنْ تطـرأ عـلى أذهـانهم مثـل هـذه الأفكـار الهدامـة)) (صـحيفة الأخبار91/6/12) .

وإذا كـان كـل مـصرى شريـف يتمنـى الحفـاظ عـلى تـراث جـدوده ، فـما العمـل

لوقف تهريب الآثار أو محاولة هدمها ؟ لاخلاف على ضرورة تغليظ العقوبات ، ورفـع مرتبـات العاملين بهيئة الآثار. ولكن حتى لو تم هذا ، فـإنّ الظـاهرة سـتستمر طالمـا اسـتمرت الـسيادة للثقافة المعادية للحضارة المصرية التى تـصنع بـدورها ظـاهرة غيـاب الحـس القـومى . والحـل تملكه مؤسستا التعليم والإعلام لو كانت السيطرة لإرادة الحياة وليـست لإرادة المـوت . فلـو أنّ التلميذ المصرى تعرّف على الدور الرائد لجدوده فى صنع الحـضارة الإنـسانية ، ولـو أنّ مـسؤولى التعليم وزّعوا عليه الكتب الجـادة التـى تتنـاول الحـضارة المـصرية ، ولـو أنهـم خصـصوا ثـلاث حصص فى الأسبوع لمادة علم المصريات من الإبتدائى إلى الجامعـة ، ولـو أنهـم أطلعـوه عـلى مـا تفعله مدارس وجامعات أوروبا من اهتمام بهذا العلم ، ولو أنّ الإعلام (المصرى) فعل نـصف أو ربع ما تفعله دول العالم المتحضر، مثل إنتاج أفلام تـسجيلية وروائيـة عـن الحـضارة المـصرية ، ومثل تخصيص ساعات يوميًا لبرامج تتناول هذه الحضارة ، لو أنّ إرادة الحياة انتـصرتْ وأصبح لدينا تعليم وإعلام بهذا المستوى القومى المتحضر ، هل سـتكون سرقـة الآثـار وتهريبهـا بـنفس الكم ؟ أليس من المتوقع أنه فى ظل عودة الحس القومى أنّ هذه الـسرقات سـتقل شـيئًا فشيئًا ، خاصـة عنـدما يُـدرك المـصرى أنّ الآثـار ثـروة تحـرص الـشعوب المتحـضرة عـلى مشاهدتها ، كما أنها مصدر مهم مـن مـصادر الـدخل القـومى ؟ وفى ظـل عـودة الحـس القومى أليس من المتوقع أنْ يكون لدينا مسئولون كبار يترفعون عن الإثـراء عـن طريـق سرقة تراث جدودهم ويكتفون بدخولهم الخيالية ؟ وحتى لو فكر فى الإثراء غير المشروع ، فهل يسرق تماثيل الإله حورس كما فعل لواء الـشرطة ؟ أم يتجـه إلى الوسـائل الأخـرى ، مثل الحصول على القروض من البنوك (العامة) وتهريبها إلى خارج مصر كما فعل كثيرون ؟ وبمراعاة أنّ الوسائل غـير المـشروعة متعـددة ومتنوعـة ، بيـنما تماثيـل الآلهـة المـصرية محدودة وغير متجددة (من بين الوسائل غير المـشروعة الـسماح للعـرب بتملـك الأراضى المصرية وشراء الشركات المصرية لإذلال العمال المصريين (شركة كتان طنطا نموذجًـا) وقـد

نشرت صحيفة المصرى اليوم (2010/2/10) أنّ العقد الموقع بين الحكومة المصرية والوليد بن طلال (سعودى الجنسية) لامتلاك 128 ألف فدان بمنطقة توشكى + 100 ألف فدان (ملحقات) بسعر 50 (خمسين) جنيهًا للفدان وأنّ هذا الثمن يشتمل على خدمة المرافق بما فيها توصيل المياه . وهذا البند وحده يُكلف مصر سنويًا أكثر من 200 مليون جنيه + الإعفاء من كافة الرسوم ، والأخطر الإعفاء من كافة أنواع الضرائب . ونص العقد على أنه ليس من حق القضاء المصرى النظر فى أى نزاع ينشأ بين المستثمر السعودى والحكومة المصرية ، وإنما يُنظر النزاع أمام التحكيم الدولى ، على أنْ تتحمل الحكومة المصرية كافة المصاريف بما فيها مصاريف الانتقال والرسوم القضائية. ورغم أنّ الفدان تم بيعه بسعر50 (خمسين) جنيهًا ، فإنّ المسئولين المصريين وافقوا على أنْ يتم سداد المبلغ ((على أقساط)) أى أننا أمام ((احتلال عربى)) للأراضى وللشركات المصرية ، أى ((استعمار عربى لاقتصاد مصر)) وهو الأمرالذى جعل أ. سيد على يعتقد أنّ المسئولين المصريين الذين وقعوا على العقد مع المستثمر السعودى ، كانوا أثناء التوقيع تحت تأثيرمادة مخدرة ، على طريقة الأفلام السينمائية ، أنّ (البنت) المغلوبة على أمرها والتى استسلمت للخطيئة ، سقاها (المجرم) ((حاجه أصفره)) (أهرام 2010/2/13) ولمزيد من التفاصيل انظر : الدراسة المهمة التى كتبها د. أحمد السيد النجار بعنوان (دولة الوليد بن طلال فى مصر) ونشرتها صحيفة العربى الناصرى على صفحة كاملة – عدد 2مايو2010 وتتضح المأساة أكثر عندما نعلم أنّ الوليد ابن طلال حصل على قرض من البنك الأهلى المصرى .



الفصل الخامس

أبو حصيرة :

من الضريح إلى المستوطنة

يُفجّر كتاب د. سوزان السعيد يوسف (المعتقدلات الشعبية حول الأضرحة اليهودية- دراسة عن يعقوب أبي حصيرة بمحافظة البحيرة) الصادر عن دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، قضية غاية فى الخطورة تمس استقلال أو(اتفريط فى) كامل التراب الوطنى المصرى .

خطورة الكتاب أنّ مؤلفته تستهدف شيئًا واحدًا ، هو ترسيخ الاعتراف بالأمر الواقع ، وأنّ على شعبنا المصرى أنْ يقر ببداية الاستيطان الإسرائيلى على أرض مصر. والمدخل لهذا الاستيطان هو ضريح (أبوحصيرة) فى محافظة البحيرة . وهذا الهدف يمكن استنتاجه بسهولة من صفحات الكتاب . وأود أنْ أشير إلى الحقيقة التى لا خلاف حولها ، وهى أنّ العبرة بما هو مدوّن وأصبح فى يد القارئ وليست العبرة بالنيات . وفيما يلى بعض أسبابى عن خطورة هذا الكتاب على استقلال مصر.

تتعمد المؤلفة وصف يعقوب أبي حصيرة بالصدّيق كلما جاء ذكره فى معظم صفحات الكتاب . وتُركز على أنه صاحب مدرسة فى التصوف فى المغرب . والأخطر من ذلك أنّ

صفة الصدّيق تربطها المؤلفة بإيحاء آخر حيث كتبتْ ((وكـذلك بعـض الملـوك والأنبيـاء وحتـى الشعراء يُعتبرون من الصديقين)) (ص 72) وكتبتْ أيضًا أنّ عائلة هذا الصدّيق ((تعيش الآن فى جنوب إسرائيل فى بئر سبع باعتبارها عائلة مقدسة)) (ص 116) والتركيز عـلى صـفات التقـديس والتبجيل والتصوف والتواضع إلخ عن أبى حصيرة وعائلتـه ، يـصعب حـصرها ، خـشية الاطالـة ، وبالتالى يحق لكل مصرى أنْ يسأل : لماذا هذا التركيز (شـديد الكثافـة) عـلى هـذه الـصفات ؟ وحتى لو صدّقنا نحن المصريين أنّ (أبوحصيرة) من أولياء (يهوه) الصالحين ، فهـل هـذا مـبرر لبقائه على أرض مصر ؟

فى تبريرها لبقاء ضريح (أبى حصيرة) فى مصر، كتبـتْ المؤلفـة ((أنّ الـشريعة اليهوديـة تُحرّم نقل الجثة بعد دفنها)) (ص 140، 181) وحيث أنّ المؤلفـة تؤيـد مرجعيـة بنـى إسرائيـل الدينية (الشريعة اليهودية) فإننى أحيل القارئ إلى سفر الخروج (إصحاح 13 : 18- 19) الذى جاء به ((وصعد بنو إسرائيل مُتجهزين من أرض مصر. وأخذ موسى عظام يوسف معه)) وتبعًـا لذلك فإنه حسب شريعة بنى إسرائيل الدينيـة ، فإنـه يجـب نقـل الـضريح مـن مـصر. كـما أنّ المؤلفة تعترف بأنّ بعض الأضرحة اليهودية التى كانـت خـارج إسرائيـل ، تـم نقلهـا إلى إسرائيـل (ص102، 104)

ولم تكتف د. سوزان بتبرير بقاء الضريح فى مصر، وإنما وضعتْ نفسها فى موقـف مـضاد وضد الحركة الوطنية المصرية والكتاب الوطنيين ، أمثال أ. مختار السويفى الذى طالـب فى أكـثر من مقال بضرورة تسليم (أبو حصيرة) لإسرائيل . أو ما ذكرته صـحيفة الأهـالى المـصرية (عـدد 97/1/1) من أنّ (أبوحصيرة) هو كمسمار جحا مغـروز فى قلـب قريـة مـصرية . أو مـا ذكرتـه مجلة روزا ليوسف (97/1/6) من أنّ أهالى القريـة تقـدّموا بعـدة شـكاوى إلى محـافظ البحـيرة ومـدير الأمـن ، مُطـالبين جميـع الأجهـزة بالـسماح لهـم بمزاولـة أعمالهـم ومنـع الاحتفـالات

اليهودية داخل قريتهم . هؤلاء الكتاب الوطنيون فى نظر المؤلفة يُهاجمون الحدث (أى الاحتفال بأبى حصيرة) ليس ذلك فقط ، بل إنها تلوم الإعلام المصرى لوجود نوع من التعتيم الإعلامى عن هذا الحدث (ص 155) أى أنها تطلب من الإعلام المصرى الترويج والدعاية للاحتفال بصاحب الضريح واستمرار وجوده على أرض مصر. وإذا كانت المؤلفة عَمَدَتْ إلى تكذيب مجلة روزا ليوسف التى ذكرتْ أنّ الاحتفال يستمر مدة أسبوع (ص 155) نجدها (= المؤلفة) تكتب فى ص 161 ((وفى هذه المناسبة يبدأ اليهود فى التوافد إلى مصر من شتى أنحاء العالم قبل الاحتفال بأسبوع))

تعترف المؤلفة بوجود إجراءات أمن مشددة أثناء الاحتفال بالولى الإسرائيلى لدرجة أنّ الحراسة تمتد ((على الطريق بين القاهرة ودمنهور. أما داخل مدينة دمنهور فتنتشر قوات الأمن فى كل مكان وتمتلئ الشوارع بالجنود ويُمنع مرورالأهالى بهذا الطريق . وفى قرية دمتيوه تُغمر المنطقة المحيطة بالضريح بالمياه حتى تمنع أى (غزو) للمنطقة وتلقى العديد من الجوالات المليئة بالرمل حول الضريح . وفوق المنازل المحيطة بالضريح ينتشر فوق الأسطح الجنود بمدافعهم فى حالة استعداد)) (161، 162) واعترفتْ المؤلفة أنها لم تتمكن من حضورالاحتفال عام 95 إلاّ بفضل معاونة مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلي بالقاهرة (ص 7) .

إنّ هذه الإجراءات الأمنية ، حوّلت ضريح الولى الإسرائيلي إلى مستوطنة إسرائيلية داخل مصر. وهى صورة طبق الأصل من المستوطنات الإسرائيلية داخل فلسطين المحتلة. فإذا كانت هذه الإجراءات الأمنية تستهدف حماية اليهود ، فالسؤال هو: حمايتهم مِنْ مَنْ ؟ والإجابة بالطبع حمايتهم من المصريين (الأعداء) حتى لايقوموا بـ(غزو) منطقة الضريح / المستوطنة (كلمة الغزو وردتْ فى وصف المؤلفة فى الفقرة السابقة) كما أنّ هذه الإجراءات الأمنية حرّمتْ على المصريين الدخول إلى أرض (مصرية) أى أننا إزاء مستوطنة إسرائيلية داخل مصر. وهو الأمر

الذى لم يُلفتْ نظر المؤلفة التى اهتمت بإضفاء صفات القداسة على واحد من أبناء بنى إسرائيل ، ولم تكتب كلمة واحدة عن ضرورة نقل هذا الضريح من مصر.

ذكرتْ المؤلفة أنه ((أقيم مزاد على أول من يدخل الضريح وأول من يُشعل الشموع للصدّيق (أبوحصيرة) وقد دفع مبلغ مائة ألف دولار للحصول على مفتاح الضريح)) (ص 163) والسؤال هو: فى أى أوجه الإنفاق سيتم صرف هذا المبلغ ؟ وهذا السؤال يجب ربطه بالطلب الذى تقدّم به بعض الإسرائيليين إلى وزارة الخارجية المصرية ((يُعلنون فيه أنهم يرغبون فى شراء خمسة أفدنة من الأراضى الفضاء المجاورة لمقبرة مسمار جحا المسماة بضريح أبوحصيرة)) (انظر: مقال أ. مختارالسويفى - أهرام 98/9/9 ص 11) والسؤال هو: لماذا هذه التوسعات ؟ أليست هذه الأساليب التوسعية هى بالضبط ما فعله ويفعله اليهود فى فلسطين المحتلة ؟

ذكرتْ المؤلفة ((تعطى العقيدة الشعبية المصرية أهمية بالغة للاعتقاد فى الأولياء)) وأنّ يعقوب أبى حصيرة ((ولى من أولياء اللـه الصالحين)) (ص 146 ، 147) ولم تكتف المؤلفة بهذا الإيحاء ، وإنما ذكرتْ أيضًا ((من الدراسة السابقة يتضح لنا أنّ التشابه فى القصص الشعبى يمكن أنْ يُقدّم لنا صورة عن التشابه فى الخيال الشعبى لدى الشعوب المختلفة)) (ص 220) والإيحاء هنا واضح لاغموض فيه ، وأنّ الرسالة التى تُصرالمؤلفة على توصيلها للقارئ هى : بقاء الضريح الإسرائيلى فى مصر ، طالما أنّ الخيال الشعبى لدى الشعوب المختلفة متشابه.

إنّ هذه اللغة التقريرية تتجاهل أنّ ولع المصريين بزيارة الأضرحة وتمسكهم بظاهرة الاحتفال بالأولياء (مسلمين ومسيحيين) إنما هو تعبير عن ثقافة قومية مصرية خالصة. وقد انعكستْ هذه الثقافة حتى على الشخصيات العربية ، فجدودنا المصريون أطلقوا على السيدة زينب بعض صفات الإلهة المصرية إيزيس

(الطاهرة) (أنظر: أدولف إرمان – ديانة مصرالقديمة- ترجمة د. عبدالمنعم أبوبكر، ود. محمد أنورشكرى – هيئة الكتاب المصرية- مكتبة الأسرة – عام 97 ص 484) وأضفوا على شقيقها الحسين بعض صفات أوزيريس (سيد الشهداء) (انظرالتفاصيل : بيومى قنديل – حاضر الثقافة فى مصر- ط 2 ص 69) كما أنّ طقوس الاحتفال بمولد (سيدى أبوالحجاج) بالأقصر هى ذات الطقوس التى كان جدودنا المصريون القدماء يؤدونها للإله آمون (انظر: محرم كمال – آثارحضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية – سلسلة الألف كتاب الأول – عدد 38 – نشرته دارالهلال – عام 1956من ص 73- 79) كما أنّ هذه الأضرحة فى مصر ليست بها شبهة المستوطنات ، بمراعاة أنها متاحة لكل المصريين ، حيث يزور أبناء طنطا الحسين والعكس صحيح فى كل الأضرحة المنتشرة فى مصر.

ذكرت المؤلفة أنّ ((المعتقد الشعبى (المصرى) يربط بين شم النسيم والممارسات الخاصة بالصدّيق (أبوحصيرة) فعيد شم النسيم يُحتفل به بجوار الضريح ، ويرجع هذا الربط إلى أنّ اليهود يحتفلون فى اليوم الأخير من عيد الفصح باحتفال مشابه لشم النسيم ، وهذا العيد يرتبط بعبور البحر الأحمر وخروج اليهود من مصر والخلاص اليهودى)) (ص 155) لاحظ عزيزى القارئ تعبير((الخلاص اليهودى)) الذى يؤكد تطابق المؤلفة مع ما ورد فى العهد القديم من عداء غيرمبرر على المستوييْن الإنسانى والتاريخى ضد جدودنا المصريين. وبالتالى لمصلحة من يتم هذا الربط أو هذا الخلط بين احتفال مصرى مستمد من ثقافة قومية مصرية ، وبين الأيديولوجيا العبرية عن قصة خروج اليهود من مصر((فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيل المصريين أمواتًا على شاطىء البحر)) (خروج 14 : 30) فهل تتضامن المؤلفة مع خراريف بنى إسرائيل وتعتقد- مثلهم- أننا نحن المصريين ((أمواتًا على شاطىء البحر)) ؟

ذكرتْ المؤلفة أنّ ثمة صلاة تقام عند الحائط الغربى للضريح ، فى إشارة إلى

المعبد اليهودى فى أورشليم وحائط المبكى . وتبدأ (الصلاة) بالافتتاحية التالية ((لكل إسرائيل نصيب فى العالم الآتى كما قيل : وقومك كلهم صالحون وسيرثون الأرض إلى الأبد .. إلخ)) (ص 169) ولأنّ بنى إسرائيل يُقدّسون ويؤمنون بكتابهم (العهد القديم) فإنّ الأمانة العلمية تفرض على الباحث الموضوعى أنْ ينقل للقارئ ما هى الأرض التى أهداها إله العبريين لبنى إسرائيل ؟ ولأنّ مؤلفة كتاب (أبوحصيرة) لم تفعل ، فإننى أنقل للقارئ بعض ماورد فى العهد القديم ((واجتاز إبرام فى الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة موره . وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض . وظهر الرب لإبرام وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض)) وأيضًا ((وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبًا وشرقًا وغربًا . لأنّ جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد)) وكذلك ((وقال له: أنا الرب الذى أخرجك من أورالكلدانيين ليُعطيك هذه الأرض لترثها)) وفى موضع آخر فإنّ الإله العبرى يُوزع على بنى إسرائيل أوطان الغير بالجملة ((فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)) (تكوين الإصحاح 12 ، 13 ، 15) .

وذكرتْ المؤلفة أنه أثناء الصلاة تتم تلاوة فقرات من سفرىْ التثنية والعدد . وبالرجوع إلى العهد القديم نجد أنّ الآية 41 من سفرالعدد التى أشارت المؤلفة إليها تنص على ((أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من مصر)) فإذا كان الإله العبرى تراجع فى وعده ، وتولى إخراج بنى إسرائيل من أرض مصر، فلماذا التمسح والتحايل لبناء مستوطنة إسرائيلية فى مصرفى شكل ضريح ؟

وذكرتْ المؤلفة أنّ ((هناك بعض القصائد التى تُنسب إلى أبى حصيرة . وهذه إحدى القصائد التى تُنشد فى عيد الفصح)) يقول أبوحصيرة ((وعلمتُ أنّ الله هناك / أحكم فرعون وجنوده الحصار/ فخرجتْ جنود الله كل رجل بسلاحه وتحوّل البحرلهم يابسة / وعبرته طائفة مقدسة وتغنى كل رجل وامرأة أغنية /

حتى من فى بطن أمه غنى)) وعقبتْ المؤلفة على كلام أبى حصيرة فكتبتْ ((وهذا الـشعر يظهـر به أثر نشيد الإنشاد فى مخاطبة إسرائيل باعتبارها الحبيبة . وهو يروى عن خلاص إسرائيـل مـن مصرالذى وافق عيد الفصح والأمل فى خلاص إسرائيل القريب)) (ص 180) والمؤلفـة هنـا- رغـم مراجعها العديدة ومن بينها العهد القديم، فإنها لم تكتب كلمة واحدة فى كتابها تُـشير أو حتـى توحى إلى أنّ العهد القديم استوقفها أو حتى أثار تساؤلها عـن أسـباب العـداء الـذى شـنّه إلـه العبريين ضد المصريين (خاصة فى سفرالخروج) العداء الذى وصل لدرجة تحويل أرض مصرونيلها إلى دم وبعوض وضفادع وإلى ((قتل كل بكر فى أرض مصر من بكرالناس إلى بكرالبهائم)) وكيف لم تتوقف المؤلفة أمام ذلك الرب الذى يخشى عـلى نفـسه مـن عـدم القـدرة عـلى التمييـز بـين المصريين وبنى إسرائيل ، فيطلب من الأخيرين أن يضعوا على بيوتهم علامـة مـن الـدم حتـى لا يُخطئ وهو يضرب المصريين فقال ((ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها . فـأرى الدم وأعبرعنكم . فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب مصر. ويكون لكم هذا اليوم تذكارًا فتُعيّدونه عيدًا للرب فى أجيالكم . تُعيّدونه فريضة أبدية)) (خروج 13) أليست هـذه الفريـضة الأبدية هى ما يتغنى أبوحصيرة به على أرض مـصر؟ وتتكاثرالأسـئلة وعلامـات التعجـب عنـدما تنص المؤلفة على أنّ ((... الأساطير اليهودية تـذكرأنّ مـوسى قـد شـق البحـر بقـوة اسـم الـرب . والقصة بها العديد من العناصر الخارقة)) (ص 212) ومع هذا فإنها لم تكتـب كلمـة واحـدة فى نقد وتحليل هذه الأساطير المعادية لنا نحن المـصريين ، بـل إنهـا لم تكتـف بـذلك وإنمـا سـاقت المبررات لاستمرار بناء الضريح / المستوطنة فى مصر .

ذكرتْ المؤلفة أنه فى مناسبة ختان الصدّيق اليهودى تُتلى بعض النصوص مـن العهد القديم ومنها المزمور29 الذى يقول ((صوت الرب مكسر الأرز ويُكـسر الـرب أرز لبنــان ويمرحهــا مثــل عجــل . لبنــان وسريــون مثــل فريــر البقــر الوحــشى .

صوت الرب يقدح لهب نار. صوت الرب يُزلزل البرية. يُزلزل الرب برية قادش)) وهنا نجد أنّ المؤلفة لايعنيها فحوى هذا المزمور. ولم تتوقف أمامه ولم تُعقب بكلمة واحدة على هذا الإله العبرى الذى يُكسرأرز لبنان ويُزلزل قادش (قادش : اسم مدينة كانت وسط سوريا وكانت ضمن حدود الامبراطورية المصرية ، خاصة فى فترة حكم تحوت- موس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى- أنظر كتاب «رمسيس الثانى- فرعون المجد والانتصار»- تأليف كنت أ. كتشن- ترجمة د. أحمد زهيرأمين – هيئة الكتاب المصرية- مكتبة الأسرة عام 98 ص 51) ولم تسأل المؤلفة السؤال الذى يسأله لنفسه أى باحث موضوعى : ما علاقة العبريين بلبنان أو قادش ؟ ولماذا هذا العداء لهما لدرجة التدمير؟ واذا كانت المؤلفة ساقتْ المبررات العبرية لبقاء الضريح / المستوطنة فى مصر، فلتكن مهمة كل مصرى الدفاع عن الاستقلال الكامل لكل ذرة من تراب مصر. ولتتضامن أصوات كل المصريين فى مناشدة القيادة السياسية لإتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل رفات (أبوحصيرة) إلى إسرائيل أو إلى أى مكان يختاره اليهود ، حتى لايتحول مسمار جحا (ضريح الولى الإسرائيلى) إلى بداية الاستيطان الإسرائيلى فى مصر .



الفصل السادس
أبو حصيرة :
من الضريح إلى المستوطنة

كتب ديودور الصقلى فى كتابه تاريخ العـالم ج 1 ((جميـع اليونـانيين الـذين اشـتهروا بعلمهـم وحكمـتهم زاروا مـصرفى العـصورالقديمة حتـى يتعرّفوا على عاداتها وينهلوا من علومها . وأنّ كـل الأشـياء التـى جلبـتْ الإعجاب كانت منقولة عن مصر)) وكتب (بلوتارك) المؤرخ اليونانى الذى زارمصر أنّ ((فيثاغورس أخذ العلم الذى أكسبه العالمية عن كهـان طيبـة ومنف)) أما هيرودوت فيُقررفى كتابه الثانى ((أنّ النظام الـدينى المـصرى أقدم كثيرًا مما عند الإغريق ، فلابد لهـذه الأسـباب أنْ تكـون مـصر هـى المنشأ لهم جميعًا)) هذا غيرآلاف الكتب التى كتبها علماء متخصصون فى علـم المـصريات وأثبتـوا فيهـا الدورالرائـد للحـضارة المـصرية عـلى كـل حضارات العالم القديم . ورغم هذه الحقيقة التى لاينكرها العقـل الحـر المتجـرد مـن أيـة أيـديولوجيات عرقيـة أو دينيـة أو سياسـية ، مـازال مصريون (نعم مصريون) يُهاجمون تراث جدودهم ، إلى الحد الذى دفع بعض الأكـاديميين الكبـار أنْ يُطـالبوا بإلقـاء أعـمال جـادة تتحـدث عـن الحــضارة المــصرية (مثــل موســوعة مــارتن برنــال «أثينــا إفريقيــة

سوداء») فى أى صندوق زبالة وأنّ هذه الكتب عبارة عن ((زبالة فكرية)) (انظرالتفاصيل التى ذكرها المفكر والمترجم الجاد أ. شوقى جلال فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق- الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة- تأليف جورج جيمس – طبعة 1 المجلس الأعلى للثقافة عام 96 وط 2 هيئة قصورالثقافة عام 2008 ص 39) .

أردتُ بهذا المدخل المختصرأنْ أدلل على أهمية كتاب (الحضارة المصرية- صراع الأسطورة والتاريخ) تأليف أ. شوقى جلال الصادرعن دارالمعارف المصرية سلسلة إقرأ – العدد 614 عام 96 . والكتاب كما جاء فى التمهيد مجموعة من الدراسات منطلقها ومحورها كتاب (أثينا إفريقية سوداء) لمؤلفه مارتن برنال . بالإضافة إلى مقال بقلم برنال لخص فيه مضمون المجلدات الثلاثة لكتابه الموسوعى وحمل عنوانًا رئيسيًا هو (أثينا السوداء- الجذور الإفريقية الآسيوية للحضارة الكلاسيكية) والخط الرئيسى للكتاب هو مناقشة النظرية السائدة فى أوروبا وأمريكا القائلة أنّ اليونان هى مهد الحضارة ، وبالتالى فالسيادة للإنسان الأبيض ، ونفى أى دور للأفارقة والآسيويين . ويُفرّق برنال بين نموذجين حكما الإطار الفكرى والقيمى لأوروبا فى حقبتين زمنيتين مختلفتين : النموذج القديم ، ويعنى أنّ اليونان مشرقية تقع على تخوم حضارة ثقافية مصرية سامية. والنموذج الآرى ، ويعنى أنّ حضارة اليونان أوروبية الأصل والمنشأ والمسار. وهذا النموذج ينقسم إلى قسمين : النموذج الآرى العام الذى يرفض الاعتراف بأى أثر للمصريين على الإغريق ، ولكنه يعترف ببعض الأثر للفينيقيين ، وهم هنا اليهود مع إخراج بقية الساميين . وهو ما تم بفضل جهود اليهود أنفسهم . والقسم الثانى هو النموذج الآرى المتطرف الذى أنكرتمامًا أى تأثير للساميين والمصريين على حد سواء.

تعتمد دراسة برنال على عدة محاورمثل الوثائق ، الآثار، اللغة ، أسماء الأماكن والآلهة ، وذلك للتدليل على أثر المصريين (وغيرهم) فى الحضارة اليونانية. ومن

الوثائق ألواح المجموعة الخطية (بى B) من القرنين 14 ، 15 ق . م مكتوبة باللغة اليونانية ولكنها تحتوى على الكثير من الكلمات المصرية القديمة . وعن اللغة كتب برنال إنّ أكثر- إنْ لم يكن أغلب العناصرغيرالهند / أوروبية فى اللغة اليونانية يمكن تفسيرها على أساس مصرى أو سامى غربى . كما أشار إلى المحاولة التى قام بها (بارتليمى) لاستخلاص الكلمات اليونانية من جذور قبطية . وعن أسماء الأماكن أكد على أنّ الأسماء المصرية تغلب على أسماء المدن اليونانية مع الاستشهاد بالعديد من الأمثلة ، مثل اسم أفروديت المشتق من (بروجيت) المصرية. وعن أسماء الآلهة فإنّ هيرودوت يُقرر بوضوح أنّ ((جميع الآلهة تقريبًا جاءت إلى اليونان من مصر)) بل إنّ أسماء بعض الأبطال فى التراث الإغريقى مأخوذة عن أسماء بعض ملوك مصر، مثل اسم أجاممنون المشتق من اسم أمنمحات الذى هو اسم العديد من فراعنة الأسرة رقم 12 .

إن كتاب (الحضارة المصرية- صراع الأسطورة والتاريخ) يدعو إلى التوقف أمام ظاهرة لافتة للانتباه وللأسى ، وهى أنّ كتاب برنال الموسوعى ، الذى أكد فيه على أكذوبة الجنس الآرى الأبيض ، ودلل (مثل غيره من علماء المصريات) على الدورالرائد لجدودنا المصريين فى وضع أسس الحضارة الإنسانية ، ومع ذلك فإنّ كثيرين من الأكاديميين (المصريين) شنوا هجومًا حادًا على الكتاب واتهموا مؤلفه مارتن برنال بتهم عديدة منها (بل وأخطرها) أنه ينطلق من نزعة صهيونية ويُروّج لأفكار إسرائيلية. وأرى أنّ أهمية كتاب أ. شوقى جلال ترجع إلى مناقشة هذا الاتهام الموجّه ضد برنال ، لمجرد أنه أثبتْ دور إفريقيا بصفة عامة ودور مصر بصفة خاصة فى التمهيد للحضارة الإنسانية.

الدفاع عن الحضارة المصرية دفاع عن إسرائيل والصهيونية

كان الأساس النظرى لفكرة تجميع شتات اليهود فى وطن يحمل اسم (إسرائيل) هو ما سطره اليهود فى الكتب العبرية ، بدءًا بالتوراة وما جاء بعدها .

والفكر العبرى يتناقض مع الفكرالمصرى من منظور نسق القيم ، فضلا عن العداء لمصر والمصريين . فالتوراة تبدأ بترسيخ رذيلة الكذب ، عندما طلب إبراهيم من ساره أنْ تقول : إنها أخته وليست زوجته عند دخولهما مصر(تكوين / 12) والثانية الإدعاء بأنّ أرض مصر ومياهها تحوّلتْ إلى دم . والثالثة الإدعاء بأنّ إله العبريين قضى على المصريين وإلى الأبد (خروج الأسفار من 7- 14) ثم رذيلة التحريض على سرقة المصريين (خروج 12 من 24- 26) ورذيلة التحريض على التمييز العنصرى وذلك بوضع علامة من الدم على بيوت اليهود حتى لايُخطئ الإله العبرى وهو يمارس قتله للمصريين (خروج 12 من 12- 14) كما أنّ هذه المرويات تتنافى مع ما دوّنه المؤرخون والرحالة المعاصرون ودراسات علماء المصريات ، لتلك الأحداث .

كتب أ. شوقى جلال ((إن تزييف التاريخ صناعة إسرائيلية ، بدأتْ مع التوراة التى هى رواية لتاريخ مصطنع زائف عن شعب اللــه المختار. وتتابعتْ كتب تحمل صفة الدراسة الأكاديمية صادرة عن جامعات عالمية تُدعم الرؤية الصهيونية لتاريخ مصر)) واذا كان بعض المصريين يتهمون برنال بالصهيونية ، فإن أ. شوقى جلال أشار إلى الهجوم الذى شنّته بعض الأوساط المعروفة بولائها للصهيونية على كتاب برنال وأضاف ((وعمد أفراد عرب وكذلك كاتب مصرى معروف بانحراف اتجاهه ومقيم خارج مصر إلى إعادة تأويل وتحريف كتابات برنال ، بأنْ أسقط صفة مصرى عن الحضارات المؤثرة فى شرق المتوسط واليونان وحذا حذو الصهاينة عندما حجب دور مصر وأثرها فى حضارة اليونان ، واكتفى بالتأكيد على ما كتبه برنال عن دور الساميين والشرق ، رغم أنّ برنال تحدث بإفاضة عن مصر)) .

ومن أدلة الاتهام ضد برنال ما استشهد به بعض المصريين من أنّ جامعة هارفارد لم تنشر كتاب برنال ، فكتب أ. شوقى جلال ((وكأنّ جامعة هارفارد وغيرها برّاء من النزعة الصهيونية)) ثم عرض بالتفصيل تاريخ إنشاء تلك الجامعة

ودور اليهود سواء فى تمويلها أو فى رسم سياستها . كما أشار إلى حقيقـة أخـرى وهـى أنّ الجنـاح اليمينى المتطرف فى أمريكا عارض كتاب برنال بشراسة. واذا كان برنـال يسـتـشهد كثـيرًا بـالمؤرخ هيرودوت ، خاصة كتابه الثانى ، فإنّ أ. شوقى جلال توقف عند حقيقة غاية فى الأهمية وهى أنّ ((جميع كتب هيرودوت فى جامعة إكسفورد مسموح بـالاطلاع عليهـا فـيما عـدا الكتـاب الثـانى الذى يتحدث عن مصر. وليس الموقف فى جامعة كيمبريدج بهذا القـدر مـن الـسفور، وإنمـا تـم إسقاط الكتاب الثانى مع بعض الكتب الأخرى .. كما أنّ اليهود جاهـدوا فى شـتاتهم ضـد النزعـة الآرية العنصرية البيضاء ليُؤكدوا أنّ الـساميين لهـم دورعريـق فى بنـاء الحـضارة الإنـسانية دون الحاميين ، أى دون مصر والأفارقة بعامة.. ورغم هذا فإننا نشهد فى مصر ومن العـرب لومًـا بـل ولعنـات يـصبها الـبعض عـلى تـاريخ مـصرالقديم تحديـدًا.. كـما أنّ مـصر فى الـصورة العربيـة والإسرائيلية لتاريخها القديم ملعونة لأنها ناصبتْ إسرائيل العداء يومًا حسب رواية التوراة)).

إنّ العداء العبرى ضـد مـصر لـيس لـه غـير تبريـر واحـد ، فهـو انعكـاس نـاطق للـصراع الحضارى بين رعـاة رحـل ذاقـوا مـرارة النـدرة بـسبب قحـط الـصحراء الخـارجين منهـا ، وزرّاع مـستقرين عرفـوا الكفايـة والـوفرة بـسبب الزراعـة. ورغـم تغيرالأزمنـة مـازال الـصراع قائمًـا ، فالمتدين الإسرائيلى قد يتخلى عن ذراعه أو عينـه ولكنـه لايـتخلى عـن آيـات كتابـه (المقـدس) ولأنه يؤمن ب (النص) ولايـؤمن بالعقـل ، فهـو مـع أرض الميعـاد ومـع إبـادة المـصريين تنفيـذًا لمـشيئة إلهـه العـبرى المعـادى لمـصر. فـإذا كانـت هـذه هـى صـورة الواقـع ، فلـماذا يرمـى بعـض المـصريين برنـال وغـيره مـن علـماء المـصريات ، بـتهم الانحيـاز للـصهيونية وإسرائيـل لمجرد أنهم اجتهدوا (وحتى مع افـتراض الخطـأ) وتوصـلوا إلى النتيجـة القائلـة بـأنّ مـصر مهـد الحضارات ، وأنّ اليونانيين تعلموا وأخذوا الكثيرمن مصر؟ وكيف يكون من يُدافع عـن الحـضارة المــصرية تابعًــا للــصهيونية وإسرائيــل ، والأســاس العــبرى كلــه يُعــادى مــصر والمــصريين ؟

فهل من إجابة غيرسيطرة الشعور بالدونية نحو الثقافة القومية المصرية لدى بعض كبار متعلمى مصر وخاصة بين الأكاديميين ؟

***

ولأن أ. شوقى جلال يحترم لغة العلم ، لذلك كتب فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق) أنّ الأوروبيين يهتمون بالحضارة المصرية لدرجة تأسيس عدد كبيرمن الصحف والجمعيات الثقافية تأخذ لنفسها أسماء مصرية مثل أنصار مصر أو كيميت (وهوأحد أسماء مصر القديمة) ، (دعاة المحورية الكيميتية) ، (معهد ماعت الجديدة) إلخ وأشار إلى أنّ الاستقلال ليس سياسة أو اقتصاد فحسب ، بل استقلال فكرى أيضًا أو هو إبداع فكرى لعقل مستقل . واذا كان أفلاطون زار مصر وتعلم الفلسفة فى معابدها ، فإنّ سرقة الحضارة المصرية وصل ببعض اليهود لدرجة القول أنّ موسى كان معلم أخناتون ومعلم أفلاطون .

ردّ مؤلف كتاب (التراث المسروق) على دعاة أنّ اليونانيين هم أصل الفلسفة ، فأثبت من خلال عدة محاور أنّ الأصل كان فى مصر، فذكر حدود الامبراطورية المصرية ، وأثر ذلك الامتداد الجغرافى فى نشرالفكر والعلوم المصرية. ونقل عن ديودور أنه تم العثورعلى نصيّن فى العرابة المدفونة أحدهما للإلهة إيزيس والآخر للإله أوزير. ومنقوش على الثانى قول الإله أنه قاد جيشًا عبرالهند إلى منبع الدانوب فكتب المؤلف ((معنى هذا بطبيعة الحال أنّ الامبراطورية المصرية خلال فترة زمنية باكرة لم تكن تشمل فقط بحر إيجه وأيونا بل امتدت حتى الأطراف البعيدة من الشرق)) وفى محور آخر أثبت أنّ سلطات الحكم فى أثينا دأبتْ على اضطهاد الفلاسفة. وقدّمتْ عددًا منهم إلى المحاكمة. وكانت التهمة المشتركة كما جاء فى نص محاكمة سقراط هى ((عدم الإيمان بآلهة المدينة وإدخال آلهة غريبة عن البلاد)) وفى محورثالث أشار إلى ما دوّنه عديد من المؤرخين من أنّ عددًا كبيرًا ممن اشتهروا فى تاريخ الفلسفة اليونانية زاروا مصر وعاشوا فيها عدة سنين (أفلاطون 13 سنة ،

فيثاغورث 23 سنة) على سبيل المثال . وعن الأخير(فيثاغورث) فإنّ جامعات العالم تنسب إليه نظرية المربع المقام على وترالمثلث قائم الزاوية ، فكتب المؤلف أنّ هذا زعم فاضح ، لأنه أخفى الحقيقة قرونًا عن أعين العالم ، ولابد من تصحيح الوضع ، وأهمية أنْ يعرف العالم أجمع أنّ المصريين هم الذين علموا فيثاغورث واليونانيين علوم الرياضيات .

وإذا كان سقراط اشتهر بالحكمة القائلة (إعرف نفسك) فقد تم تجاهل أنّ نظم الأسرار المصرية اشترطتْ التحكم فى الانفعالات ، لأنّ هذا يُتيح مجالا لهيمنة القوى غيرالمحدودة ، والخطوة التالية هى مطالبة المريد المبتدىء البحث داخل ذاته عن القوى التى كانت مستحوذة عليه. كما أنّ هناك حقيقة أخرى تم تجاهلها ، وهى أنّ المصريين اعتادوا أنْ يكتبوا على جدران معابدهم عبارة (أيها الإنسان اعرف نفسك) كذلك منسوب إلى سقراط مبدأ العقل الكلى Nous أو العلة العاقلة لتفسير وجود الإله والخلق . وهو مبدأ نشأ أصلا فى نظم الأسرار المصرية .

وعن أفلاطون تناول المؤلف كل مبدأ فلسفى منسوب إليه وحلله بتوسع ليؤكد مصدره المصرى . فمثلا مبدأ (الصانع الأول فى الخلق) فإنّ مصر هى المصدر الأول لهذا المبدأ . ويرجع تاريخه إلى قصة الخلق فى مصر منذ أربعة آلاف عام ق . م والتى نجدها ضمن فقه الإلهيات فى مدرسة ممفيس : نقش على الحجرمحفوظ فى المتحف البريطانى ، ويشتمل هذا النقش على آراء فى فقه الإلهيات وتفسير نشأة ونواميس الكون (الكوزمولوجيا) عند المصريين القدماء . وذكرالمؤلف أنه ((إذا ما قارنا بين هذه الكوزمولوجيا المصرية مع الفرض السديمى الذى قال به (لابلاس) سنجد أوجه تشابه مذهلة بين النصين)) وأنّ أفلاطون نقل مشهد يوم الحساب فى الآخرة كما ورد فى كتاب الخروج إلى النهار الشهير فى ترجمته الخاطئة باسم (كتاب الموتى) وأنّ الفضائل الأربع الرئيسية المنسوبة إلى أفلاطون ، فإنها مقتبسة من الفضائل العشر المصرية .

وعن أرسطو ذكر أنه عقب غزو الإسكندر لمصر تم الاستيلاء على المكتبة الملكية فى الإسكندرية وكتب ((وعندى اعتقاد جازم بأنّ هذه فى الحقيقة كانت أعظم فرصة أتاحها الإسكندر لأرسطو ويسرّله ولتلاميذه الاستيلاء على أكبر عدد ممكن من الكتب التى احتاجوا إليها . هذا غير مكتبة طيبة الملكية التى أسسها الفرعون (سيتى) وأكملها رمسيس الثانى ، وهى أعظم المكتبات الملكية المصرية)) وفى مناقشة المؤلف للمبادىء الفلسفية المنسوبة إلى أرسطو أكد على مصدرها المصرى . فمثلا مبدأ الأضداد نشأ أصلا فى نظام الأسرار المصرى . ومبدأ (المحرك غيرالمتحرك) مستمد من فقه إلهيات مدرسة ممفيس ، فهو (آتوم) أو الصانع الأول الذى خلق بكلمة اللوجوس منه أربعة أزواج من الآلهة. وقد خلقها من أعضاء جسده وتحركتْ خارجة منه وتمت عملية الخلق هذه بينما ظلّ آتوم ثابتًا لايتحرك .

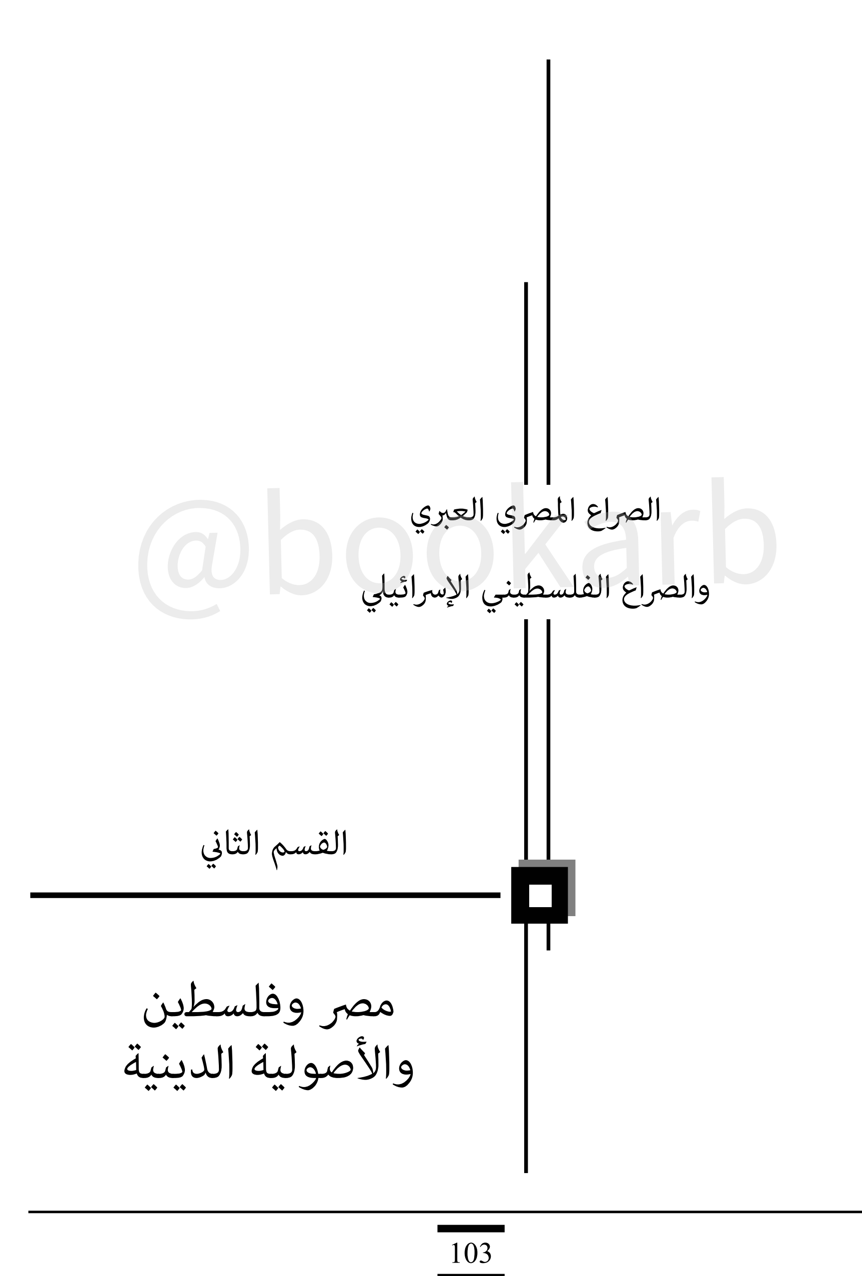
وذكر أنّ الإغريق شوّهوا الآلهة المصرية عندما أضفوا عليها أسماء وأساطير يونانية وآسيوية. وفى نهاية القرن الرابع الميلادى تم إغلاق المعابد المصرية. وبدأتْ المسيحية فى الانتشار. وفى القرن السادس أصدر الإمبراطور جوستنيان مرسومًا بقمع كل معتنقى ديانة مصر، ولكن ظلّ السحر الشعبى هو المجال الوحيد المحافظ على الديانة المصرية التى كانت ديانة عالمية ، ولذلك تم الاحتفاظ بتمثال إيزيس وهى تُرضع طفلها حورس ، الذى أصبح يُمثل السيدة العذراء وطفلها السيد المسيح ، وبناءً على ذلك قرّرتْ الحكومة الرومانية أنه لكى تستكمل الغزو يجب إلغاء نظم الأسرار المصرية. وبالتالى لابد من عقيدة جديدة تحل محل الديانة المصرية.

وفى الجزء الثانى من الكتاب وجّه المؤلف النداء والرجاء إلى كل مثقفى العالم المتحضر لإعادة الاعتبار للمصريين أصحاب أول وأعظم حضارة إنسانية عرفتها البشرية . وأوصى بإقرار كتابه لتدريسه فى المدارس والجامعات لجميع شعوب العالم. وهى التوصية التى أيّدها أ. شوقى جلال مترجم الكتاب الذى يرى ضرورة أنْ تتضمن دروس التاريخ ، بل والمطالعة فى المدارس مقتطفات من آراء العلماء عن

حضارة مصر. ومختارات من الأدب المصرى القديم . وأنْ نُصحح المفاهيم الخاطئة، فنقول نظرية فيثاغورث التى تعلمها فى مصر(يرى المؤلف شطب اسم فيثاغورث من كتب الرياضيات المدرسية) وأنْ نقول معبد دلفى المصرى فى اليونان . وأنّ اليونانيين تلاميذ الفلسفة المصرية. ومن الخطأ أنْ نظل ضحية مشاعر الدونية . ومن الخطأ أنْ نُردد مع خصوم الحضارة المصرية قولهم: إنْ هى إلاّ أساطيرالأولين وأنّ التنقيب فى أطلال الماضى مضيعة للوقت أو ردة إلى (الوثنية) وأنْ نقطع كل صلتنا بهذا الماضى (الهمجى) واختتم أ. شوقى جلال هذه الفقرة قائلا ((الغريب أنّ دعاة هذا الرأى هم أعلى الأصوات فى الدعوة إلى التمسك بالتراث ، ولكن تراثهم هم)) كما أشار إلى دور الصهيونية فى تشويه الحضارة المصرية ونسبتها إلى الجنس الأبيض .

إنّ مؤلف الكتاب (أمريكى الجنسية) يستحق الشكر لأنه يُطالبنا نحن المصريين بالدفاع عن حضارتنا وبتبنى فلسفة تحرير لكل إفريقيا . ويغرس فينا مشاعر الكبرياء القومى . ويستحق أ. شوقى جلال الشكر لأنه قدّم بترجمته لهذا الكتاب هدية جليلة لكل مصرى مازال يعتز بقوميته المصرية وبحضارته. وإذا كان المصريون المتأثرون بالتراث العبرى هاجموا كتاب (أثينا إفريقية سوداء) وكتاب (التراث المسروق) واذا كان البعض يتعمّد تشويه حضارة جدوده ونحن فى عام 2009 فإن عميد الثقافة المصرية (طه حسين) كتب عام 1937 بثاقب بصيرته أنّ اليونانيين ((كانوا فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص)) (مستقبل الثقافة فى مصر- دار الكاتب اللبنانى – ط 1973 ص 22) .





الصراع المصري العبري

والصراع الفلسطيني الإسرائيلي

القسم الثاني

مصر وفلسطين والأصولية الدينية

الفصل الأول
العلاقة بين اليهودية
والصهيونية

((إنى أنا الرب ساكن فى وسط بنى إسرائيل)) (العهد القديم- عدد 35) .

((الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل)) (العهد القديم – يشوع 10) .

((فقال الرب لداود اصعد لإنى دفعًا أدفع الفلسطينيين ليدك)) (صموئيل الثانى / 5) .

((رنموا للرب الساكن فى صهيون)) (المزمور التاسع لداود).

***

((إنّ خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحررالاجتماعى اليهودى نفسه ، إنما يقوم فى تحرير الإنسانية من اليهودية)) (كارل ماركس فى كتابه «المسألة اليهودية ») .

***

لقد مرّت مأساة الشعب الفلسطينى بعدة مراحل :

أولا : مرحلة التأسيس الأيديولوجى : وهى المرحلة التى

انحاز فيها إله العبريين إلى بنى إسرائيل انحيازًا مطلقًا فى مقابل العداء المطلق ضد غيرهم من الشعوب. والمرجعية الأساسية لهذا الانحياز تستند إلى كتب العبريين التى يُقدّسونها ، وفيها يُوزع إلههم أراضى الشعوب المستقرة عليهم مثل ((وكان فى الأرض جوع غيرالجوع الأول الذى كان فى أيام إبراهيم . فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار. وظهرله الرب)) إلى أنْ قال ((لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمتُ لإبراهيم أبيك)) (تكوين 26 : 1- 4) وبعد أنْ مات موسى استدعى الرب يشوع وقال له ((موسى عبدى قد مات . فالآن قم أعبرالأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا مُعطيها لهم أى لبنى إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا إلى النهرالكبيرنهرالفرات)) (يشوع 1 : 1- 9) .

إنّ المؤمنين الأتقياء من بنى إسرائيل المعاصرين لنا ، يلغون عقولهم فى سبيل التمسك بالنص . فإذا كانت الشعوب المنتمية لأوطان لها حدود جغرافية محددة ، واكتسبتْ هذه الحدود بحق الاستقرارالذى جاء تتويجًا لظروف النشأة والعمل والبناء ، فإنّ مشيئة الإله العبرى تُقرّر سلب أراضى الشعوب التى زرعتْ وشيّدتْ، وتسليمها إلى شعبه المختار ((ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى حَلَفَ لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أنْ يُعطيك إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها وأكلتَ وشبعتَ . فاحترز لئلا تنسى الرب الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. الرب إلهك تتقى وإياه تعبد وباسمه تحلف)) (تثنية 6 : 10 - 13) .

إنّ الحركة الصهيونية فى العصرالحديث التى استهدفتْ تجميع اليهود من كل دول العالم من أجل استيطانهم فى أرض ليست لهم ، وهى الحركة التى انتهتْ بطرد الشعب الفلسطينى من أرضه ، هذه الحركة الصهيونية إنما استندتْ إلى مرجعية الديانة العبرية ، فحتى العنف الذى يُمارسه المتدينون الأتقياء من بنى إسرائيل

المعاصرون لنا ، له مرجعيته الدينية فى كتابهم الذى يُقدّسونه. ففى سفرالتثنية يقول موسى لبنى إسرائيل إنه عند الدخول إلى مدينة لمحاربتها وقبلتْ الصلح ، فإنّ أبناء الشعب المغزو يتحولون إلى عبيد لبنى إسرائيل . أما فى حالة رفض الصلح ، يقول موسى: ((وإنْ لم تُسالمك بل عملتْ معك حربًا فحاصرها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك)) (تثنية 02 : 10 – 15) .

بعد هذا الاقتباس المختصر لنماذج من مرحلة التأسيس الأيديولوجى ، فإنّ الباحث قد يلتمس العذر للشعب الفلسطينى الذى استقر فى أرضه أكثر من ألفىْ عام ، ولم يُحذره مثقفوه من خطورة مرجعية بنى إسرائيل الدينية ، وهى المرجعية التى ظلتْ كامنة تحت الرماد حتى اشتعلتْ عام 1897 ، عام المخطط الصهيونى تمهيدًا لطرد شعب من أرضه .

ثانيًا : مرحلة المخطط الصهيونى : فى منتصف القرن التاسع عشرالميلادى أصدرالكاتب الألمانى (موزيس هيسى) كتابًا عن (تاريخ البشرية) قال فيه: ((إنّ شعب الله المختار ينبغى أنْ يختفى إلى الأبد ، ليفسح الطريق لحياة جديدة أكثرنقاءً وطهرًا)) ولكنه بعد عدة سنوات تراجع عن أفكاره الأولى ، وقرّراعتناق الصهيونية ذات المرجعية الدينية ، فأصدر فى عام 1862 كتابه (روما والقدس) دعا فيه إلى تجميع اليهود من شتاتهم واحتلال فلسطين لتكون وطنًا لليهود ، وبذلك يكون (موزيس هيسى) قد سبق هرتزل الذى نجح فى عقد المؤتمرالصهيونى الأول عام 1897 فى مدينة بال بسويسرا . بعد هذا المؤتمر تم الاستعداد لتوطين اليهود فى أوغندا أو فى سيناء ، ونظرًا لرفض الإنجليز هذا الاقتراح ، فقد استقر الرأى على الاستيلاء على فلسطين .

فى هذه الفترة برز كاتب ألمانى آخرهو(آرثر روبين) الذى شدّ أنظار زعماء الحركة الصهيونية إليه بكتابه (اليهود فى الزمن الراهن) فطلبوا منه ترك ألمانيا

والتوجه إلى فلسطين ، وذلك بغرض محدد وهو إعداد تقرير عن أوضاع المستوطنات الصهيونية فى فلسطين . وكان ذلك فى عام 1907 وفى العام التالى عيّنته الحركة الصهيونية رئيسًا لمكتب المنظمة الصهيونية فى فلسطين .

والسؤال الذى يفرض نفسه بإلحاح هو: اذا كانت الحركة الصهيونية نجحت فى (زرع) مكتب لها فى فلسطين مع بداية القرن العشرين ، فكيف تم ذلك وبهذه البساطة ؟ واذا كان العرب فى ذاك الوقت مجرد قبائل متصارعة ، ولم يستقروا فى (أوطان) وفق التعريف العلمى لمفهوم الوطن ، أو مفهوم الدولة State فلماذا لم ينتبه الفلسطينيون للخطرالمحدق بهم، وللمخططات التى بدأ تنفيذها ، خاصة وأنّ الصهاينة أصبحوا فى عقر دارهم ؟ ما هى الأسباب التى منعتْ الخيال الشعبى الفلسطينى من بدء الكفاح المسلح بالأسلوب العلمى لحرب التحريرالشعبية ، كما فعلتْ شعوب عديدة ، لعلّ مثالها الأشهرهو الشعب الفيتنامى ؟ وقد يكون السؤال تعبيرًا عن الدهشة ، وقد يكون عشقًا للمعرفة ، ولكنه فى كل الأحوال المدخل الطبيعى لمحاولة الإجابة التى – إنْ تسلحتْ بالحقيقة وتجرّدت من أية عواطف أو مصالح – قد تساعد فى وضع الحلول العلمية والعملية لإنهاء مأساة الشعب الفلسطينى .

ثالثًا : مرحلة وعد بلفور 1917 : وهى المرحلة التى شهدتْ انحياز أكبردولة استعمارية فى ذاك الوقت للحركة الصهيونيـــة ، وذلك لمؤازرة اليهود وتأييدهم فى إقامة وطن لهم فى فلسطين . واذا كانت هذه المرحلة التى تنتهى فى 14 مايو1948 تاريخ إعلان الدولة العبرية ، قد شهدتْ انتفاضات عديدة للشعب الفلسطينى أبرزها تصاعد الصراع ضد المحتل فى الثلاثينيات من القرن العشرين ، فإنّ الباحث عن الحقيقة وحدها لابد أنْ يسأل : لماذا لم يحدث التراكم الكيفى بعد كل التضحيات التى قدّمها الشعب الفلسطينى قبل قرارالتقسيم رقم 181 الصادرعام 1947 والذى مهّد لإعلان الدولة العبرية ؟ وما هى العوامل التى أدّتْ إلى انتصار

العصابات الصهيونية المعتدية على أصحاب الحق التاريخى ؟ والسؤال بصيغة أخرى : لماذا لم يكن التراكم الكيفى للصراع مع أصحاب الحق؟ وهل يكون السبب أنّ تضحيات الشعب الفلسطينى كانت بعيدة عن التعريف العلمى لحرب التحرير الشعبية التى خاضتها شعوب عديدة مثل الشعب الفيتنامى ؟

أعتقد أنّ محاولة الإجابة الجادة سوف تساعد على فصل الأوهام عن الحقائق ، والأساطير عن الواقع . ومن أمثلة الأوهام / الأساطيرالدورالذى لعبه الخطاب الإعلامى الثقافى العروبى الذى ركز خطابه على أنّ الحكومات العربية وشعوبها مسؤولة عن تحرير فلسطين . وقد ترتّب على ذلك – بمفهوم المخالفة كما يقول القانونيون – أنّ مسئولية الشعب الفلسطينى عن تحرير أرضه مسؤولية ثانوية . وهكذا تسبب الخطاب الإعلامى العروبى فى تعميق مأساة الشعب الفلسطينى ، لأنّ خبرة الشعوب التى ناضلتْ من أجل تحرير كامل ترابها ، تؤكد على أنّ الاعتماد على الذات – أولا وقبل كل شىء – هو الأساس فى الانتصار على المحتل . لقد ساعدتْ الشعوب الحرة الشعب الفيتنامى بالمال والسلاح ، ولكن كان الشعب الفيتنامى هو المسؤول الأول والأخيرالذى قاد حرب التحريرالشعبية ، حتى تحقق له النصر على أكبر دولة قادت الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية .

كما اعتمد الخطاب الإعلامى العروبى على الشعارات والخطب ، مثل التركيز على أنّ الفلسطينيين أصحاب حق ، مع التغاضى عن عوامل القوة التى تُدعم هذا الحق . وأهم هذه العوامل وحدة الصف الفلسطينى ، بحيث تكون قيادة حرب التحريرالشعبية ، قيادة واحدة ، وليست أكثرمن 17 فصيل فلسطينى ، كما حدث بعد إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية. وأنْ تكون القيادة سرية وليست علنية ، كما أراد زعماء حماس الذين توهّموا صلاحية الجمع بين الحرب ضد إسرائيل والجلوس على كراسى السلطة ، وجمع الأموال من الاتحاد الأوروبى ومن النظم العربية التى تجمعها من شعوبها. ومنذ بداية المرحلة الرابعة للصراع (مايو1948) حتى الآن ،

يُلاحظ أنه كلما تصاعد الخطاب العروبى الإنشائى ، كلما تفاقمتْ مأساة الشعب الفلسطينى ، فى نفس الوقت الذى تراكمتْ فيه انتصارات الدولة العبرية المعتدية. وهى الانتصارات التى تم تتويجها فى شهر بؤونة / يونيو 1967 بهزيمة أكثر من دولة واحتلال أجزاء من أراضيها فى أقل من ستة أيام . وهى الحرب التى قد يصعب تصديق روايتها بالنسبة لأجيال الألفية الرابعة ، وقد يحسبون روايتها من باب الأساطير أو الغيبيات أو الخرافات .

كما أغفل الإعلام العروبى – عن عمد – أنّ الدولة العبرية التى وصفها هذا الإعلام ب (الدولة المزعومة) احترمتْ العلم وامتلكته منذ اللحظات الأولى لإنشائها . وأنها بعد سنوات قليلة من اعتراف المجتمع الدولى بها امتلكتْ القنبلة النووية ، وأصبحتْ سادس دولة نووية فى العالم سنة 1970 أى بعد 22 سنة من قيامها (د. فوزى حماد- مجلة الهلال- يوليو 2002) كما تعتمد فى دخلها القومى على تصديرالبرمجيات ، بل إنها تبيع طائرات تجسس بدون طيار لدول متقدمة تكنولوجيًّا مثل فرنسا والصين . كما أنّ المقارنة بينها وبين الدول العربية فيما تنفقه من الدخل القومى على البحث العلمى تأتى لصالحها (د. نادرفرجانى- فى دراسة له بعنوان « العرب فى مواجهة إسرائيل- القدرات البشرية والتقانية»- بحث مكتوب على الآلة الكاتبة) كما تتفوق إسرائيل على العرب فى مجال التعليم تفوقًا ساحقًا ، سواء فى نسبة الإنفاق أو فى سنوات الدراسة (د. كمال مغيث- مجلة أحوال مصرية- العدد العاشر- خريف 2000) كما أنّ المستوى المعيشى للمواطن الإسرائيلى أكبر بنسبة 17 % من المستوى المعيشى لبعض الدول العربية المنتجة والمصدرة للبترول . ورغم كل تلك الحقائق يُصرالإعلام العروبى على أنّ إسرائيل دولة هشة يسهل إزالتها من على سطح الكرة الأرضية ، بالتطبيق لمقولة إلقائها فى البحر الشهيرة .

ومن الأوهام أيضًا ذلك القول الملحاح الفج بأنّ إسرائيل هى الولاية رقم

(51) للولايات المتحدة الأمريكية. أى أنّ أنظمة الحكم فى إسرائيل تابعة وعميلة لأمريكا . وهو وهم شبيه بوهم إلقاء إسرائيل فى البحر، ذلك أنّ إسرائيل امتلكت كل مقومات الدولة العصرية المستقلة. ويكفى للتدليل على ذلك أنها تتجسس على أمريكا ، بل إنها أصبحت تؤثر فى صنع القرار الأمريكى . حقًا هناك مصالح مشتركة بين الإمبريالية الأمريكية وإسرائيل ، ولكن يجب النظر إلى هذه المصالح فى إطار علاقة ندية بين دولتين قويتين ، كل منهما لها أهدافها الخاصة ، وليس فى إطار أنّ دولة إمبريالية تفرض شروطها على نظام دولة عميل أو تابع كما تصوّر وروّج الخطاب الإعلامى / الثقافى العروبى .

كعب أخيل فى الدولة العبرية :

رغم أنّ إسرائيل أصبحتْ قوة نووية تستطيع إرهاب كل الدول المحيطة بها ، ورغم أنها أصبحتْ دولة معترفًا بها دوليًا منذ قرارالتقسيم عام 47 وإعلان الدولة فى مايو 48 ، الأمر الذى يصعب تجاهله لوضع نهاية لمأساة الشعب الفلسطينى ، ورغم أنها أصبحتْ دولة متقدمة فى مجالات التعليم والبحث العلمى والتصدير ومستوى المعيشة إلخ ، رغم ذلك فإنّ إسرائيل تعانى من صراع حاد يكاد يقسمها نصفين : صراع يقف فى إحدى جبهتيه الآيات / الحاخامات الذين يتشبثون بالمرجعية الدينية العبرية ، وأنّ بنى إسرائيل هم شعب (يهوه) المختار ويحق لهم إبادة غيرهم من الشعوب ، ولهم حق طرد كل سكان الأرض لإقامة مستوطناتهم . وأنّ كل موضع تدوسه بطون أقدامهم هو حق إلهى لبنى إسرائيل إلخ . وعلى الجبهة الأخرى يقف العلمانيون الإسرائيليون الذين يرفضون المرجعية الدينية العبرية ، ويستهدفون إقامة دولة علمانية ديموقراطية ، يتساوى فيها الجميع وفقًا لحق المواطنة، لاوفقًا للانتماء الدينى . ويرفضون التوسع على حساب أراضى الغير وفقًا لتعاليم الإله العبرى المنحاز لبنى إسرائيل ، وبالتالى فهم مع إقامة الدولة الفلسطينية .

إنّ هذا الصراع تجسّد فى السنوات الماضية فى أكثرمن مشهد : فقد رفضتْ

ألوميت شالومى التى كانت وزيرة التعليم ، الإنفاق على المدارس الدينية ، بل إنها امتلكتْ شجاعة الإعلان (وهى وزيرة مسئولة) بأنّ الجولان أرض سورية. حقًا تصدّتْ لها جبهة الآيات / الحاخامات وأرادوا عزلها من منصبها وخروجها من الوزارة ، ولكن ما حدث هو أنه تم إبعادها عن وزارة التعليم وتعيينها وزيرة للمواصلات . ثم جاء بعدها (يوسى ساريد) وزير التعليم آنذاك ليُكمل مسيرتها . حقًا مازالتْ جبهة الآيات / الحاخامات تهاجمه ، واتكأ الهجوم على مرجعية الديانة العبرية ، وذلك عندما شنّ الزعيم الروحى لحزب شاس الدينى الحاخام (أوفاديا يوسف) هجومًا حادًا ضد وزيرالتعليم (يوسى ساريد) الذى كان يرأس حزب ميرتس اليسارى . وانصبّ هجوم الحاخام على أنّ (يوسى ساريد) مثله مثل (فرعون) الظالم الطاغية وأنه عنصرى . وقال الحاخام أيضًا إنّ فرعون نفسه لم يتخذ إجراءات كتلك التى يريدها (ساريد) الذى يكره التوراة (الأهرام 2000/3/27 ص 4) ورغم ذلك فإنّ (ساريد) وقف بصلابة ووراءه تيار كبير من العلمانيين فى تحدٍ واضح لجبهة الحاخامات .

ومشاهد الصراع بين الآيات / الحاخامات والتيارالعلمانى كثيرة ، مثل الخبرالذى نشرته صحيفة الأهرام نقلا عن وكالات الأنباء حيث جاء به ((تصاعد الجدل الذى يُمزق المجتمع الإسرائيلى منذ أكثر من شهر بشأن الإصلاحات العلمانية واسعة المدى التى طرحها إيهود باراك (رئيس الوزراء آنذاك) بهدف تقليص الهيمنة الدينية للمتطرفين اليهود . وتقليص سلطة الحاخامات على شؤون الحياة اليومية فى إسرائيل . وسيطرتهم على الحياة الخاصة. والزواج والطلاق وتربية الأطفال . وتشير استطلاعات الرأى إلى أنّ المجتمع الإسرائيلى منقسم بين مؤيد ومعارض بشأن الإصلاحات العلمانية التى يريدها باراك . وأنّ تلك الإصلاحات وتعثر عملية السلام يجعلان مستقبل باراك فى مهب الريح . وذكرتْ وكالة أسوشيتدبرس أنّ باراك يعتزم تسيير المواصلات العامة فى عطلة السبت خلال

شهرين ، وحذف الهوية الدينية من البطاقات الشخصية وإلغاء وزارة الأديان ، وكلهـا إصـلاحات تواجه معارضة شديدة من جانب الحاخامات والأحزاب الدينية)) (أهرام 2000/9/19 ص 1) .

إنّ باراك فى هذا المشهد قدّم الدليل العملى على أنه مـع التيـارالعلمانى الـذى يـسعى إلى تأسيس دولة مدنية عصرية بديلة لدولة الحاخامات الدينية التى يحلمون بإقامتها .

ولأنّ الصراع بين التياريْن الدينى والعلمانى صراع متصاعد ، فليس من قبيـل المـصادفة أنْ يتزامن الطرح الجريـىء الـذى عـزم رئـيس الـوزراء (آنـذاك) عـلى عرضـه عـلى الكنيـست يـوم 2000/10/29 فى سبيل تدعيم مقومات الدولة العلمانية ، مع المـشهد التمثـيلى الهمجـى الـذى نفذه الجنرال شارون يوم 2000/9/28 عندما اقتحم المسجد الأقصى وهـو يعـرف جيـدًا رد فعـل العرب والمسلمين نظرًا لقداسته فى معتقداتهم الدينية .

بعد ذلك يأتى المشهد الثالث وهو تراجع بـاراك عـن آرائـه التـى تُـدعم قواعـد علمنـة مؤسسات الدولة ، وذلك بعد تهديد حزب شاس الـدينى بالانـسحاب مـن الائـتلاف الحـاكم . وفى تعليقه على هذا المشهد كتـب أ. بيـومى قنـديل ((يُخطـئ القوميـون الإسرائيليـون خطـأ جسيمًا اذا وقفوا مكتوفى اليديْن أمام صعود الأصوليين اليهـود إلى منزلـة مـن يُقررمـا ينبغـى للدولة العبرانية. أو لزموا الـصمت إزاء مـا يرتكبـه هـؤلاء الأصـوليون ضـد الفلـسطينيين مـن أعمال عنف يندى لها جبـين الإنـسان . فالأصـوليون اليهـود لا يُهـددون بإبـادة الفلـسطينيين لكونهم فلسطينيين ، بل لأنهم مختلفون ، ولسوف يستدير هؤلاء الأصوليون انطلاقًا من نفس الأساس كى يُنزلـوا سـائر الإسرائيليـين الـذين يُخـالفونهم الـرأى أو حتـى الـزى إلى القبـول إمـا بالانصياع أو القتل)) (صحيفة الأخبار2000/11/2) وقد تأكد صدق تحليل المرحـوم أ. بيـومى قنـديل ، إذْ بعـد عـدة أسـابيع مـن نـشرمقاله ، نـشرت صـحيفة الأهـرام الخـبر التـالى :

((... لعلّ الصورة التى نقلتها بعض شبكات التليفزيون العالمية من داخل إحدى المستوطنات الإسرائيلية تُلخص الاتجاه السائد فى غيرها ، فقد وقف المستوطن (شريجرفيشر) وسط أقرانه وقال « إنّ دماء المستوطنين ليست دماء حمراء مثل بقية الإسرائيليين فى تل أبيب ، بل تختلف »)) (أهرام 2000/11/29 نقلا عن أ. عاطف الغمرى ص 10) .

إنّ الصراع بين الجبهتيْن : جبهة الآيات وجبهة العلمانيين ، صراع دراماتيكى . وأنّ الفائز فى نهاية الصراع هو الذى سيُشكل استراتيجية السياسة الإسرائيلية فى المنطقة. فإذا فاز الآيات ومعهم جنرالات العنف والدم والإبادة ، فلابد من تنفيذ مشيئة الإله العبرى القائمة على سلب أراضى الغير والتوسع فى الاستيطان وإبادة السكان الأصليين . ولابد أنْ يُصاحب ذلك الهجوم على الحضارة المصرية. وهوما يفعله الآيات / الحاخامات ، إذْ يُشبّهون أى طاغية فى إسرائيل بأنه مثل (فرعون) مصرالطاغى المستبد إلخ (بالضبط كما يفعل الأصوليون المسلمون فى مصر، ومعهم كثيرون من كتاب الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية ، وكثيرون من الشعراء إلخ) كما أنّ الحاخامات يواصلون مسلسل التزوير، وذلك بإدعاء أنّ بنى إسرائيل هم بناة الأهرام وهم الذين شيّدوا مجمل إنجازات الحضارة المصرية. وقد فعلها مناحم بيجين وأعلنها مرة فى كامب ديفيد ومرة ثانية فى مصرتحت سفح الأهرام عندما قال: ((إننى أشعربالزهو والفخر وأنا جالس وسط الأهرامات التى بناها جدودى)) ووصل التزوير لدرجة أنّ القناة الفضائية الإسرائيلية تضع ثلاثة أهرامات رمزًا لها . هذا بخلاف الأفلام الروائية والتسجيلية والأفلام الموجهة للأطفال .

اليهود فى التراث الإنسانى :

لقد ظللتُ لعدة سنوات أفرق بين اليهودية والصهيونية ، بمراعاة أنّ الأولى دين والثانية مذهب سياسى عنصرى ، ولأنّ الدين يدخل فى إطار حق الاعتقاد ،

فيجب بالتالى احترام معتنقيه . أما الصهيونية ، فلأنها تستهدف الاستيلاء على أوطان الغير، فيجب بالتالى مقاومتها ، إلى أنْ قرأتُ ما كتبه مؤرخون وعلماء أوروبيون (موسويون ومسيحيون) عن اليهود فى الدول الأوروبية . وإجماع هؤلاء المفكرين على كراهية الشعوب الأوروبية لليهود . وبدأ السؤال يكبر فى رأسى : ما هى أسباب كراهية الشعوب الأوروبية لليهود ؟ واكتشفتُ أننى لم أتعمق (أو لم أتوقف) أمام الصورة المزرية لليهود فى كتابات المبدعين ، مثل وليم شكسبير فى مسرحيته الشهيرة (تاجرالبندقية) أو جيمس جويس فى رائعته (عوليس) إضافة إلى العلماء والمؤرخين الذين أكدوا على أنّ الشعوب الأوروبية احتقرتْ اليهود وعاملتهم بقسوة وصلت لدرجة حد الإبادة ، مثلما فعل الرومان فى مذبحة (تيتوس) الشهيرة. ومثلما أجهز عليهم (هارديان) فى مذبحة نهائية ، ومثلما أحرق الصليبيون اليهود فى معبدهم عندما استولوا على القدس عام 1099 م . واذا كانت الأمثلة كثيرة فإنّ السؤال هو : لماذا هذا الموقف من اليهود؟

ذكر العالم ألبرت أينشتاين فى كتابه (حول الصهيونية- خطابات ورسائل) الصادرعام 1931 ((إننا ندين إلى اللاسامية بالمحافظة على وجودنا واستمرارنا)) أما الفيلسوف سارتر فقال فى كتابه (اليهودى واللاسامية- بحث فى علم أسباب الحقد) الصادرعام 1948 ((إنّ العامل الوحيد الجامع بين اليهود هو عداء المجتمعات المحيطة بهم وكراهيتها لهم)) أما المفكر الكبير كارل ماركس فقد لخص (رغم أنه موسوى الديانة) أسباب كراهية الشعوب الحرة لليهود فى سبب رئيسى هو أنّ اليهود رفضوا أنْ يعيشوا فى مجتمعاتهم كمواطنين ، لأنّ تمسك اليهود بالديانة اليهودية تغلّب على ((الجوهرالإنسانى الذى كان ينبغى أنْ يربطه- بوصفه إنسانًا- بسائرالناس)) وانتهى ماركس فى تحليله الأخير إلى أنّ خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحررالاجتماعى اليهودى نفسه ، إنما هو((تحريرالمجتمع من اليهودية)) وأنّ التحرر اليهودى فى معناه الأخير((يقوم فى تحرير الإنسانية من اليهودية)) وفى الفقرة

الأولى من الصفحة الأولى كتب ((المال هو إله إسرائيل المطماع . ويعتقد اليهود أنه لاينبغى معه لأى إله أنْ يعيش . إنّ المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعًا . المتاجرة بالمال ، هذا هو الإله الحقيقى لليهود)) (دار مكتبة الجيل اللبنانية- بدون سنة نشر- ص 3 ، 38 ، 55 ، 63) .

وكتب الفيلسوف الفرنسى فولتير عن التاريخ اليهودى القديم ((فى البداية تتشتتْ قبائل إسرائيل العشر ثم سيقتْ القبيلتان الأخيرتان إلى أسر بابل . هذه إذن النهاية التى آلتْ إليها تلك العجائب المذهلة كلها ، والتى زعموا أنّ (يهوه) صنعها ليهوده . وينظر الحكماء المسيحيون بألم وأسى شديديْن إلى النوائب التى ألمّتْ بآبائهم ، الذين أعدوا لهم طريق الخلاص . أما أتباع مذهب الشك ، فينظرون بفرح خفى إلى إبادة شعب كامل تقريبًا ، هو الشعب الذى يرون أنه حامل لأبشع المعتقدات الخرافية وأدنى أشكال العهر والبغاء وأكثر ضروب السلوك البشرى وحشية ودموية)) (نقلا عن كتاب « التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير» تأليف ليو تاكسل – ترجمة د. حسان ميخائيل إسحاق- طبعة خاصة- ص 462) وكتب سيجموند فرويد (رغم أنه موسوى الديانة) : ((ليس بوسع أى مؤرخ أنْ ينظر إلى القصة التى ترويها التوراة عن موسى والخروج بأكثر من أنها أسطورة دينية ، قلبتْ إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها .. ولكننا لانستطيع أنْ نبقى بغيراكتراث عندما نجد أنفسنا فى تعارض مع البحوث التاريخية اليقظة لعصرنا .. ومن المؤكد أنّ (يهوه) كان إلهًا بركانيًا ، وكما نعرف فإنّ مصر تخلو من البراكين)) وأكد على أنّ اليهود أخذوا عادة ختان الذكور من مصر، ورغم الشواهد التى تؤكد أنها عادة مصرية ، فإنّ اليهود بذلوا ((كافة الجهود الممكنة لفصلها عن مصر. ولا يمكن تفسير الفقرة المحيرة فى سفرالخروج ، المكتوبة بأسلوب غيرمفهوم ، وتقول إنّ اللـه كان غاضبًا على موسى لإهماله الختان ، وأنّ زوجته المديانية أنقذت حياته بإجراء عملية ختان سريعة ، إلاّ أنها تناقض متعمد للحقيقة الكاشفة.. لتوجيه ضربة

حاسمة إلى الأصل المصرى لعادة الختان . وقيل: إنّ (يهوه) طلبها إلى إبراهـام مـن قبـل وأقامها كعلامة على الميثاق المضروب بينه وبين نسل إبراهام ، وهذه- على أى حال- بدعة حمقاء بوجه خاص)) (انظر: كتابه «موسى والتوحيد» ترجمة عبدالمنعم الحفنى- مطبعـة الدارالمـصرية- ط 2 – بدون سنة نشر- ص 84 ، 109 ، 135) .

أما العالم والمفكر الإيطالى جيوردانو برونو الذى أحرقه القساوسة الأتقياء حيًا مـع مطلـع عام 1600 لأنه كان ينادى بأنّ عـلى البـشرية أن تتبنـى ديانـة مـصرالقديمة لأنهـا مؤسـسة عـلى التعددية والتسامح الفلسفى (أنظر : لـويس عـوض فى كتابـه «ثـورة الفكـر- فى عـصر النهـضة الأوروبية»- مركز الأهرام للترجمة والنشر- عام 87 عدة صفحات) هـذا العـالم الكبيـر (برونـو) كتب عن اليهود قائلا إنهم ((بلا شك فضلات الحضارة المصرية. ولايستطيع أى إنـسان أنْ يُقنـع أحدًا بـأنّ المـصريين قـد أخـذوا عـن اليهـود أى مـن مبـادئهم ، سـواء كانـت صـالحة أم لا.. إنّ مصرمبدعة الكتابـة والآداب ، أسـاس كـل تراثنـا وشرائعنـا)) (نقـلا عـن مـارتن برنـال فى كتابـه الموسوعى « أثينة إفريقية سوداء»- مجموعـة مترجمـين- المجلـس الأعـلى للثقافـة- عـام 97 ص 286) .

وكتب العالم (ليوشتراوس) أنّ الفيلسوف الهولنـدى اسـبينوزا (1632- 1677) ابتعـد عـن اليهودية . وأنّ هدفه الأساسى فى دراسته (البحث اللاهوتى الـسياسى) هـو((تحريرالمـسيحية مـن تراثها اليهـودى)) أمـا العـالم (كاسـير) فقـد أكـد عـلى ابتعـاد (اسـبينوزا) عـن التراثـيْن الـدينييْن اليهودى والمسيحى معًـا . وهوالأمرالـذى أغـضب الحاخامـات اليهـود عـلى (اسـبينوزا) فقـرّروا طــرده مــن الطائفــة اليهوديــة ، وبالتــالى انفــصاله عنهــا طــوال حياتــه منــذ أنْ كــان فى الرابعة والعشرين من عمره حتى وفاته. وأنه لم يتراجع عن موقفه ، ولم يحاول فى أى وقـت أنْ يسترضى السلطات الدينية اليهودية. وفى كتابه المهم عـن (اسـبينوزا) كتـب المفكـرالكبيرد. فـؤاد زكريا أنّ (اسبينوزا) رفض بـشدة فكـرة امتيـاز شـعب عـلى بقيـة الـشعوب . وفى هـذا الـسياق

كتب إسبينوزا ((لايوجد على الإطلاق فى الوقت الحالى أى شىء يستطيع به اليهود أنْ يباهوا به غيرهم من الشعوب . أما استمراراليهود كل هذا الوقت بعد تشتتهم وضياع ملكهم ، فليس فيه ما يدعو إلى العجب ، إذْ أنهم قد انفصلوا عن كل أمة إلى حدٍ جلب عليهم كراهية الجميع . وعن التعصب الدينى المؤسس على أحادية الفكر كتب إسبينوزا أنه ((لا الكاثوليكية ولا اليهودية يحق لها أنْ تدّعى احتكارالحقيقة لنفسها . ومن الممكن الإتيان دائمًا ، فى كل حالة تلجأ فيها إحدى العقائد إلى الحجة القائلة بقدرتها على البقاء ، بأمثلة أخرى لعقائد مخالفة لاتقل عنها قدرة على البقاء ، ولكنْ لا هذه ولاتلك يحق – كما قلنا – أنْ تدعى لنفسها احتكارالحقيقة. ولاحظ العالم (لامبرت دى فلتهويزن) فى الرسالة رقم 42 الموجهة إلى إسبينوزا أنّ الأخير ((أنكرفكرة اختيار اليهود أو تفضيلهم على بقية الأمم . وأكد على أنّ ممارسة الفضائل الأخلاقية ، أجدى من ممارسة شعائر العقيدة اليهودية)) وفى نص مهم ذكرإسبينوزا أنّ السعادة الحقيقية لكل إنسان تكون - فقط – من قدرته على فعل الخير، وليس فى مباهاته بأنه هو وحده القادرعلى فعل الخير دون سواه من البشر. إنّ سعادة الإنسان الحقة لاتكون إلاّ فى الحكمة ومعرفة الحقيقة ((وهى لاتكون أبدًا فى شعوره بأنه أحكم من الآخرين . أو بأنّ الآخرين يفتقرون إلى مثل هذه المعرفة ، فمثل هذه الأمور لا تزيد من حكمته ، وعلى ذلك فإنّ كل من يغتبط لأسباب كهذه ، إنما يغتبط لتعاسة الآخرين ، وبذلك يكون خبيثًا وشريرًا)) وكان تعليق د. فؤاد زكريا أنه ((حتى لو كان اليهود ممتازين عن غيرهم بحق ، فإنّ تباهيهم بهذا الامتياز يكفى لجعلهم أشرارًا ، إذْ أنّ المرء يسعد بتمتعه بالخير، لا بإدراكه أنّ الآخرين محرومون منه. هنا نقد أساسى لفكرة (الشعب المختار) مبنى على القول بأنّ الفكرة ذاتها ليست مما تشرف به أية أمة أو يفخر به أى فرد يعرف معنى الأخلاقية ، إذْ أنها تنطوى على مقارنة فيها حط من شأن الآخرين ، وليس الحط من شأن الآخرين من شيم الفضلاء حقًا ، فضلا عما تتضمنه الفكرة من أنانية واضحة تظهرفى الاغتباط

بافتقار الآخرين إلى السعادة التى يتمتع بها هذا الشعب ذاته. والأنانية صفة بعيدة كل البعد عن الفضيلة الحقة. وبعبارة أخرى ففكرة (الشعب المختار) فكرة مناقضة لذاتها ، لأنّ من بلغ أسمى درجات الفضيلة ، لن يجد لذة فى تأكيد تميزه عن الآخرين ، ولأنّ مجرد النظر إلى الآخرين على أى نحو ينطوى على الحط من شأنهم ، معناه أنك لم تعد كامل الفضيلة ولم تعد « مختارًا »)) ومن آراء إسبينوزا المهمة أنّ الدين (أى دين) ينبغى أنْ ينفصل عن مؤسسات الدولة. وأنّ الدولة مبنية على عقد بشرى ، وسلطتها مستمدة من سيادتها ، لا من الأوامر الإلهية. وفى الدولة اليهودية القديمة ، خلط اليهود بين السلطتين الإلهية والزمنية بعد أنْ ولوا موسى على أساس أنه هو المعجزة الإلهية بينهم . واختاروا خلفاءه على أساس هذا التقرب إلى اللـه. وبعد أنْ نقلوا (حقهم) إلى اللـه ، اعتقدوا أنّ دولتهم تنتمى إلى اللـه ، وأنهم هم أنفسهم أبناء اللـه ، ونظروا إلى الأمم الأخرى على أنها عدوة اللـه ، وعاملوها بكراهية شديدة . وكتب د. فؤاد زكريا ((هكذا كان إسبينوزا الذى مرّ بتجربة التربية اليهودية. واستوعب الثقافة اليهودية استيعابًا تامًا حتى طُرد . كان إسبينوزا أقدرالناس على تشخيص العلل الحقيقية فى نفسية اليهود : كراهية الشعوب الأخرى التى غدتْ جزءًا من طبيعتهم . ورفض الاندماج فى أى بلد آخر أو إبداء فروض الولاء له . والخلط بين السلطة الإلهية وسلطة الحكم فى دولتهم القديمة ، وهو خلط لابد أنْ ينعكس أيضًا على دولتهم الحديثة ، ولو صدر مثل هذا الكلام من شخص غير يهودى لأصبح موقعه فى تاريخ الفكراليوم فى قمة (أعداء السامية) وهذا بالفعل ما اتهمتْ به الطائفة اليهودية إسبينوزا فى أثناء حياته ، ولكنه بعد وفاته بقرنين أو ثلاثة ، أصبح فجأة ، فى نظر معظم شراحه اليهود ، مدافعًا عن التراث اليهودى ، ومتعلقًا بالأمة اليهودية . وزُيّف العلم وشُوّهتْ الحقيقة ، لكى يُضم إلى التراث اليهودى مفكر كان عظيمًا بحق ، ولكن أعظم ما فيه كان تحديه لكل تراث سابق عليه)) (د. فؤاد زكريا – كتابه عن اسبينوزا – دار النهضة العربية – القاهرة –

1962- من ص 357- 369- ومن لايستطيع العثور على هـذا الكتـاب ، عليـه أنْ ينظـر الكتيـب الذى صدر كملحق لمجلة (إبداع) العدد 12 – خريف 2009 – تحرير وتقديم الشاعر د. حـسن طلب) .

***

لقد قفزتُ باعتقادى قفزة واسعة ، وانتقلتُ من ضرورة التفرقة بين اليهودية والصهيونية ، إلى عدم الفصل بينهما. وأنّ الثانية ما هى إلاّ تتويج للأولى أو(على نسق الصيغة الماركسية) أنّ الصهيونية أعلى مراحـل اليهوديـة. وأنّ تـشبث اليهـود ب (درع اليهوديـة) كـان مـن الحـتم أنْ يقابله رفض مفهوم (المواطنة) وأنّ رفض اليهود الفرنسيين الانتماء لفرنسا الوطن ، ورفض اليهود الألمان الانتماء لألمانيا الوطن.. إلخ كان سببه تمسك اليهـود بالمرجعيـة الدينيـة ، لتنفيـذ مـشيئة الإله العبرى بضرورة العودة إلى (أرض الميعاد) ومن هنا نشأتْ ظـاهرة (الجيتـو) فى المجتمعـات الأوروبية. وبسبب إصرارهم على فكرة (الجيتوهـات) ورفـضهم الانـدماج والانـتماء (الـوطنى) تجمّعوا ونجحوا (يجب الاعتراف بذلك) فى تكوين أكبر(جيتو) بعد استيلائهم على أرض الـشعب الفلسطينى ، أى أنّ اليهودية تحوّلت من عقيدة دينيـة إلى مـذهب سـياسى ثـم امتزجـا فـصارا كوجهىْ العملة ، لا انفصام ولا انفصال بينهما ، وكان اسـم هـذه العملـة (الـصهيونية) وبالتـالى فإنه لاخلاص للبشرية (ولليهود أيضًا كبشر) من هذه النزعة الـصهيونية ، إلاّ عبرتحريرالإنـسانية من اليهودية ، كما تنبّأ ماركس بحق ، وهو ما يفعله التيارالعلمانى فى إسرائيل .

***

روّج الـبعض لمقولـة أنّ يهـود القـرن العـشرين بعـد المـيلاد ، غـير يهـود القـرن العشرين قبل الميلاد على أساس الصفات التشريحية الجـسمانية ليهـود اليـوم ، أى عـلى أسـاس العامـل الأنثروبولـوجى ، أمثـال د. جـمال حمـدان ، د. عبـدالوهاب المـسيرى (انظركتـاب: «اليهـود أنثروبولوجيًـا » تـأليف الأول وتقـديم الثـانى- كتـاب الهـلال-

فبراير96) إنّ محاولة د. جمال حمدان وغيره ، محاولة مُضللة وعبثية لاطائل من ورائها فى الرد على الأصوليين اليهود المتمسكين بأرض الميعاد ، وأنّ الجهد الضائع فى مسألة الصفات التشريحية ، كان يجب أنْ يتجه إلى التعصب المؤسس على المعتقد العقيدى ومرجعيته الدينية ، وقد تأكد ذلك من الخبر الذى نشرته صحيفة الأهرام عن مراسلها فى باريس أ. أحمد يوسف الذى نقل ما ذكرته مجلة (لونوفيل أوبزرفاتور) أنّ هناك انشقاقًا حادًا بين اليهود فى فرنسا حول القضايا الرئيسية التى تمس وجودهم ومنها تعريف اليهودى نفسه.. من هو؟ وقالت المجلة: إنّ حاخامات فرنسا وكهنتها وعلى رأسهم جان كاهان رئيس المجمع المركزى اليهودى ، يُطالبون اليهود بأنْ يكون ولاؤهم الأول لدينهم وبالتالى لإسرائيل قبل أنْ يكون لوطنهم الذى يعيشون فيه (أهرام 2000/12/12 ص 1 ، ص 4) .

يذهب اعتقادى أنّ خلاص الشعب الفلسطينى والدول المجاورة لإسرائيل ، من الصهيونية المؤمنة بالتوسع والاستيطان ، لن يكون إلاّ بدعم وتأييد التيارات العلمانية فى بلدانها ، ولن يكون إلاّ بالتفوق على إسرائيل فى مجالات البحث العلمى والتعليم والتصدير والمستوى المعيشى وصناعة السلاح ذاتيًا ورفع الوصاية من على الشعب الفلسطينى ، وذلك بدعمه ليخوض حرب السلام بعد أنْ فات وقت حرب التحرير الشعبية على الطريقة الفيتنامية.

وفى كلمة واحدة فإنّ دعم التيارات العلمانية فى إسرائيل وفى الدول المحيطة بها ، هو السبيل الوحيد لهدم المشروع الصهيونى ، وهو المشروع الذى يتبناه الأصوليون اليهود داخل إسرائيل وخارجها . فهل تقبل الدول التى لها مصلحة فى التخلص من المشروع الصهيونى التحدى ، من أجل مستقبل أفضل لسكان المنطقة ؟ أم تظل على سياستها الحالية المتمثلة فى العداء لمبادئ العلمانية. والمتمثلة (كذلك) فى العداء لمعنى الانتماء الوطنى لصالح الانتماء الدينى ، الأمر الذى يؤدى إلى تدعيم الأصولية فى بلدانها وفى إسرائيل ؟ ومع ملاحظة أنّ التصدى للأصولية اليهودية لابد وأنْ

يتـزامن ويـرتبط بالتـصدى للأصـولية فى الـبلاد المحيطـة بإسرائيـل التـى تـساند وتُـدعم هـذه الأصوليات . وتكمن الخطورة فى أنّ الأصوليين فى إسرائيـل وفى الـبلاد المجـاورة لهـا يتـشابهون فى الكثير من المعتقدات والمنطلقات ، لعلّ أخطرها أنْ يكون الولاء للدين وليس للوطن .



الفصل الثاني

نبوءات الليبراليين المصريين

حول المخطط الصهيوني

من المحاور التى تحظى باتفاق أغلب الباحثين فى مشروع النهضة المصرية ، أنّ المثقفين المصريين منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، ساهموا فى وضع أسس الدولة المدنية العصرية الحديثة ، وذلك من خلال دفاعهم عن مبادئ الليبرالية الفكرية. ووضع دستور يُحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين. والدفاع عن الحريات السياسية والفردية. والدفاع عن حرية المرأة كإنسان مشارك فى الحياة الاجتماعية. والدفاع عن التعليم المدنى العصرى المؤمن بالبحث العلمى بلا أية حواجز وبلا أى سقف يحد من انطلاقه. وأنّ (النقد الحر) هو أساس التعليم السليم . ورفض فكرة الخلافة. وإصدار العديد من الصحف والمجلات الثقافية التى أثرتْ الحياة الفكرية .

ولكننى اكتشفتُ من خلال قراءاتى فى صحف ومجلات تلك الفترة ، أنّ المثقفين المصريين لم يكتفوا بإثارة القضايا الفكرية والفلسفية التى تبذر بذور التنوير كأساس من أسس النهضة ، ولم يكتفوا بعرض أحدث النظريات العلمية فى مجال

العلوم الطبيعية (بيولوجيا ، فيزياء ، ميكانيكا الكم إلخ) أوفى مجال العلوم الإنسانية (فلسفية ، نفسية ، اقتصادية إلخ) وإنما كانت لهم فى الكتابات السياسية تحليلات عميقة ، كانت تصل أحيانًا لدرجة التنبؤ بالمستقبل .

فى عدد أمشير/ فبراير1929 من مجلة العصور التى كان يُصدرها المفكرالكبير الأستاذ إسماعيل مظهر، مقال للأستاذ عمرعنايت بعنوان (المدنية اليهودية المستقبلة) فى بداية المقال بدأ برصد ظاهرة سيطرة ((المال اليهودى الآخذ بخناق العالم والمسيّرلأموره ، دون أنْ يبدو لأنظارالعامة ، رغم أنّ الخاصة ترتجف كلما فكرتْ فى تزايد السطوة والجبروت اللذين لابد سيلازمان هذه السيطرة الآخذة فى الزيادة)) ثم أكد على أنّ اليهود هم الذين استفادوا من القلق الاقتصادى الذى نتج عن الحرب العالمية (الأولى) وأنّ الذى ربح الحرب هو نفوذ اليهود دون سواهم واستثمروه خير استثمار)) .

وفى الفقرة التالية يتضح مدى وعيه ومتابعته لأخبار السياسة الدولية ودور اليهود فى صنعها فكتب ((وإنك إذا بحثت كل حركة هدامة أو مجددة فى الوقت الحاضر، تجد أنّ محورها الدعاية اليهودية ، الأمر الذى يمكننا مشاهدته متجليًا فى موقعين : أولا : فى روسيا . وثانيًا : فى فلسطين ، فاليهود يريدون أن يُشيّدوا فى فلسطين نقطة ارتكاز يُوجّهون منها جهودهم حيث شاءوا وحيث يجدون فائدة. إنّ فلسطين ليست غير العش الذى ستولد فيه المدنية اليهودية المستقبلة)) بعد هذا التوصيف لدور اليهود فى صناعة السياسة الدولية فى كل من روسيا وفلسطين ، يُفاجأ القارئ بأول نبوءة من نبوءات أ. عمر عنايت والتى تحققتْ بالفعل ، إذْ كتب ((يشعر الصهيونيون أنهم فى حاجة إلى حماية أقوى دول العصر حتى تثبتْ أقدام مدينتهم الجديدة ، وعندئذ يكون من أيسر الأمور عليهم إزالة تلك الحماية بفضل مالهم ونفوذهم . وبريطانيا نفسها تشعر بنمو الصل اليهودى تدريجيًا بين أحضانها ، وعبثًا تحاول أنْ تُزيل عنها ويلاته المستقبلة ، مع علمها بأنّ إمبراطوريتها ستكون

أول من يتحمل صفعات اليهود المميتة)) .

وهذا ما حدث بحذافيره : اليهود اعتمدوا على بريطانيا العظمى ، وحصلوا منها على وعد باغتصاب أرض الشعب الفلسطينى المستقر، لشعب رفض الاستقرار من خلال منظومة الولاء الوطنى ، المنظومة المتعارف عليها لدى الشعوب المستقرة . أما اليهود فقد فضلوا منظومة الرابطة الدينية. ومنذ وعد بلفورعام 1917 وحتى عام التقسيم 1947 ظلتْ بريطانيا تُساند اليهود الذين أعطوا ظهورهم لها واتخذوا من واشنطن قبلة الولاء الجديدة ، بعد أنْ تأكدتْ حقيقة أنّ الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة العظمى الأولى فى العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ورغم المعونات الضخمة التى حصلتْ عليها إسرائيل من أمريكا تدورالأيام فتتجسس الأولى على الثانية. بل وتتحداها فى الكثيرمن القرارات، وتتعامل معها بندية ، لدرجة بيع تكنولوجيا متقدمة لبعض الدول ، رغم اعتراض الإدارات الأمريكية .

والأستاذ عنايت فى تحليله لمتغيرات السياسة الدولية وتوقعات المستقبل رأى أنّ فلسطين هى مركزالشرق الأدنى فى المستقبل . ومن خلال متابعته لما يُنشر فى الصحف العالمية ذكّر القارئ ببعض المشروعات التى يتم التخطيط لها ومدى تأثيرها على المنطقة العربية فى المستقبل فكتب ((هناك مشروع لمد أنابيب النفط من الموصل- أغنى الأقطار فى النفط – إلى ثغر حيفا الفلسطينى ، وستتصل بغداد بحيفا بالقضبان الحديدية وبالطيارات وبالسيارات ومن يدرى ما يُخبئه الغيب من المخترعات والمكتشفات الغربية)) وبعد الكلمة الأخيرة ، وبدون أية فواصل ، سجّل نبوءته التحذيرية الثانية إذْ نصّ على ((فإنّ فلسطين- ولوأنها لم تصربعد- فستكون يومًا ما- رضى الإنجليز أم غضبوا- ملكًا لبنى إسرائيل . واذا قلنا بنى إسرائيل فنحن نتكلم عن أمة موحدة المرمى ، كثيرة المال ، لها رأس يُفكر. لذلك ستصرعلى أنْ يكون لها الفصل فى الهيمنة على مركز فلسطين الاقتصادى أولا، ثم

سيأتى الوقت الذى يلتفتْ فيه اليهود إلى الهيمنة السياسية والتوسع أيضًا)) وأظن أننى لستُ فى حاجة إلى أى تعليق على هذه النبوءة التحذيرية التى أطلقها أ. عنايت عام 1929، والتى تحققتْ بعد أنْ احتلتْ إسرائيل سيناء لعدة سنوات ، ومازالت تحتل كل الأراضى الفلسطينية وبعض الأراضى الأردنية والجولان السورية .

أما نبوءته الثالثة فهى عن تأثيرالدعاية اليهودية لصالح إسرائيل ، بعد أنْ تكون دولة معترفًا بها دوليًا فكتب ((سنسمع يومًا من الأيام أنّ حيفا هى عروس البحرالمتوسط ، وأنها أكبر محطة للطيران ، يحط فيها كل من يطير من الشرق إلى الغرب وبالعكس)) .

وفى نبوءته الرابعة- وكأنه يمتلك آلة سحرية ، لم يتوصل العلم إليها بعد- مثل بللورات ألف ليلة وليلة- كتب عن مصر ومستقبلها إذا لم تنتبه لخطورة المخطط الصهيونى ، فنصّ على ((يجب أنْ نتطلع إلى ذلك اليوم ، فإنه سيكون الحد الفاصل بين عهدين : عهد مصر الذهبى وعهدها المظلم ، فبعد ذلك اليوم ستكون مصر كمية مهملة وستكون عضوًا أثريًا فى مملكة داود الجديدة)) .

ولأنّ الثقافة المصرية فى تلك المرحلة الليبرالية من تاريخ مصر، كانت مزدهرة وفى حالة نشاط وتفاعل دائميْن ، كتب أ. عبدالحكيم عبدالله الجهنى مقالا فى العدد التالى (برمهات / مارس 1929) بدأه بتحية رئيس التحريرأ. إسماعيل مظهر ؛لأنه نشرمقال أ. عمرعنايت . ورأى أنْ يُضيف بعض المعلومات عن المخطط الصهيونى، ومنها اقتراح مستر(ود جوود) العضو بمجلس العموم البريطانى الذى طلب فيه من مصر((أنْ تنزل لفلسطين عن سيناء)) وأشار إلى أنّ اليهود يُرسلون بعض الأساتذة والأحبار إلى طورسيناء ((ليقوموا بتنقيبات عن التركة الموسوية هناك حيث كان التيه وكان المن والسلوى ، وحيث يُقال : إن بعض المهندسين اليهود تمكنوا خلال الحرب العظمى (الأولى) من استكشاف أنّ الجدب فى سيناء ليس إلاّ أكذوبة قارحة. وأنه توجد تحت الطباق الرملية مجار للمياه ومنابع للخصوبة)) .

بعد ذلك تكلم عن أهمية الموقع الجغرافى لفلسطين ، وعن إمكانية إقامة مشروعات صناعية وزراعية بها . ثم أشار إلى المعلومات التى تتناقلها الصحف العالمية عن خطط اليهود فى المنطقة مثل ((مشروع (روتنبرج) الكهربائى العظيم ومشروع البحر الميت الكيمائى الزاخر، ومشروع ميناء حيفا ، واقتراح بإنشاء قناة جديدة تُقرّبْ قناة السويس بين البحرالأبيض المتوسط وخليج العقبة)) ثم ربط بين الفاشستية والصهيونية ، وإذْ أكد اتفاقه مع أ. عنايت رأى أنّ المخططات الصهيونية والفاشستية تضع ((مصرأمام امتحان دقيق)) .

***

قد ينبهرالبعض بهذا الوعى السياسى الذى تحققت نبوءاته المحذرة والمتشائمة ، وقد يرى آخرون أنّ نبوءة أ. عنايت الرابعة مبالغ فيها وأنّ مصرلايمكن أنْ تكون كمية مهملة فى مملكة داود الجديدة ، ولكننى أرى أنّ هذه النبوءة تحقق منها الكثير وذلك بمراعاة ما يلى :

فى عام 1970 أصبحتْ إسرائيل الدولة النووية السادسة فى العالم (د. فوزى حماد- مجلة الهلال- يوليو2002) أى بعد 22 سنة من الاعتراف الدولى بإنشاء دولة جديدة باسم إسرائيل.

طبقًا لتقرير(العلم فى العالم) الذى تُصدره منظمة اليونسكو، يُعد تمويل البحث العلمى فى الدول العربية من أكثرالمستويات انخفاضًا ، فقد بلغ الانفاق العلمى نسبة إلى الناتج المحلى الاجمالى 14 , . % فى الدول العربية عام 1996 مقابل 53 , 2 % عام 1994 لإسرائيل .

متوسط دخل الفرد فى إسرائيل 17 ألف دولارًا سنويًا يُعادل نظيره فى دولة أوروبية وسطية ، فى حين أنّ متوسط دخل الفرد فى مصر يتراوح بين 500- 700 دولارًا . وورد فى تقرير التنمية البشرية لمصر الصادر عن معهد التخطيط القومى

(المصرى) أنّ 23 % من المصريين يعيشون تحت خط الفقر وأن 25 % فقراء نسبيًا (محمود المراغى – أهرام – 99/9/28 – ص 10) وفى تقريرالتنمية البشرية الصادرعن الأمم المتحدة ، عن عام 2009 والذى يُشارك فيه مصريون وعرب ، ورد فيه أنّ 42 % من المصريين يعيشون تحت خط الفقر، حيث يحصلون على أقل من خمسة جنيهات يوميًا .

شاركتْ إسرائيل فى مشروع الجينوم البشرى وفى نقل الرائحة عن طريق الكمبيوتر ، وزوّدتْ طائرات الحلفاء فى حملة البلقان بأنظمة توجيه كمبيوترية. وتُشارك حاليًا فى شبكة الردع الصاروخى (د. هشام الحديدى- أهرام 2001/6/4 ص 10) فى حين أنّ مصرلاتُنتج ساعة يد ولا موتور موتوسيكل أو حتى موتورغسالة عادية .

فى حديث لوزيرالتعليم (المصرى) د. حسين كامل بهاء الدين قال : إنّ تكلفة إعداد التلميذ بالتعليم الأساسى فى مصر يوازى 170 دولارًا وهذا الرقم فى إسرائيل 3500 دولارًا (نقلا عن د. يحيى الجمل- أهرام 2001/7/16 ص 10) .

فى عام 2000 كان الناتج المحلى الإجمالى للفرد فى إسرائيل يفوق نظيره فى البلاد العربية كلها (د. نادرفرجانى- أهرام 2002/5/19 ص 26) .

ورد فى إعلان المبادئ الصادرعن القمة العالمية لمجتمع المعلومات (جنيف 2003 ، تونس 2005) أنّ الدول العربية (كلها) تُخصص لميزانيات البحث العلمى ما لايزيد عن نصف فى المائة من إجمالى الناتج القومى ، وهى نسبة تكاد تكفى رواتب الموظفين ، بينما تُخصص كوريا الجنوبية 2.5% وإسرائيل 3% والولايات المتحدة الأمريكية 3% من إجمالى الناتج القومى . كما تؤكد الاحصائيات كذلك أنّ الدول العربية تُنتج فى مجال المعرفة ، وإصدارات الكتب – تأليفًا وترجمة – حوالى ستة آلاف عنوان فى السنة ، ويبلغ نصيب العلم فيها أقل من 2% . ولاتزيد إصدارات الترجمة عن 350 عنوانًا فى السنة فى كل الدول العربية (270 مليون

نسمة) بينما تُصدر إسرائيل حوالى 450 عنوانًا مترجمًا فى السنة ، وتُترجم إسبانيا (38 مليون نسمة) أكثرمن عشرة آلاف عنوانًا فى السنة ، مع الاهتمام بالعلم (نقلا عن الأستاذ شوقى جلال فى كتابه «أركيولوجيا العقل العربى – البحث عن الجذور» الصادرعن دار العين للنشر- عام 2009 ص من ص 169- 171) .

واذا كان المثقفون المصريون حذروا فى عام 1929 من مخططات اليهود لإنشاء قناة جديدة تُقرّبْ قناة السويس بين البحرالأبيض المتوسط وخليج العقبة ، فإنّ هذا التحذير لم يتوقف أمامه أحد ، بينما لم تتوقف محاولات إسرائيل المستمرة لتحقيق هذا الحلم ، إذْ ((فى المنتدى الاقتصادى العالمى بالأردن الذى عُقد عام 2003 تكلمتْ وفود الأردن وإسرائيل بالبدء فى تنفيذ مشروع قناة البحريْن الأحمروالميت فيما سُمى خطة تطوير وداى الأردن لحماية بيئة البحرالميت ، علمًا بأنّ المرحلة الثانية من هذا المشروع سوف تصل إلى البحرالمتوسط ، وهكذا جاءت الفكرة الأردنية على طبق من ذهب لإسرائيل ، وقيل وقتها : إن هذا المشروع اذا تم تنفيذه فسوف تخسر مصر ما بين 25- 30 % من دخل قناة السويس ، أى ملياردولارًا .... إلخ)) (الأستاذ سيد على – أهرام 2003/11/25 ص 3) .

فى الوقت الذى غزتْ فيه إسرائيل العالم بمنتجاتها الزراعية والصناعية ، وتُصدّر تكنولوجيا متقدمة لدول أعرق منها ، فإنّ مصر تستورد حوالى 80 % من غذائها ، بل إنّ القمح (وهو سلعة إستراتيجية) فإنّ مصر تستورد أكثرمن 60 % من احتياجاتها منه . وفى عام 2004- وفق تصريح د. حسن خضر وزير التموين آنذاك، فإنّ ما تم استيراده من القمح الأمريكى (فقط) وصل إلى 54 % من حجم احتياجات مصر(أهرام- 2004/4/4 ص 17) .

وسط ذهول العالم المتحضر والشجب العربى الأثير دمّر الطيران الإسرائيلى يوم 81/6/7 المفاعل النووى العراقى .

فى تقرير التنمية البشرية لعام 2003 الصادر عن الأمم المتحدة ، وهو

التقرير الذى يضع ترتيب الدول وفق معايير المستوى المعيشى وحجم الإنفاق على التعليم والبحث العلمى والصحة إلخ كان ترتيب إسرائيل السابع (على مستوى العالم) من حيث الإنفاق العام على الصحة. والمركزالثانى من حجم الإنفاق على التربية. وفى الترتيب العام احتلتْ إسرائيل المرتبة رقم 22 بينما مصر جاء ترتيبها فى المؤخرة مع الدول المتخلفة وقبعتْ عند الرقم 120 (عبدالعاطى حامد – أهرام 2003/7/14 ص 8) .

أثناء التوقيع على معاهدة السلام فى كامب ديفيد قال مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل آنذاك أمام الرئيس السادات ردًا على سؤال من أحد الصحفيين عن سيرالمحادثات ((لقد عانيتُ فى المحادثات كما عانى جدودى فى بناء الأهرامات)) وبعد التوقيع جاء إلى مصر، وتحت أقدام (أبوالهول) قال ((إننى أشعر بالفخروأنا جالس أمام الأهرامات التى بناها جدودى)) ولم يفتح أحد فمه بكلمة على هذا الادعاء الكاذب ، لافى الكامب ولافى مصر، لا من الرئيس (المصرى) ولامن حوارييه ولا من غيرهم .

تضع إسرائيل الأهرام الثلاثة كشعارلإحدى قنواتها الفضائية. وتُنتج العديد من الأفلام التى تُروّج لأكذوبة أنّ بنى إسرائيل هم الذين أسسوا الحضارة المصرية. وفى هذا السياق تُشجّع كل من يكتب ويُروّج لأكاذيب أخرى ، مثل أنّ النبى موسى هو أخناتون ، وأنّ المصرى الكبير(يويا) هو النبى يوسف . وحتى الآلات الموسيقية التى اخترعها جدودنا المصريون القدماء ، فإنّ صحيفة معاريف الإسرائيلية فى ملحقها الفنى كتبتْ أنّ هذه الآلات صناعة يهودية (عبيرالشرقاوى- صحيفة القاهرة 2005/4/19 ص 15) ونتيجة استسلام الثقافة السائدة فى مصر لهذا الهوان ، وصل الأمر لدرجة أنْ تعرض القناة الثانية (المصرية) فى التليفزيون (المصرى) فى برنامج عن الفن ، وتكون المصيبة الكبرى ؛ حيث إن الموسيقى المصاحبة للبرنامج عبارة عن توزيع جديد لنشيد (ها تحياه) وهو النشيد الوطنى

الإسرائيلى (من رسالة المهندس خالد زينهم إلى بريد الأهرام 2003/4/20) .

استعانتْ وزارة الزراعة المصرية (بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد) بخبراء إسرائيليين ، فكانت النتيجة تدمير العديد من المحاصيل الزراعية وتدميرصناعة الدواجن وصناعة النحل .

ولعلها واحدة من سخريات القدر ومآسيه أنْ تفوز ست جامعات إسرائيلية من بين أفضل 500 جامعة على مستوى العالم ، بينما تم استبعاد كل الجامعات المصرية ، مع مراعاة الفارق بين الدولتين ، فى العمر وفى الحضارة .

الحقائق المذكورة بعاليه هى مجرد أمثلة على صعود بنى إسرائيل المعاصرين ، وهو صعود يعكس أو يُترجم مشهد التردى المصرى (والعربى) لذلك يذهب ظنى إلى أنّ أ. عنايت لم يكن مبالغًا عندما تنبّأ عام 1929 بأنّ مصر((ستكون كمية مهملة وعضوًا أثريًا فى مملكة داود الجديدة)) ولم يكن مغاليًا عندما حذر من أنّ فلسطين ستكون ((ملكًا لبنى إسرائيل)) ومع ذلك فهو يختم نبوءاته برسم صورة للمقاومة تتمثل فى ((أنْ نقف وجهًا لوجه مع اليهود . نكون أمة يُخشى جانبها ولو جزئيًا . أما اذا اضطرتنا الظروف إلى الاندماج فى النهضة (السامية) فنكون قد قمنا بقسط غير صغير فى تشييد المدنية المقبلة. العلم والثروة هما السلاحان الواجب التسلح بهما لمواجهة المستقبل . فهل نحن فاعلون ؟)) .

واذا كانتْ الثروة متوفرة ، فما هى أسباب عدم استخدامها لإقامة قاعدة علمية تكون هى الأساس للتنمية ولمواكبة احتياجات العصر؟ ولماذا لا نتعلم من تجارب الشعوب المتحضرة مثل الشعب الصينى والشعب الهندى إلخ ؟ وهل السبب أنّ هذه الشعوب (قبل امتلاك الثروة والموارد الطبيعية) تؤمن بأنّ الاعتزاز بالذات القومية هو بداية التقدم ومجابهة كل الصعوبات ، بينما افتقدنا نحن المصريين هذا الإيمان بذواتنا ؟ أسئلة تتطلب شجاعة نقد الذات إذا أردنا ((التسلح لمواجهة المستقبل)) فهل نحن فاعلون ، كما قال عمر عنايت عام 1929 ؟

الفصل الثالث
أخطر شرخ في
جدار المجتمع الإسرائيلي

من الكتب المهمة التى تعرّضتْ للتيارات الدينية داخل المجتمع الإسرائيلى ، كتاب د. رشاد عبدالله الشامى (القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة) الصادرعن سلسلة عالم المعرفة الكويتية- يونيو1994) واذا كان من الشائع أنّ الحركة الصهيونية التى تزعمّتْ وخططتْ لتجميع يهود العالم فى (مكان ما) يكون بمثابة وطن لهم ، بدأتْ على يد هرتسل(1860- 1904) وبصفة خاصة عند محطة المؤتمر الصهيونى الأول عام 1897 ، فإنّ المؤلف يؤكد على أنّ التفكيرفى الاستيلاء على أرض الشعب الفلسطينى بدأ قبل ذلك بأكثر من 500 سنة إذْ عندما زار الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون القدس عام 1327 ((وجد بها يهوديّيْن اثنيْن فقط ، فقرّر آنذاك الدعوة للاستيطان اليهودى فى فلسطين)) (ص 95) ومن بين الصهيونيين الذين كانوا يأملون فى إعادة بناء طائفة يهودية فى فلسطين الحاخام عقيبا يوسف من مدينة براسبرج ، الذى هاجر إلى فلسطين عام 1870 من أجل أنْ يُقيم فيها طائفة يهودية (ص 27) وفى عام 1904 هاجر الحاخام إفراهام يتسمان إلى فلسطين وأصبح حاخامًا لمدينة يافا (ص 333) .

وعن تأثير المرجعية العبرية فإنّ حزب (مفدال) الدينى عارض فى برنامجه الانتخابى أى مشروع ((يتضمن تنازلا عن أجزاء من أرض إسرائيل التاريخية ، أرض جدودنا)) (ص 109) ومحاورهذا الحزب السياسية والدينية تتضمن أنْ ((لاتقوم بين البحر ونهر الأردن إلاّ دولة واحدة هى دولة إسرائيل ، أى رفض إقامة دولة فلسطينية. وأنّ القدس هى من الآن وستبقى إلى الأبد عاصمة لدولة إسرائيل ، واستمرار حركة الاستيطان فى كل أجزاء أرض فلسطين بما فى ذلك الضفة الغربية (يهودا والسامرة) وقطاع غزة ، وأنّ هضبة الجولان جزء من دولة إسرائيل ، غير قابل للسلخ عنها . وشجبْ الحكم الذاتى الفلسطينى واعتباره خطرًا على إسرائيل ، لأنه يمكن أنْ يؤدى إلى نشوء دولة فلسطينية)) (ص 112 ، 113) ولذلك فإنّ حزب المفدال الدينى يُعارض بشدة حزب العمل ؛ لأنه انحرف يسارًا فى مجال الدين والدولة. وعقد حلفًا مع الاصلاحيين ، ويقف متساهلا من قضايا الاستيطان فى الأراضى المحتلة)) (ص 229 ، 230) .

ومن الأمثلة العديدة التى ذكرها المؤلف عن تيارات الصهيونية الدينية القائمة على التوسع الاستيطانى ، موقف الحاخام (صموئيل حاييم لانداو) الذى كتب العديد من المقالات هاجم فيها موقف اليهود الأرثوذكس السلبى من الصهيونية. وأكد على أهمية الاستيطان فى أرض إسرائيل ، لأنّ الإقامة فى الأرض المقدسة هى أحد الأوامرالدينية ، وأنّ ((القبس الإلهى لا يؤثر فى الشعب اليهودى إلاّ وهو فى أرضه. وعليه لايمكن اعتبار إسرائيل أمة حية وهى تعيش فى المنفى)) ورفع شعار(التوراة والعمل) وأكد أنه لايمكن أنّ تولد التوراة من جديد دون العمل ، وكذلك لايمكن أنْ يولد العمل كقوة مبدعة فى بناء الأمة من جديد دون التوراة التى هى جوهرالانبعاث)) أما الحاخام (مائيربرإيلان) فيرى أنّ الشعب والدين اليهودى يختلفان كل الاختلاف عما عداهما من الشعوب والديانات ، فالثورة والتقاليد الدينية ليست من صنع الإنسان ، بل هى قوانين إلهية. وكما يهتم الدين

اليهودى بشؤون العبادة ، فإنه يُنظم شؤون الدولة. فليس هناك فى اليهودية فصل بين الدين والدولة. واليهودية تحتوى على كل الشرائع المطلوبة لتسيير شؤون الدولة (ص 91 ، 92) .

وكتب المؤلف أنّ الصهيونية الدينية استغلتْ مقولتيْن أساسيتيْن يؤمن بهما عامة اليهود ، وهما الشعب المختار ، وأرض الميعاد . وأنّ الحاخام موشيه بن نحمان (1194- 1270) فى تفسيره للتوراة أضفى طابعًا من القداسة على أرض فلسطين، فاعتبر أنها (مركزالعالم) وأنّ أورشليم هى مركز(أرض إسرائيل) وأنّ هذه الأرض هى المكان المناسب والوحيد لتأدية الوصايا الدينية المنصوص عليها فى التوراة. ووصل تأثير رجال الدين على عقول اليهود فى أوروبا لدرجة أنْ ((أصبح رفض أحد الزوجين الذهاب إلى أرض إسرائيل والعيش فيها مبررًا كافيًا- حسب الشريعة- للزوج لطلب الطلاق 0 وأنّ مثل هذه الاجتهادات كانت من الأسباب التى دفعتْ بعض اليهود للهجرة إلى فلسطين)) (ص 85 ، 86) 0

وهؤلاء الصهيونيون هاجموا هرتسل وأمثاله من دعاة الصهيونية السياسية ، لأنهم نادوا بأنّ الوطن المنشود لليهود لابد أنْ يُقام على أسس علمانية. وبالتالى فإنهم لم يغفروا لهرتسل أنه ((عندما زارالقدس انتهك العديد من الشعائرالدينية اليهودية، ليؤكد تمييز نظرته اللادينية عن العقيدة الدينية0 ولذلك يقول هرتسل فى كتابه (الدولة اليهودية) الصادرعام 1896 ((سوف يقوم حاخامونا الذين نتوجه إليهم بنداء خاص بتكريس جهودهم وطاقاتهم لخدمة فكرتنا. وسوف يغرسونها فى نفوس الرعية اليهودية عن طريق الوعظ والارشاد من فوق منابرالصلاة)) ورغم ذلك فإنه يؤكد على ((لن نسمح بظهور أية نزعات ثيوقراطية (= دولة دينية) لدى سلطاتنا الروحية. وسوف نعمل على إبقاء هذه السلطات داخل الكنيسة والمعبد . فالمتسلطون الدينيون اذا حاولوا التدخل فى شؤون الدولة سوف يلقون مقاومة عنيدة وشديدة من جانبنا)) أما الكاتب الألمانى ماكس نورداو(1849- 1923)

الزعيم الصهيونى وصديق هرتسل المقرب فكان مؤمنًا بأنّ التوراة ((تُعتبر كعمل أدبى أقل من أعمال هوميروس والكلاسيكيات الأوروبية وبأنها طفولية كفلسفة ومقززة كنظام أخلاقى)) (من 19- 30) .

وقد يتساءل البعض عن هذا التناقض الظاهرى بين دعاة الصهيونية السياسية ودعاة الصهيونية الدينية. وعن تفسير هذا التناقض ذكر د. رشاد ((إنّ القارئ لفكرهرتسل ودعاة الصهيونية الآخرين ، يصطدم بين الحين والآخر بعبارات تنضح بالعواطف الدينية ، وتؤكد على الإيمان بطريق الآباء والأجداد والحنين إلى أرض التوراة. كما تكثر فى خطب هؤلاء الاقتباسات التلمودية ، مما يوحى ببعض التناقض واللبس مع ما تبين لنا من علمانية هؤلاء القوم دعاة الصهيونية. فإذا علمنا أنّ هذه الاقتباسات والتصريحات الرنانة كانت من أساليب دعاة الصهيونية التى تطلّعتْ إلى الاستثمارالأقصى للدين ، واستغلال القيمة الدعائية ، والرصيد العاطفى الذى تمتلكه العقائد الدينية عادة ، فى سبيل أهداف الصهيونية ، زال اللبس واختفى التناقض)) (ص 29) .

وفى هذا الاتجاه كتب المفكر الصهيونى يعقوب سيركن أنّ ((إنكارالتعاليم اليهودية لايضع الفرد خارج الجماعة. كما أنّ قبولها لايجعل الشخص يهوديًا . باختصار ليس من الضرورى أنْ يؤمن الفرد بالدين اليهودى أو بالنظرية الروحية العامة لليهود كى يُصبح جزءًا من الأمة)) وعلّق المؤلف قائلا ((ومعنى هذا أنّ الصهيونية العلمانية نظرت إلى اليهودية باعتبارها (فولكلور الشعب اليهودى) المقدس الذى لايمكن أنْ تخضع قيمه لأى نقاش أوتساؤل . ففكرة العهد بين الله والشعب الذى منح الخالق بمقتضاه الشعب (أرض فلسطين المقدسة) كانت بمثابة الأسطورة الشعبية ل (بن جوريون) ولكنه مع هذا استخلص منها برنامجًا سياسيًا . وقرّر حدود دولته مسترشدًا بمفاهيم العهد القديم التى لا يؤمن بها هو نفسه. ولكنه كان يتقبّلها (كأساطير شعبية يهودية) إنّ بن جوريون لم يكن يهمه إنْ كانت

واقعة (الوعد الإلهى) حقيقة أم لا، بل المهم أنْ تكون هذه الأسطورة مغروسة فى الوجدان اليهودى . ولذلك يجب أنْ تكون سارية المفعول ، حتى بعد أنْ ثبت أنّ الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية ، ليس لها أى مصدر إلهى. وهكذا ارتكزتْ هذه الرؤية على أنّ الدين اليهودى هو التعبيرعن الإجماع ولذلك فإنها لاترى ضرورة لإثارة ما إذا كانت التوراة من أصل سماوى أو أرضى ، مادامتْ تُعبرعن هذا الاجماع الذى يجب أنْ يبقى سارى المفعول)) (33، 34) وعندما سئل بن جوريون عما اذا كان يؤمن باللـه أجاب ((السؤال هو: من اللـه ؟ إنّ معظم اليهود يتصوّرونه رجلا عجوزًا ذا لحية طويلة. يجلس على مقعد وثير. ويعتقدون أنه تحدّث إلى موسى . لقد سمع موسى صوت إنسان فى قلبه. وبذلك عرف أنّ عليه أنْ يفعل مايفعل . بيد أننى أومن بوجود قوى مادية فحسب فى العالم)).

وعلّق د. رشاد قائلا ((بالرغم من هذه النظرة السلبية إلى الدين ، كان بن جوريون يُدرك أهمية استغلال الدين فى سبيل تدعيم الفكرة الصهيونية ، واجتذاب المهاجرين إلى فلسطين ، فأعلن ذات مرة « إنّ خلود إسرائيل يتميز باثنتين : دولة إسرائيل والتوراة» وفى مناسبة أخرى قال « على دولة إسرائيل أنْ تعتمد على نفسها وعلى إلهنا الذى فى السماوات» ولذلك فإنّ بن جوريون أخذ فى الحسبان الاعتبارات السياسية والحزبية ومسؤولية الدولة ونحى آراءه الشخصية جانبًا عندما بدأ فى وضع أسس التعايش بين المتدينين والعلمانيين . لقد كان بن جوريون يتطلع إلى بناء دولة عصرية ، حتى لو خالف كل ما ورد فى التوراة. وكان يؤمن بأنّ العمل الصهيونى هو الكفيل ببناء الدولة والمحافظة عليها وليست الغيبيات ، لأنه كان يعتقد أنّ الغيبيات انتهى دورها فى حياة اليهود منذ قيام الدولة)) وكتب بن جوريون بعد قيام الدولة ((على اليهودى من الآن فصاعدًا ألاّ ينتظر التدخل الإلهى لتحديد مصيره ، بل عليه أنْ يلجأ إلى الوسائل الطبيعية العادية مثل الفانتوم والنابالم)) وقال أيضًا ((إنّ الجيش الإسرائيلى هو خير تفسير للتوراة)) وكان يرى

أنّ للدين وظيفة عليه القيام بها وكفى . وهو ما عبّر عنه عندما قال ((إنّ الدين هو وسيلة مواصلات فقط ، ولذلك يجب أنْ نبقى فيها بعض الوقت لا كل الوقت)) ولم يكن يرتاح للمتدينين لذلك قال : ((إنّ حياة اليهود لوتُركتْ للحاخامات لظلوا حتى الآن كلابًا ضالة فى كل مكان ، يضربهم الناس بالأقدام . ويحتمى اليهود من أقدام الأغلبية الساحقة لهم فى كل مكان بأحلام العودة إلى أرض الميعاد والأجداد وانتظارالمسيح الذى سيهبط عليهم من السماء ليُنقذهم ويقوم لهم بكل العمل ، بينما هم يُصلون الفجر والعشاء ويبكون ليلا ونهارًا)) (ص53 ، 54) .

وقبل إعلان دولة إسرائيل بثلاثة أيام فى 12 مايو 1948 ثارتْ مناقشات حول صياغة مسودة إعلان قيام الدولة. حيث طلب بعض الحاخامات أنْ يتضمن النص فقرة توضح ((أننا حصلنا على الاستقلال بمساعدة الرب وبقوته الكبرى . وأنْ يتضمن النص الأخيراسم الرب والتأكيد على أنّ ((أرض إسرائيل خاصة بالشعب اليهودى بمقتضى الدين اليهودى ووعد الرب لإبراهيم أبينا)) هذه المطالب تلقتْ معارضة عنيفة من بعض الأعضاء. أما بن جوريون فقد اختتم المناقشة بقوله ((يبدو لى أنّ كل واحد ونحن جميعًا نؤمن كل حسب طريقته وحسب فهمه. إنّ اليهودية فيها إفعل هذا ولاتفعل هذا0 أما كيف نؤمن فهذا لسنا مأمورين به)) (ص 47 ، 48) .

فى مقابل التيارات الدينية التى تؤيد الاستيطان الإسرائيلى وترفض أى حق للشعب الفلسطينى فى أرضه ، هناك تيارات دينية أخرى تخالف الأولى ، بل وترفض الصهيونية السياسية ، لدرجة الهجوم العنيف على مؤسسها (هرتسل) وأنصاره (ص23) وفى الباب الثالث ركزد. رشاد على الأحزاب الدينية المسيحانية المعارضة لدولة إسرائيل . وهذه الأحزاب تنتمى إلى اليهودية الأرثوذكسية المتشددة0 وهم يؤمنون أنّ الخلاص المسيحانى لايمكن أنْ يتم بوسائل بشرية ، سواء كانت هذه الوسائل المال أو السلاح . وأنّ الذين يُسمون أنفسهم بالصهيونيين

ومساعيهم الرامية إلى تأسيس دولة قومية يهودية فى فلسطين ، تتنافى مع العقائد المتعلقة بانتظار مجيء المسيح فى اليهودية. وأنّ بناء مملكة إسرائيل لابد أنْ يتم على يد المسيح المنتظر، لدرجة أنْ يكتب أحد الحاخامات رسالة لصديق له عام 1898 تضمّنتْ هجومًا حادًا على هرتسل وصفه فيها بأنه قادم من ((الجانب الملوث)) وأعلن المجلس الأمريكى لليهودية- وهو تنظيم مناوئ للصهيونية- ((إننا نعترض على إقامة دولة يهودية فى فلسطين أو فى أى مكان آخر، فتلك فلسفة انهزامية. لاتُقدّم حلا عمليًا للمشكلة اليهودية)) كما أنّ الأجيال المتتابعة من هذا التيارالدينى الرافض للصهيونية السياسية ، كانت ترى أنّ ((تحقيق هدف العودة سيكون على يد (يهوه القدير) نفسه الذى سيرسل المسيح المخلص للقيام بهذا العمل ، وليس ذلك من عمل شعب اللـه المختار كما نادتْ الصهيونية)) ويرى أعضاء (أجودات يسرائيل) أنّ الجهود لإقامة دولة يهودية فى فلسطين هى اعتداء على سلطة المسيح واستعجال للنهاية غير مرغوب فيه)) بل إنّ حركة (نطورى كارتا) رفضت الاعتراف بالصهيونية وبدولة إسرائيل حتى اليوم ، وذلك لأنّ هذه الدولة قامت على يد نفر من الكفرة الذين حرّفوا مشيئة اللـه بعملهم وتطاولوا على الرب بدلا من انتظارالمسيح الموعود وتدخل الرب بصورة إعجازية ، فالمسيح المنتظرهو وحده القادر على إقامة الدولة ، حيث تكون مملكة الكهنة والقديسين)) ولذلك فإنّ غالبية هذا التيار لا يخدمون فى الجيش الإسرائيلى ولديهم شبكة تعليم خاصة بهم ويقيمون فى أحياء منفصلة عن الجمهورالعلمانى ، بل إنّ أحداث النازية ((وفقًا لهذا المنظور بمثابة عقاب من الرب وقصاص من أولئك الذين انتهكوا وصايا التوراة وأوامرها وسعوا للتشبه بالأمم والانصهار بها أولا ثم بالتصميم على إنشاء دولة يهودية على غرار الدول الأخرى ثانيًا)) .

وبعد حرب يونيو67 طرأ تحول على مواقف معظم الأحزاب الدينية الصهيونية وغير الصهيونية ، حيث اعتبرتْ هذه الحرب معجزة وإشارة ربانية

لبداية الخلاص المسيحانى ، ورغم ذلك انطلق صوت أحد الحاخامات ليؤكد أنّ ((دولة إسرائيل ككيان صهيونى هى تعبير عن الكفر والتمرد على إرادة الله ، ولذلك فهى ليست تعبيرًا عن الخلاص . ولكن من ناحية أخرى فإنّ أرض إسرائيل تحت السيادة اليهودية تنطوى على مغازٍ دينية ذات أهمية ، ولذلك تدعو حركة (حَبَدْ) إلى عدم التنازل عن أى من الأراضى التى احتلتْ عام 67 وذلك من منطلق أحكام الشريعة الدينية. وفى المقابل فإنّ إحدى الجماعات الدينية عارضتْ هذا التفسير (الحبدى) وتساءل حاخامها ((كيف يقف الرب بجوار دولة كافرة وملحدة لتنتصر فى الحرب ؟)) ورفض كل التفسيرات الإعجازية والربانية لانتصار إسرائيل (من ص 125-134) .

ويصل التناقض داخل التيارات الدينية لدرجة أنّ زعيم حركة (حبد) الحاخام مناحم شنيورسون الذى يعيش فى بروكلين بنيويورك ((لم يقم بأية زيارة لإسرائيل ولم تطأ قدماه أرضها ، ورفض بشدة الهجرة لإسرائيل رغم اعتقاده أنّ ((التوراة سبقتْ العالم)) كما ركز فى تعليماته على ((حب أرض إسرائيل)) ويرى أنه من دون هذا الحب لايمكن على الإطلاق فهم وتطبيق التوراة وإقامة الفرائض . ويرى معارضوه أنّ امتناعه عن الهجرة يعود إلى عدائه للصهيونية ومعارضته لوجود دولة يهودية قبل مجيىء المسيح وإنكاره أنْ تكون دولة إسرائيل ممثلة ليهود العالم . وأنّ حبه ل (أرض إسرائيل) لايعنى اعترافه بدولة لإسرائيل التى تخالف أغلب نشاطاتها أحكام الشريعة. وهذا الحاخام كأى أصولى فى أى دين ((يسعى دائمًا للتوفيق بين التوراة والعلم . ويؤكد على غياب أى تناقض بينهما ، لأنّ الله خلق العالم حسب التوراة)) وكأى أصولى فى أى دين أيضًا ، عارض الإجهاض وتشريح جثث الموتى . كما انطلق من نظرة عنصرية فى تفريقه بين اليهود وغيرهم من الشعوب فكتب ((إنّ الفرق بين اليهودى وغير اليهودى هو من النوع الذى ينطبق عليه التعبير السائد (لاوجه للتشبيه) إذْ كيف يمكن البحث عن فرق بين شيئين من

مستويين مختلفين كليًا . ففى حين يجلس اليهودى فى المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى ، تقبع بقية الأمم فى الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف . وهكذا ترى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما ، فإنّ الجسد اليهودى يختلف كليًا عن أجساد بقية الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم . وأنّ التشابه فى الأجساد فى المظهر الخارجى فقط ، إذْ أنّ أصل أرواح شعوب العالم هو من طبقات النجاسة الثلاث ، بينما أصل أرواح بنى إسرائيل هو من الروح القدس)) .

وكتب د. رشاد أنّ هذا الحاخام رغم رفضه الهجرة لإسرائيل فإنه يُعتبر من الصقور السياسية ، إذْ يعتقد أنه بالنسبة للأراضى المحتلة لابد من استيطانها دون أنْ تؤخذ فى الحسبان ردود فعل العرب أو غضب الولايات المتحدة الأمريكية . ومن رأيه أنّ على إسرائيل أنْ تُبدى موقفًا صلبًا غير متساهل فى علاقتها بالولايات المتحدة)) وبعد حرب 67 أعلن هذا الحاخام ((أنّ على إسرائيل ألاّ تُعيد بوصة واحدة من هذه الأراضى . ويعتب على المسؤولين فى إسرائيل أنهم لم يستثمروا حرب يونيو بصورة أفضل ، إذْ كان يجب عليهم الشروع فورًا بعملية استيطان واسعة فى هذه الأراضى الجديدة . وأنْ يغزو أرَاضٍ عربية جديدة واحتلالها ((لأنها ضرورية للمفاوضات المستقبلية ولأمن الدولة)) وقد تنبّأ هذا الحاخام بحرب 73 إلاّ أنّ تحذيراته لم تؤخذ على محمل الجد فى إسرائيل . وذكر يوسى ساريد العضو اليسارى فى الكنيست إثر تدخل هذا الحاخام لإسقاط الائتلاف برئاسة حزب العمل سنة 88 ، أنه من الجنون أنْ يتحكم هذا الحاخام فى مصيرالحكومات فى إسرائيل من خلال سيطرته على طائفته)) وهذا الحاخام يُعارض منح حكم ذاتى للفلسطينيين بشدة وقال : ((إنّ مجرد التحدث عما يتصل بالحكم الذاتى فيه تدنيس للرب وتدنيس للمقدسات)) وردّد المقربون منه أنّ ((شامير لم ير بعد نهاية المعركة التى ستدار ضده بوحى من هذا الحاخام اذا ما استمر فى المضى قدمًا فى مشروع

الحكم الذاتى)) ويُكثر هذا الحاخام من الاقتباس من التلمود ويقول ((سوف تمتد أرض إسرائيل إلى كل بلاد العالم)) .

ركزمؤلف الكتاب د. رشاد الشامى على هذه الشخصية بمراعاة تـأثيره فى اليهـود ، لـيس داخل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل فقط ، وإنما لأنّ هـذا التأثيروصـل إلى كـل المنـاطق التى يوجد فيها اليهود فى العالم ، بل إنّ الزعماء السياسيين والكتاب اليهود من إسرائيـل والعـالم يحجون إليه. ويُحيط به خمسة وعشرون ألفًا من أتباعـه بـصورة دائمـة. ويفـرض عليـه تزعمـه لهذه الحركة اتخاذ مئات القرارات المهمة أسبوعيًا وتنظيم ميزانيات المؤسسات المختلفة التابعة للحركة والتى تُقدر بمئات ملايين الدولارات . ويقوم أتباعه بطباعة تصريحاته وخطبه وتوزيعها فى نشرات وكتب بعد ترجمتها للغات عديدة . وفى المعبد القائم بجوار غرفته فى بـروكلين يعقـد جلسات تعارف ويسمع صوته آلاف فى الغرف المجاورة بواسطة أجهزة تكبير. وتـصل أقوالـه إلى عـشرات الآلاف الآخـرين فى صـورة أفـلام مـصورة . ولـذلك فإنـه يحظـا بمكانـة رفيعـة بـين الجمهورالمتدين فى إسرائيل . وله كذلك تأثير ملموس على شخصيات من الصف الأول فى إسرائيـل ، حيث يُقيم اتصالات عـن طريـق المراسـلات مـع الـوزراء وكبـارالموظفين ، وبعـضهم يستـشيرونه فى موضوعات شخصية تمامًا كما يستشيرونه فى القـضايا العامـة. بـل إنّ شخـصية مثـل شـمعون بـيرس وشخصيات عسكرية مثل إريك شارون وأهارون ياريف وزعيم الليكود السابق مناحم بيجـين كـانوا معتادين على أنْ يؤموا بلاطه ويمتثلون أمامه)) .

وترجع أهمية التناول العميق لهذه الشخصية مـن جانـب مؤلـف الكتـاب د. رشاد الشامى ، أنه رغم هذه المكانة الأسطورية لهـذا الحاخـام ، فـإنّ دعوتـه لاقـتْ معارضة شديدة ، خاصة عندما أعلن أنـه (المـسيح المنتظـر) وأنّ هـذه المعارضـة لم تأت من العلمانيين فقط ، بل كذلك من بعض الأوسـاط الدينيـة الـذين انفجـروا فى الضحك وقالوا : لقد أصبح هذا الحاخام مهوسًا وأنّ لديه خيالا خصبًا ، فهـو مقتنـع

بأنه المسيح . وزادتْ السخرية منه عندما صرّح بأنه يئس من محاولاته لاستقدام المسيح. وأنه قام بما يجب عليه عمله. ولذلك فإنه هو الأنسب ليكون المسيح المنتظر. وعندما سُئل البرفيسور يـشعيا هوليفو عن رأيه فى هذا الحاخام قال إنه : ((إما مريض نفسيًّا أو محتال . فهو يزرع آمـالا كاذبـة فى قلوب الجماهير، لأنّ الإيمان بأيام المسيح كان يؤدى دائمًا للإبادة . وكل مـسيح هـو مـسيح كـاذب)) (من ص 270- 290) .

أما الحاخام (من سامطر) فقد نشر كتابًا عن المغزى الدينى والروحى لحـرب 67 . وكـان نصب عينيه مشكلة أنّ الإحساس العام الذى ساد بـين الـدينيين وكـذلك بعـض غيرالـدينيين ، أنّ الانتصار ينطوى على معجزة . وأنّ هذا الإحساس سوف يتسلل إلى معسكره . وقال : إنه اذا كان فى الانتصار معجزة دينية ، فإنّ الاستنتاج الذى يُـستخلص هـو أنّ الـصهيونيين الـذين لا يُحـافظ معظمهم على الشرائع ، وهم جميعًا فى نظره (مخربو شعب إسرائيل) قد جـاءهم الخـلاص مـن السماء . ومعنى هذا هو أنهم صادقون ودولتهم ليست دولة كفار. وعن موقـف هـذا الحاخـام وحزبه الرافض لدولة إسرائيل ذات الطابع العلمانى ، كتب المؤلف عنه أنه يرفض فكرة أنّ حرب 67 وكل ما ترتب عليها ، إنما هو تعبيرعن مساعدة الرب لشعب إسرائيل ، لأنّ هذا الشعب مـن المارقين عن الدين ولايستحقون معجزة إلهية من الرب لمساعدتهم)) ويتفق أتباع حركة (نطورى كارتا) على معاداة الحركة الصهيونية والانعزال عن دولة إسرائيل ، لأنها قامتْ على يد نفـر مـن الكفار الذين تحدوا مشيئة اللـه وإرادته بإعلان إقامة دولة إسرائيـل بـدلا مـن انتظـار المـسيح المنتظر المخوّل وحده بإقامة مملكة إسرائيل (من ص 313 – 317) .

ومن الأمور التى يتوقف الباحث أمامها أنّ هذه الحركة أدانتْ غـزو إسرائيـل للبنان عام 1982 . كما أنه بعد أنْ صدرتْ قرارات المجلس الوطنى الفلسطينى عـام 88 والتى أعلنت قيادة فلسطينية فى الضفة والقطاع ، والاعـتراف بإسرائيـل عمليًـا ، فإنّ جماعة (نطورى كارتا) أيّدتْ الإعلان عـن قيـام الدولـة الفلـسطينية. وفى نفـس

الوقت احتجتْ على اعتراف منظمة التحريرالفلسطينية بإسرائيل . واذا كانت الغالبية العظمى من الأحزاب الإسرائيلية تعتبر الكفاح الفلسطينى المسلح إرهابًا ، فإنّ (نطورى كارتا) ترى أنّ هذا الكفاح مشروع . ويقول الحاخام موشيه هيرش ((نحن ضد سفك الدماء . وأيضًا منظمة التحرير الفلسطينية ضد سفك الدماء . ونحن نؤيد حق الفلسطينيين فى استرجاع ما أُخذ منهم بواسطة القوة)) (من ص 320- 321) وقال أيضًا ((اذا كان هناك إهتمام وحرص من جانب الصهيونية تجاه اليهود ، فعليها إصلاح الظلم الذى سبّبته للشعوب الأخرى . وانتقد بقوة الحركات التى تحاول إجبار أتباعه على الخدمة فى الجيش الإسرائيلى وقال : ((إنهم يريدون انضمامنا إلى آلة الحرب ضد العدو الذى أوجدوه خدمة لمصالحهم ، ولتوسيع سيطرتهم على مناطق تابعة لشعوب أخرى)) (ص324) ومن بين الأحزاب الدينية الأقل تطرفًا حزب (ديجل هتوراه) فذهب رئيسه بعد انتخابات عام 88 إلى حد الموافقة ، ليس على الانسحاب من المناطق المحتلة فحسب ، بل على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح . وأعرب عن استعداده لتأدية التحية لعلم هذه الدولة (ص 175) وأيضًا الحاخام سمحا بونيم رئيس مجلس كبارالتوراة دعا عام 1989 لإجراء محادثات سلام مباشرة بين إسرائيل ومنظمة التحريرالفلسطينية (ص 338) .

مخاطر الأصولية اليهودية على المجتمع الإسرائيلى :

هذه التناقضات داخل التيارات الدينية فى إسرائيل ، يواكبها تناقضات أخرى بين الأصوليين اليهود وبين العلمانيين . ويتمثل الصراع بين الطرفيْن فى الموقف من طبيعة الدولة التى ينشدها كل فريق . فبينما يرى العلمانيون أنّ المواطنين متساوون فى الحقوق والواجبات ، يرى الأصوليون العكس ويحرصون على التميزالذى يُهدد أى مجتمع . ومن أمثلة ذلك الموقف من المرأة ، حيث لايجوز زيارة النساء لحائط المبكى (ص 78) ورفض السماح للمرأة باستخدام حمامات السباحة المشتركة (ص163) ويُحظر على

النساء لبس الملابس القصيرة أو الشفافة أو الخروج دون جوارب تُغطى الساقيْن . وعلى المرأة حلـق رأسها ، وعدم خروج صوت غناء النساء خارج البيت (ص294) وعندما تكون الزوجة فى فترة الطمث فلا يجوز أنْ ينام زوجها معها فى سرير واحد . واذا ناما فى سريريْن منفصليْن ، ولمس أحدهما الآخـر، فهذا حرام (ص 311) .

وقد أخذ التطرف الدينى مداه إلى درجة الـضغط عـلى الحكومـات الإسرائيليـة المتعاقبـة لاستصدار تشريع يُحرّم تربية الخنازير. وقانون آخر يـنص عـلى قداسـة يـوم الـسبت ، حيـث لا يجوز تشغيل المواصلات العامة وإغلاق المحلات العامة (عدا المطـاعم والملاهـى) وعـدم القيـام بأى عمل مهما كان فى مشروعات حيوية كثيرة ، مثل المـوانى وغيرهـا ، والمحافظـة عـلى الطعـام الدينى (الكاشير) وعدم تشريح جثث الموتى ، وعدم زواج أى كاهن من أية مطلقة (ص61 ، 62) ووصل الأمر إلى درجة أنْ تشكّل داخل حزب (مفدال) الدينى تشكيل خاص بالمرأة أطلقوا عليه (كتلة المرأة المتدينة) (ص104) وعلى الـرغم مـن أنّ كافـة الإسرائيليـين ملزمـون بـأداء الخدمـة العسكرية الإجبارية لمدة ثلاث سنوات ، فإنّ أعضاء المدارس الدينية التابع لمجلس كبـار(علـماء) التوراة معفون من أداء الخدمة العـسكرية. وأيـضًا الوقـوف بكـل حـزم ضـد تجنيـد النـساء فى الجيش (ص 150 ، 238) وفـسّر كثـيرون مـن الـسياسيين والعلمانيـين الإصرار عـلى الإعفـاء مـن الخدمة العسكرية على أنه هروب من خدمة الوطن ، بحجة دراسـة الـدين ، وهـو الأمـر الـذى جعل بن جوريون يُردّد دائمًا ((إننا نريد أمة من الجنود ، لا أمة من الكهنة)) (ص 158) .

ويتصاعد التطرف والتعصب إلى درجة أنّ أتبـاع الطائفـة (الحريديـة) واثقـون مـن أنهـم يملكـون الحقيقـة المطلقـة فى فهمهـم وإطلاعهـم عـلى الكتـب المقدسـة ، وأنّ طريقهم هو الطريق الصائب الوحيـد . كـما أنهـم يـستخدمون وسـائل (الإكـراه الدينى) والتدخل فى حياة الآخرين ، وكل الوسائل بالنسبة لهم مشروعة ، بما فى ذلـك استخدام سلاح الاعتداء والمتفجـرات ضـد اليهـود الآخـرين الـضالين . ويـشنون حربًـا

على الثقافة العلمانية للمجتمع الإسرائيلى . ويُهاجمون دور السينما وحمامات السباحة المشتركة والصحف العلمانية ، مما يُثيرعنفًا مضادًا من جانب العلمانيين ، ولكـنهم لايرتـدعون لاقتنـاعهم بأنهم يشنون حربًا مقدسة باسم الرب . ويُقاطعون مـدارس ومعاهـد تعلـيم اللغـات الأجنبيـة. ويُصدرون تعليماتهم إلى أتباعهم بعدم الاشتراك فى انتخابات الكنيـست أو الانتخابـات المحليـة. وعدم تناول أى طعام أو شراب غير مصرّح به من قِبل محكمـة الطائفـة. والإيمـان القـاطع بـأنّ إقامة الدولـة الـصهيونية قبـل قـدوم المـسيح المنتظر، إنمـا هـو عقـاب خطـير مـن اللــه. وأنّ الكنيست (البرلمان الإسرائيلى) تـدنيس لأوامراللــه وإهانـة للتـوراة ، لأنّ قوانينـه تتنـاقض مـع شريعة موسى .. إلخ (من ص 301 – 304) .

مقاومة الأصولية الدينية :

فى مقابل التطرف الأصولى اليهودى ، فإنّ المجتمع الإسرائيلى يشهد أشـكالا مـن المقاومـة لتحجيم دور هذه التيـارات التـى تـسعى إلى إقامـة دولـة دينيـة فى إسرائيـل ، معاديـة للـسلام وللعلم ولحقوق الإنسان ، من أمثلة ذلك بذلْ ((محاولات دائمة من أجل إفراغ الشريعة الدينية من مضمونها ، مثل عقد الزواج المختلط فى جزيرة قبرص ، وعقد الزواج دون اشتراك أى حاخـام فى حالة المنع الدينى ، أو فى حالة رفض عقد طقوس الزواج الدينية. وتقوم المحاكم المدنية بدور مهم جدًا فى هذا الصراع ، حيث تتعرض أحكام الـشريعة اليهوديـة (الهالاخـاه) للانتقـاد . ويـتم التساهل مع كل محاولات الإلتفاف حولها وتجنبها ، والمثال الواضح على ذلك أنّ محكمة العدل العليا (الإسرائيلية) أقرّتْ مبدأ تسجيل من تزوّجوا مدنيًا أو مختلطًا

أو فى احتفـال مـدنى فى سـجلات الـزواج . كـما حـدّد المـشروع فى القـوانين المتـصلة بالأحوال الشخصية أنّ أحكامه ملزمة لكل من المحاكم المدنية والمحاكم الدينيـة. مـثلما حدث بالنسة لقـانون (المـساواة فى الحقـوق الـسياسية للمـرأة) الـذى صـدرعام 1951 حيــث لم يلتفــت إلى حكــم المحكمــة الربانيــة التــى أقــرّتْ بعــدم توافــق هــذا

القانون مع أحكام الشريعة اليهودية. كما أنّ هناك قطاعًا من الجمهورالـدينى نفـسه لايعـترف بالصلاحية الشرعية اليهودية لهذه المؤسسة الدينيـة بـصورة نـسبية. كـما أنّ اعـتراف الدولـة ب (الحاخامية الرسمية) هو نـوع مـن تحويلهـا إلى تنظـيم تـابع للدولـة ، وبالتـالى فهـى خاضـعة لإشراف محكمة العدل العليا التى تتدخل كثـيرًا فى أحكـام (الحاخاميـة) وفى انتخابـات الحاخـام الأكبر وتُخضع أعمال مجلس الحاخامية لإشرافها. وبالنسة للقـوانين التـى تتـصل بأحكـام (منـع) وفقًا للـشريعة اليهوديــة ، مثـل أحكـام يـوم الـسبت وتربيـة الخنـازير، توجـد قـوانين تـسمح بتجاوزها . كما أنّ الدوائر الطبية اعترضتْ على الأصوليين الذين يرفضون تـشريح جثـث المـوتى ، واعتبرتْ أنّ هذه المطالب فيها مساس بمستوى البحث العلمى والخدمة الطبية. كما أنّ المغـالاة الأصولية أدّتْ إلى ارتفاع الأصوات التى تُطالب بأنْ يكون الـزواج مـدنيًا . وضرورة فـصل الـدين عن الدولة. وهذا المطلب يريد مؤيدوه ، ليس الفصل الرمزى بين دولة إسرائيل كدولـة يهوديـة وبين التقاليد الدينية اليهودية ، بل يُطالبون أساسًا بالفـصل عـلى المـستوى الرسـمى والقـضائى . وقد ترتب على ازدياد التوترالـدينى وازديـاد تـدخل رجـال الـدين فى شـؤون الأفـراد فى حيـاتهم اليومية ، ترتب على ذلك تكوين رابطة لمنع (الإكـراه الـدينى) تأسـست عـام 1950 وقـد أقامتْ هذه الرابطة فروعًا لها فى المدن الثلاث الكـبرى . وفى عـام 1960 جـدّدتْ الرابطـة نشاطها بعد سلسلة مـن الأزمـات الدينيـة وعـلى الأخـص بعـد طـرح مـشكلة (مـن هـو اليهودى ؟) وكثّفتْ الرابطة عملها فى خريف 1963 حيث نظمتْ مظاهرة فى القدس ضد العنف المتزايد من المتدينين . وسارتْ فى هـذه المظـاهرات جماعـات كثـيرة مـن الـشباب العلمانى وهم مسلحون بالعصى إلى حدود الأحيـاء الدينيـة. واذا كـان نـشاط هـذه الرابطـة تعرّض لاهتزازات كثيرة ، إلاّ أنّ تأثيرها كان كبيرًا ، وكانتْ رمزًا إلى حدٍ ما للاتجاه المتزايد مـن أجل خلق ثغرات عميقة بين المعسكريْن الدينى واللادينى فى إسرائيل (ص 59 ، 64) كـما أنّ إعفـاء طلبـة المعاهـد الدينيـة مـن الخدمـة العـسكرية مثـار اعـتراض ومقاومـة دائمـة مـن

الأحزاب العلمانية وبصفة خاصة اليسارية فى الكنيست (ص154) كما أنّ زعماء كل من المعراخ والليكود لا يحافظون على شرائع الدين ويأكلون لحم الخنزير علنًا فى المطاعم داخل البلاد وخارجها (ص233، 234) .

وكتب الأديب الإسرائيلى عاموس عوز عن الشباب المتدين ووصفهم بأنهم ((حمقى ومجانين تحرقهم أنوارالنبوءة . أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم خُلقوا ليُصلحوا العالم . وكان كل واحد منهم يعتقد أنه هو نفسه (المسيح المخلص) المنتظرالذى سيخلص اليهود من آلامهم. وفى سبيل هذا الاعتقاد فهو على استعداد دائم لصلب معارضيه ، ليصلب هو نفسه فى النهاية)) وأضاف ((من مفارقات القدر أنّ مليارات الدولارات التى تُقدّم سنويًا إلى تلك الدولة التى تقول بطاقة هويتها أنها ديموقراطية ومستنيرة وتقدمية ، تصل إلى هذ المجتمع المغلق الذى زرته (زارالكاتب حى جيئولا بالقدس الغربية) والذى يوجد على غراره مجتمعات أخرى فى إسرائيل ، تنتمى إلى عصورسحيقة. وتبدو- بالنسبة لها- القضايا اليومية فى الحياة الإسرائيلية- كالحرب والتضخم والرقابة وحزب العمل والهستدروت (اتحاد العمال) إلخ وكأنها رمال متحركة. أما الثابت لديها فهما هتلر والمسيح (من ص 308- 310) هذا المشهد الذى رصده الأديب عاموس عوزالذى يتأسى فيه من تغلغل الأصولية الدينة ، يستدعى إلى الذاكرة كما ذكرالمؤلف النظرة التى سادتْ الدولة الإسرائيلية فى سنواتها الأولى ، التى كانت ترى أنّ الدين هو أمر متخلف لابد من محاربته (ص119) ولعلّ هذا ما دفع الصحفى الإسرائيلى شالوم كوهين أنْ يناقش خطورة الأصولية الدينية التى تُهدد المجتمع الإسرائيلى فى كتابه (الرب برميل بارود – إسرائيل ومتطرفوها) (ص379) .

هذا الصراع بين التيارات العلمانية والتيارات الدينية المؤجج داخل المجتمع الإسرائيلى ، غائب تمامًا عن خريطة الإعلام العربى ، إذْ بينما يُحذر كثيرون من الكتاب الإسرائيليين من أنّ ((إسرائيل قد تتطور إلى دولة تفرض فيها المؤسسات

الدينية والدوائر الدينية طابعها بشكل عام فى مجالات الحياة)) فإنّ كاتبًا آخر يُخالف تلك النظرة فكتب ((على الرغم من الادعاءات بشأن (الصحوة الدينية) فليست هناك دلائل وحقائق تُشير إلى ازدياد حجم القطاع الدينى ، كذلك فإنّ البيانات الخاصة بعدد التلاميذ فى التعليم الدينى لا تُشير إلى هذا التحول (ص40 ، 41) وكتب آخر((إنّ دولة إسرائيل ليست دينية وليست لادينية. ولكنها معروفة بين الجمهور على أنها لادينية. ومن الناحية الوظيفية فإنّ الدولة ومؤسساتها وخدماتها تُدار بشكل عام بما لا يتوافق مع شرائع الدين اليهودى . والجدير بالذكرأنه ليس فى الشريعة ولا لدى أصحاب الشريعة طريقة لإدارة خدمات الدولة المعاصرة مثل الجيش والشرطة والمواصلات إلخ . كما أنه ليس لدى علماء الدين أى اهتمام بهذه الأمور)) (ص46) أما الباحثان (موشيه ليسك) ، (دان هوروفيتس) فكتبا ((إنّ أخطر صدع يُهدد الهوية الثقافية للمجتمع الإسرائيلى هوالصدع الدينى / العلمانى ، وهو من شأنه أنْ يزداد حدة فى المرحلة المقبلة أكثر من أى مرة فى الماضى . إنّ القطاع الحريدى وصل إلى قوة ديموجرافية واقتصادية ، جعلته قطاعًا مستقلا ذاتيًا . وهو يوجد بصورة استبدادية ويتلقى أموالاً من الحكومة . وأنّ هذا القطاع أصبح دولة داخل الدولة. وبالتالى فإنه يوجد فى إسرائيل شعبان لايمكن أنْ يعيشا معًا . والخطر الذى ينطوى عليه هذا الأمر هو إدخال الدين فى السياسة (ص311 ، 312) .

أما هرتسل فهو عندما كان يُشجّع اليهود الأوروبيين على الهجرة إلى فلسطين قال لهم ((لدى خروجنا من مصر مرة أخرى ، لن ننسى خلفنا قدوراللحم)) وهوهنا يُذكّراليهود بموقف جدودهم الذين ندموا لأنهم استجابوا لكلام موسى وهارون وخرجوا من مصر وتذمّروا وعاتبوهما قائلين ((ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذْ كنا جالسين عند قدوراللحم ونأكل خبزًا حتى الشبع . فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تُميتا كل هذا الجمهور بالجوع)) (خروج 16 : 2) والمعنى عند هرتسل كان مزدوجًا : فهو يقول لليهود المعاصرين له : إنكم لن

تجوعوا فى فلسطين كما جاع جدودكم بعد خروجهم من مصر. وكذلك فـإنكم بعـد اسـتيطانكم أرض إسرائيل سوف تظلون أوروبيين . وهذا ما عبّرعنه عندما قال ((إنّ دولة اليهود سوف تُصبح بمثابة سويسرا صغيرة فى قلب الشرق الأوسط)) (ص18) ولكن ها هو الواقع يُكذب الصورة التى حلم بها وتمناها هرتسل ، إذْ تحوّلتْ إسرائيل بفضل الأصوليين اليهود الـذين يـسعون إلى مزيـد من التوسع ورفض إقامة الدولة الفلسطينية ، ومعاداة أنصارالسلام ، وتهديد كل شعوب المنطقة بعدم الاستقرار، تحوّلتْ سويسرا الصغيرة فى قلب الشرق الأوسـط فى حلـم هرتـسل ، إلى سـاحة للقتال والصراع وعـدم الاسـتقرار. وبيـنما يـرفض الأصـوليون فى إسرائيـل وفى فلـسطين وفى كافـة الدول العربية نداء السلام ، لايعلو صوت فوق نعيق الغربان .



الفصل الرابع

الشخصية اليهودية

والتراث العبري

ساعدتْ بريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية ، الصهيونية فى احتلال فلسطين . ولم يكتف اليهود بذلك وإنما مارسوا أبشع أنواع القتل وتشريد الفلسطينيين . وشنوا الحروب ضد شعوب لبنان والأردن وسوريا ومصر. إزاء هذه الإستراتيجية الدموية ، كان لابد من دراسة الشخصية اليهودية ، ولماذا تميل إلى العنف وترفض السلام ؟ للإجابة عن هذا السؤال ، كان الكتاب المهم (الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية) تأليف د. رشاد عبدالله الشامى – الصادرعن سلسلة عالم المعرفة الكويتية – العدد 102 – يونيو1986 .

بدأ المؤلف كتابه بتأصيل مرجعية اليهود العقلية والنفسية ، المستمدة من التوراة . وضرب مثالا بموقف العبريين من المصريين القدماء ، وفقًا لما جاء فى سفرالتكوين 47 عندما جاء يوسف إلى مصر، حيث استقبله الفرعون (= ملك مصر) وقال له : أبوك وإخوتك جاءوا إليك . أرض مصر قدامك . فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا فى أرض جاسان (الشرقية حاليًا) ماذا حدث بعد أنْ حصل يوسف

والعبريون على هذا الكرم ؟ كتب المؤلف أنّ فرعون مصر كلّفهم ((بالعمل كسائرالمصريين فى الزراعة وصناعة البناء ، اللتين كانتا الصناعتين الرئيسيتين ، فاعتبروا هذا التكليف عبودية . وجعلوا (يهوه) إلههم يُنكّل بالمصريين فى صورة عمليات انتقامية بشعة ردًا على جميل الإقامة لخمسة قرون نعموا خلالها بخيرات مصر. وهى الخيرات التى ندموا على تركها عندما عانوا الأهوال والجوع والتشرد فى التيه)) (ص 12) .

إنّ هذا الندم جاء فى اعتراف اليهود الصريح ، إذْ ورد فى العهد القديم ((فعاد بنوإسرائيل وبكوا وقالوا من يُطعمنا لحمًا . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانًا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم)) بل إنّ بنى إسرائيل يُعاتبون إلههم وقالوا له ((أليس خيرًا لنا أنْ نرجع إلى مصر)) (عدد 11 : 4- 6 ، 20 ، إصحاح 14 : 3) .

أما الجرائم التى ارتكبها اليهود ضد الشعب الفلسطينى فى القرن العشرين ، فهى مستمدة أيضًا من كتابهم المقدس . وأنّ ((رب اليهود لا يكتفى بالقرابين من الحيوانات ، ويُلزم اليهود بالقرابين البشرية لإرضائه. ومن هنا كانت العادة اليهودية بذبح الأطفال واستنزاف دمائهم لعجين فطائر عيد الفصح)) (ص150) وضرب المؤلف مثالا بذلك بما ورد فى سفر الخروج 12 : 29 إذْ جاء فيه ((فحدث فى نصف الليل أنّ الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر. من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة)) وقال المؤلف : إنّ شهوة القتل (حتى قتل الأطفال) مستمدة من التوراة فكتب ((حينما انتصر جند موسى على المديانيين وجاءوا بالسبايا والغنائم قال لهم موسى « فالآن أقتلوا كل ذكر من الأطفال» (عدد 31 : 17) ويخلص المؤلف من قراءة العهد القديم إلى أنّ إله العبريين هو((الذى كان يوحى إلى موسى بخطط الحرب والخديعة ، فيأمره بالتجسس وجمع المعلومات قبل الهجوم على أرض كنعان . وهذا ما ورد فى

سفر العدد 13 : 1 حيث نصّ على ((ثم كلم الرب موسى قائلا إرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا مُعطيها لبنى إسرائيل)) والتحريض على قتل الأطفال وسبى النساء وحرق المدن والسرقة والوعد بإحتلال أراضى الغير، مثل أراضى المصريين وأراضى الكنعانيين ، كل ذلك ورد بالتفصيل فى معظم أسفارالعهد القديم . وكتب د. رشاد ((إنّ التوراة تطبع العقيدة الإسرائيلية برباط وثيق بين (حرب إسرائيل) و (رب إسرائيل) حيث يُصبح هذا الرب هو(رب الجنود) الذى يُمهّد لبنى إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم فى الغزو والإحتلال وطرد الشعوب)) (168 ، 169) .

هذا الموقف العدائى من الشعوب المتحضرة المستقرة ، جعل كثيرين من المفكرين يُوجّهون نقدهم إلى التراث العبرى ، فيرى المؤرخ توينبى أنّ ((اليهودية هى أقبح أمثلة عبادة الذات)) وبعد مذبحة ديرياسين وجّه نقدًا شديدًا ضد بنى إسرائيل فقال : ((إنّ الدرس الذى استخلصه اليهود من مواجهتهم مع النازى قادهم ، لا إلى تجنب الجرائم التى ارتكبها النازيون ضد اليهود ، بل إلى تقليدها)) (ص21 ، 188) أما العالم الكبير فرويد فوصف (رغم أنه موسوى الديانة) ادعاء اليهود بأنهم شعب اللـه المختار بأنه خرافة مطبقة. وأنّ اليهود أخذوا عن المصريين عادتين ، كانوا يتميّزون بهما ، ونسبهما اليهود لأنفسهم . وهما عادة الختان وتحريم تناول لحم الخنزير)) (ص37) أما فولتير- أحد روّاد التنوير الكبار- ((كان يعتبراليهود من آثار السامية البدائية)) وقال عنهم : ((إنك لتجد فيهم مجرد شعب جاهل ومتوحش ، زاول لمدة طويلة أخس أنواع البخل وأبغض أنواع الخرافات . ويحمل كراهية لاتعادلها كراهية لكافة الشعوب التى تسامحتْ معه وكانت سببًا فى ثرائه)) (ص40) .

فى فصل شيّق عرض المؤلف حركة التنوير اليهودية (الهسكالاه) التى استهدف مؤسسوها القضاء على نظام الجيتو، أى القضاء على العزلة التى فرضها اليهود على أنفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وأنّ الحل هو الاندماج داخل المجتمع ،

بحيث يكون التركيز على صفة المواطنة ، وليس على أساس الانـتماء الـدينى . وبالفعـل حققـتْ هذه الحركة نجاحًا ملحوظًا فى البداية لدرجة أنْ ((تفجّرتْ فى كل ناحية هتافات مثل « لنخـرج من الجيتو» ، «لنقترب من الشعوب» ، « لنتعلم لغـاتهم» وكـان روّاد الحركـة يـرون أنّ النجـاح الحقيقى لن يتحقق إلاّ ((اذا تمكن اليهود من اكتساب مقومـات الحـضارة الغربيـة العلمانيـة)) ولذلك وجّهوا سهام نقدهم إلى التراث الدينى اليهودى المغرق فى الغيبيـة اللاتاريخيـة فهـاجموا فكرة (المسيح المخلص) وأسطورة العودة . وهاجموا التلمود . وحذفوا كل الصلوات التـى تـدعو للعودة إلى صهيون أو إحياء مملكة إسرائيل . ووصل كثيرون من دعاة الاستنارة اليهودية ، لـيس إلى حد إنكارالقومية اليهودية فحسب ، بل إلى حد إنكارالدين اليهودى ذاته)) (ص42 ، 43) .

وبكل أسف فإنّ حركة التنويراليهودية التى حققتْ نجاحًا فى غرب أوروبا ، فإنها جوبهـتْ بمقاومة شديدة فى شرق أوروبا ، وانتهت الحركة بالفشل ، وبالتالى فشل الحل الاندماجى ، بمعنى أنْ يُصبح اليهودى الهولندى والإنجليـزى والأمـريكى إلـخ مجـرد مـواطن هولنـدى أو إنجليـزى أو أمريكى ، يهودى الديانة ، مثله مثل المواطن مسيحى الديانة ، ويكـون الـولاء للـوطن قبـل الـولاء للدين ، أى يندمج فى الوطن الذى يعيش فيه ، وتكون له نفس الحقوق وعليه نفـس الواجبـات . وقد امتلأ أدب حركة التنوير اليهوديـة بـالتعبيرات التـى تعاملـتْ مـع الـدين اليهـودى بـصرامته وقيوده المتزمتة باعتباره حائلا دون سعادة الإنسان . وكتب الأديب يهـودا ليـف جـوردون ((كـنْ يهوديًا فى بيتك وإنسانًا خارج بيتك)) ورغـم كـل هـذه الجهـود فـشلتْ حركـة التنويراليهوديـة ، بسبب يهود شرق أوروبـا ، بالإضـافة إلى عوامـل أخـرى مثـل ((ازديـاد موجـة معـاداة الـسامية ، وحادثة اغتيال القيصر الكسندر الثانى فى مارس 1881 وإتهام أحد اليهود بقتلـه. ونـشوب موجـة من الاضطهاد ضد اليهود فى روسيا (من ص 39 – 49) ثم جاءتْ الحركة الصهيونية التى وظفـتْ

الدين من أجل العودة إلى أرض الميعاد وقاومتْ فكرة الاندماج ، وروّجتْ وموّلتْ تهجيراليهود من أوطانهم ليحتلوا أرض الشعب الفلسطينى .

رصد المؤلف هجرات اليهود إلى فلسطين ، فذكرأنّ الهجرة الأولى بدأت واستمرت من عام 1882- 1903 والهجرة الثانية من 1904- 1914 والثالثة من 1919- 1924 والرابعة من 24- 1931 والخامسة من 32- 1938 (ص 86 ، 87) وأنّ الكاتب الصهيونى (آحاد هاعام) كتب فى عام 1891 ((نحن فى الخارج نظن أنّ فلسطين صحراء برية. غير مزروعة. وأنّ أى شخص يستطيع أنْ يشترى من الأرض حسب رغبته)) وبعد عشرين عامًا قال ((إنّ كثيرين من أهالى فلسطين الذين أخذ وعيهم القومى فى النمو، ينظرون شزرًا إلى بيع الأراضى (للغرباء) ويعملون جهدهم لوقف هذا الإثم)) (ص179) وذكرالمؤلف أنّ الصهيونيين ((حاولوا مساندة الحكم البريطانى لمدة تكفى لزيادة عددهم ولشراء المزيد من الأرض)) (ص227) وأنّ ((أول إحتجاج فلسطينى رسمى ضد التدخل الصهيونى كان فى 1891/6/24 عندما بعث بعض وجهاء القدس عريضة إلى القسطنطينية يُطالبون فيها بمنع اليهود من دخول فلسطين وشراء الأراضى فيها ، فما كان من الحكومة العثمانية إلاّ أنْ أصدرتْ قوانين تمنع الهجرة اليهودية. ولكن إحتجاجات الدول الأوروبية حدّتْ من تلك القوانين)) (ص 258) .

وعن الموازيك الذى يحكم الشخصية اليهودية ، وبالتالى الخريطة السكانية للمجتمع الإسرائيلى ، تحدّث المؤلف عن تقسيمات اليهود داخل إسرائيل : القسم الأول هم مجموعة اليهود (الإشكنازيم) التى هاجرتْ من أوروبا إلى فلسطين ، وهذه المجموعة ((تحتل قمة الهرم الاقتصادى الاجتماعى . وتُسيطرعلى كل مراكزالقوة السياسية والاقتصادية والعسكرية . وترى ضرورة أنْ يرتبط تاريخ إسرائيل بتاريخ وثقافة وتراث اليهود فى أوروبا ، بحيث يسود الطابع الحضارى الغربى دولة إسرائيل ، باعتبار أنّ المؤسسين ينتمون إلى هذا الطابع الحضارى

ويحرصون على استمراره ، رغم موقع إسرائيل فى الشرق الأوسط)) .

المجموعة الثانية هم اليهود (السفارديم) الشرقيين من عرب ومغاربة إلخ وهم لم يُعـانوا الاضطهاد كما حدث ليهود أوروبا ، وهاجروا إلى فلسطين تحت تأثيرالحركة الصهيونية ، وأملا فى مستوى معيشى أفضل من الذى كانوا يعيشون فيه فى بلادهم . والملفت للإنتباه كما ذكرالمؤلـف أنّ هـؤلاء اليهـود الـسفارديم (ومعظمهـم عـرب) تحوّلـوا- نظـرًا لـثقلهم النـسبى فى العمليـة الانتخابية منذ عام 1977- إلى التـصويت لـصالح اليمـين المتطـرف الـذى يُمثلـه حـزب (ليكـود) وأتاحوا الفرصة لليمين الإسرائيلى أنْ يتولى الحكم لأول مرة فى تاريخ إسرائيل ، ولفترتيْن متتاليتيْن (انتخابات 77 ، 1981) وأعطوا الليكود 73 % من أصواتهم فى يوليو 1984. وعن شخصية اليهود العرب ذكرالمؤلف ((لقد ترتّب على الظروف التى غادر بها اليهود البلاد العربيـة ، فى إطـار مـن التضخيم الإعلامى الصهيونى للكراهية العربية لهؤلاء اليهـود مـن ناحيـة ، ولعـدم وجـود خطـة استراتيجية عربية واضحة بشأن مستقبل اليهود فى المنطقة من ناحية أخرى ، ترتّـب عـلى هـذه الظروف أنْ تولّد الإحساس لدى اليهود السفارديم بأنّ الاختيارالمفروض عليهم هو بين الانـدماج فى المجتمع الإسرائيلى وقبول قيمه ومفاهيمه كما هى ، أو الذبح والطرد على يد العرب فى حالة انتصارهم على إسرائيل ، ولذلك فهـم أكـثر اسـتعدادًا لقبـول النظـرة الفاشـية التـى تجعـل مـن الفلسطينيين والعرب عمومًا كبش فداء . وقد أصبح من الـشائع أنّ الـسلوك الـسفاردى يُجـسّد الحقد العميق للعرب . وأنهم أكـثرمن كافـة الإسرائيليـين تزمتًـا وحبًـا للحـرب وتجـسيدًا للـروح العدوانية الإسرائيلية وأشرسهم مساندة لمبدأ ضم الأراضى العربية المحتلـة. وردّدوا أكـثرمن مـرة بأنهم أتوا بمناحم بيجين للسلطة فى مايو 1977لأنه هو وجيله يُجسّدون العداء للعرب بأشد مـا يكون التصلب والعناد (من ص 89-101) .

ولأنّ المؤلـف عـالم كبـير ومـتمكن مـن مادتـه عـن الشخـصية اليهوديـة ، لـذلك ربـط

ما سبق عن شخصية اليهود السفارديم بموقف اليهود الاشكناز منهم ، فى تطوردراماتيكى عن هذا المجتمع الموازيكى ، فكتب إنّ الاشكناز ينظرون إلى اليهود العرب ((باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلى . وأنهم سيكونون ، فى حالة حدوث سلام مع العرب ، أقدرالفئات الإسرائيلية قدرة على فهم العرب والتعايش معهم . وأنّ هذا الأمر يُهدد أساس الوجود الإسرائيلى كدولة تُعتبر امتدادًا طبيعيًا للحضارة الغربية)) .

المجموعة الثالثة هى اليهود (الصباريم) أى الذين وُلدوا على أرض فلسطين ، ولايعرفون لهم وطنًا آخر سوى إسرائيل بعد قيامها . وأنّ ارتباطهم بإسرائيل ليس نتيجة اعتقاد أيديولوجى أو إيمان بالصهيونية ، ولكن ببساطة لأنهم وُلدوا على هذه الأرض ، وليس لديهم عقدة اضطهاد مثل آبائهم ، وأنهم يضعون إسرائيل قبل يهوديتهم ، حيث يعتقدون أنهم وُجدوا ، ليس على أرض يهودية وإنما على أرض إسرائيلية. وهذه الشخصية العبرية الجديدة (الصبار) تحتقر يهود الجيتو. ويرفضون شخصية (رجل الجيتو) ويشعرون أنهم أقرب إلى (الشعب السليم) فى جسده وروحه عن ذلك اليهودى المعقد فى الجيتو، كوصمة عار ليهود أوروبا ((الذين ساروا كالشاة إلى المذبحة)) وفى أدب الأطفال نجده يمتلئ بأوصاف كل من (الصبار) و (اليهودى الجيتوى) حيث صورة الصبار(الراقى) والجيتوى (المنحط) وأنّ الصبار يعتبر نفسه (ابن البلد) وأنه عبرى وليس يهوديًا . والشخصية الصبارية تضيق ذرعًا بتدخل الحاخامات فى حياة الناس الخاصة ، لذلك يأكلون لحم الخنزير علانية (من ص 91- 121).

وعن الفرق بين اليهود الشرقيين والغربيين ذكرالمؤلف ((كانت هناك تناقضات هامة بين الاثنين . فاليهود الشرقيون كانت حياتهم الجديدة فى إسرائيل تُمثل إنجازًا لتراثهم اليهودى ، لكنها بالنسبة لمعظم اليهود الغربيين تُمثل نبذًا لماضيهم اليهودى)) (ص 198) ولعلّ ذلك ما جعل المهتمين بدراسة الشخصية

اليهودية داخل إسرائيل ، أنْ يُفرّقوا بين اليهودى المتمسك بالدين واليهودى المتمسك بإسرائيل ، وهو ما عبّرعنه المؤلف قائلا ((اليهود يريدون العيش وفقًا للتوراة. أما الإسرائيليون فهم يؤمنون بالتراث اليهودى اسمًا ، ولكنهم فى داخل أعماقهم يريدون أنْ يُصبحوا شعبًا جديدًا مختلفًا ، أنْ يكونوا تابعين للحضارة الغربية ، وتُصبح (أرض الميعاد) مجرد (صدفة تاريخية) وعن اليهودى الغربى المؤمن بإسرائيل الرافض للديانة العبرية كتب يسرائيل هارل ((لقد أصبحت مشكلة الإسرائيليين أنهم لايؤمنون بأية حقيقة مطلقة.. والإسرائيلى المتأثربالحضارة الغربية، يؤمن بنسبية الحقيقة وأنّ لكل عملة وجهين)) .

فى داخل هذا الموازيك الذى يُشكل الشخصية اليهودية فى إسرائيل ، نشأتْ جماعة (الكنعانيين) الذين يرون أنّ الجنسية الإسرائيلية ليست مرتبطة بالتصورالصهيونى ، ويُطابقون بين الجنسية والمواطنة. ويرون ضرورة تحريرالعبريين من يهوديتهم ، والعرب من إسلامهم . وإقامة دولة علمانية واحدة فى كافة منطقة الهلال الخصيب دون فرق بين اليهود والعرب ، بالعودة إلى الأصل الثقافى العبرى القديم ، استنادًا إلى أنّ العرب سكان البلاد هم أحفاد اليهود القدماء . وأعضاء هذه الجماعة لايشعرون أنهم يهود . وأنّ الجيل السابق عليهم جعل الدين مكروهًا لديهم. وأنّ التاريخ اليهودى عبر2500 سنة غير مُلزم لهم . ويرون أنّ اليهود ليسوا شعبًا متجانسًا ، إذْ فيهم الآسيوى والإفريقى وما بينهما من اختلاف عن اليهودى الأوروبى . واذا كانوا يرفضون الدين العبرى ، فإنهم يرفضون أيضًا أنْ يكونوا صهاينة (ص 93 ، 115 ، 116) .

فى فصل ممتع تحدّث المؤلف عن افتقاد الشخصية اليهودية للجذور، لذلك حدث ولع لدى معظم الإسرائيليين بالآثار. والسبب كما ذكرالمؤلف ((علماء الآثار فى إسرائيل محترفون وهواة لايحفرون من أجل الخبرة الفنية والاكتشافات ، بل ليُقرّوا من جديد جذورهم التى يرونها فى المخلفات الإسرائيلية العتيقة. ومن هنا

فإنّ ضمائرهم فى أعماق الماضى تتأثر بمصالح الحاضرالإسرائيلى ومشاعره. ولاغرابة فى أنْ يكون أشهرالهواة هو موشيه ديان . وكتب (روى لجئولا) : ((إننى أبحث عن أرض إسرائيل القديمة)) وقال (يجال يادين) رئيس الأركان الأسبق ((لقد أصبح الإيمان بالتاريخ لدى الشباب بديلا عن الدين . إنّ علم الآثار الوطنى يُكرّس جهوده لتحقيق الماضى العبرى للبلاد)) وكتب (جون لافين) إنّ التنقيب بالنسبة للإسرائيليين هو نوع من تأكيد الذات ، لأنه يُمثل ماضيهم . وأنّ علم الآثارالقديمة يُقدّم لهم الدليل المادى لوجودهم فى إسرائيل كشعب . وذكرد. رشاد معلومة مهمة وهى أنّ الإهتمام بعلم الآثاربدأ عام 1920 (أى قبل قرارالتقسيم فى عام 47 وإحتلال فلسطين فى عام 1948) وفى عام 1947 كان علم الآثار قد نما تمامًا ، إذْ بفضل راعى شاب كان يبحث عن معزة شاردة ، تم اكتشاف برديات بحراالميت . وأنّ هذه البرديات تم شراؤها من تجار عرب . وقد أعلن رئيس الوزراء آنذاك نبأ شرائها فى بيان رسمى فى الكنيست وهى تشتمل على كتابات خطية من القرن الأول لسفرأشعيا ، وهوأقدم من أية نسخة خطية عبرية للعهد القديم . وفى الفترة من 63- 1965 قام البروفيسوريجال يادين بحفائر شاملة فى (متسادا) وقام بمعاونته آلاف المتطوعين من إسرائيل ومن خارجها . وكان هؤلاء يحسون أنهم يقومون بعمل مقدس . وكتب يادين ((إننا لم ننجح فى تنفيذ هذه المهمة الصعبة إلاّ عندما تقدّمتْ جموع المتطوعين من البلاد)) وقامت إسرائيل بترميم المكان وإعادة بناء (المتسادا) جزئيًا . وأصبح من السهل الوصول إلى المكان بالقطارالمعلق (التلفريك) وتزوره جموع السائحين كل سنة. وتُقام حفلات دائمة تُمثل الترابط بين السياسة وعلم الآثار فى التاريخ الإسرائيلى الحديث . ويصل الأمر لدرجة أنْ يستعير يادين عبارة نابليون أمام الأهرام فى مصر عندما خاطب جنوده قائلا ((إنّ أربعين قرنًا من التاريخ تتطلع إليكم)) يستعيريادين هذه العبارة وهو يتمنى لو أنّ نابليون قالها فى إسرائيل (من ص 126- 132 ، 160) .

ولكن هذا الولع بالآثار الذى وحّد الإسرائيليين ، لم يمنع التمزق داخل الشخصية اليهودية ، خاصة وأنّ الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لم تتمكن من تحقيق السلام ، لامع الفلسطينيين ولامع الدول المجاورة لها . ولذلك يشعر المواطن الإسرائيلى أنه فى حالة حرب دائمة ، خاصة وأنّ نظام التجنيد تسبّب فى (عسكرة المجتمع الإسرائيلى) (ص205 وما بعدها) بل إنّ التوراة بصفتها المرجعية الدينية للإحتلال وتبرير شريعة العنف ، تُدرّس فى المدارس بوصفها مادة تاريخ قومى (ص199) كما أنّ الكثيرين تأثروا بمقولات الزعماء أمثال بن جوريون الذى قال ((لايهم ما تقوله الشعوب الأخرى ، بل المهم هوما يفعله اليهود)) (ص144) وقال أيضًا ((بالدم والنار سقطتْ يهودا ، وبالدم والنار ستقوم يهودا)) (ص206) أما زائيف جابوتنسكى فقال ((السيف والتوراة قد نزلا علينا من السماء)) (ص182) .

وقد عبّرتْ عالمة النفس الإسرائيلية عاميا ليبليخ عن هذا الواقع بقولها ((إنّ الحرب فى إسرائيل جزء من الماضى ، ومن الحاضر ومن المستقبل . ويسأل الإسرائيلى نفسه : هل يُسعدنى الحظ فى الحرب القادمة وأنجو كما نجوتُ فى الحرب السابقة ؟ أما الأديب الإسرائيلى ساميخ يزهار فقال ((كان الإحساس التراجيدى لأبناء هذه الأجيال ، هو أنّ الحروب قد فُرضتْ عليهم دون أنْ يُعطى لهم خيار

أو سيُعطى لهم)) وعن هذا الكابوس الوجودى الذى حوّل المجتمع الإسرائيلى إلى ثكنة عسكرية ، كتب الشاعرالإسرائيلى يعقوب باسار((الحرب المقبلة.. نُنشئها.. نُربيها.. ما بين حجرات النوم.. وحجرات الأولاد)) أما الأغنية التى شاعتْ بعد حرب يونيو67 فهى التى كتبها الشاعرالإسرائيلى حانوخ لفين وتقول كلماتها ((حين نتنزه نكون ثلاثة : أنا وأنت والحرب القادمة.. وحين ننام نكون ثلاثة : أنا وأنت والحرب القامة)) (من ص 242- 246) .

وسط هذا المناخ المؤسس على شريعة القتال والطمع فى أراضى الشعوب

المستقرة منذ آلاف السنين ، تبرز بضعة أصوات إسرائيلية راغبة فى تحقيق سلام يضمن الاستقرار. وأنّ هذا الاستقرار لن يتم إلاّبعد الاعتراف بالشعب الفلسطينى وتمكينه من إقامة دولته المستقلة بعيدًا عن أى تحرش إسرائيلى . من بين هذه الأصوات من يمتلك ضميرًا حيًا فيكتب مؤكدًا أنّ ((الوطن الإسرائيلى لم يقم لا بالحق ولا بالتاريخ ولا بالهرب من الاضطهاد ، بل بالعنف وحده . نعم بالعنف والدم)) وكتب آخرعن جرائم الجيش الإسرائيلى ضد المدنيين أثناء الاعتداء على لبنان عام 82 فقال : إنّ التركيب النفسى للشخصية اليهودية غيرعادى . وما حدث فى لبنان أبعد ما يكون عن البطولة التى يحتاج إليها الشخص اليهودى . هل البطولة العسكرية هى صورة هذا الرجل الذى يبحث فى الأنقاض عن حفيده ؟ أو هذا الرجل الذى يفر هاربًا من الجحيم حاملا بين ذراعيه ابنته ذات العشر سنوات ؟ حرام علينا أنْ نعقد المقارنات بين ما يحدث اليوم لهؤلاء العرب وبين ما حدث لنا فى الماضى ، لأننا لو عقدنا هذه المقارنات لإتضح أنّ الجرائم التى أُرتكبتْ فى حقنا بالأمس هى نفس الجرائم التى نرتكبها اليوم)) (ص154) .

وبعد حرب يونيو67 صدر كتاب (أحاديث المقاتلين) ورد فيه اعترافات الجنود الإسرائيليين وانطباعاتهم عن الحرب ، فقال أحدهم ((إذا كنتُ فى هذه الحرب قد تذكرتُ نكبة اليهود فى أوروبا ، فلقد حدث هذا الأمر فى لحظة معينة حينما كنتُ فى طريق القدس . كان اللاجئون يتدفقون أمامنا فى إتجاه الأردن . لقد شعرتُ على الفور بالتعاطف معهم ، حينما رأيتُ الأطفال على أذرع آبائهم . رأيتُ فيهم نفسى محمولا بين ذراعىْ أبى)) وذكر جندى آخر أنه حينما دخل معسكراللاجئين كى يقوم بعملية تفتيش شعر بأنه ((رجل جستابو)) وعلّق د. رشاد قائلا ((وهذا يُذكرنا بقول الفيلسوف الألمانى هيجل «أنْ تقتل فإنما تقتل نفسك» ففعل القتل ، بقدرما هو حماية للذات من خطر، لامفر للقاتل من أنْ يرى نفسه مقتولا فى ذات القتيل)) وقال كاتب يهودى : ((إنّ القومية اليهودية فى

فلسطين مبنية على أنانية عسكرية وبعيدة كل البعد عن الإنسانية)) (من ص 155- 157) .

وإذا كان تاريخ قيام الدولة الإسرائيلية هو عام 1948 فإنّ اليهود استعدوا لذلك اليوم بـزمن طويل ، حيث يتبين من مصادر المؤلف الاعتماد على عدد من صحيفة ها آرتس وتعنى بالعبريـة (الأرض) ويرجع تاريخ تأسيسها إلى عام 1919 وعلى الإهتمام بعلم الآثار منذ عام 1920 بـل إنّ اليهود وصل بهم الأمر لدرجة تأسيس (اتحاد للعمال العبريين) قبل إنشاء دولة إسرائيل بثمانيـة وعشرين عامًا ، حيث تأسس إتحاد العمال (الهستدروت) فى ديسمبر1920.

رغم كل هذه الاستعدادات ، ورغم المستوى المعيـشى المرتفـع ، ورغـم جهـود العلمانيـين ودعاة السلام الإسرائيليين للاعتراف بحق الشعب الفلسطينى حتى يتحقق الاستقرار لكل سـكان المنطقة ، رغم كل ذلك فإنّ الإسرائيليين ((يعيشون تناقضًا حادًا بين فرضيات العقيدة الصهيونية وبين إفـرازات المجتمـع الإسرائـيلى فى صراعـه مـع الواقـع العـربى الـرافض لوجـوده)) (ص236) وأشارالمؤلف إلى عامل آخر يزيد من حدة التناقضات ، وهـو أنّ الإسرائيليـين يُـشكلون مجتمعًـا غير متجانس، حيث أتوا مـن بـلاد عديـدة ، ويتحـدّثون 70 لغـة ، ولـديهم خلفيـات حـضارية مختلفة (ص247) ولكن هذا التعدد اللغوى جعل الإسرائيليين يتخلون عن التحية العبريـة التـى كانـت سـائدة بيـنهم (شـالوم علـيخم) وأصـبحوا يُفـضلون اسـتخدام تحيـات حـضارية مثـل (بوكرطوف) أى صباح الخـير، (عـيرف طـوف) أى مـساء الخـير وغيرهـا مـن التحيـات المتعـددة (ص117) فهل التخلى عن التحية الواحدة الأحادية الشمولية العبرية (شالوم عليخم) ستجعلهم متحضرين وبالتالى ينبذون العنف ؟ أعتقد أنّ رفض الأحاديـة (حتـى فى صـيغة التحيـة) يعنـى الانحياز للتعددية ، ولعلّ هذا أنْ يكون أحد المؤشرات التى تؤكد على طبيعة التناقـضات داخـل المجتمع الإسرائيلى .

واذا كان اليهود قد تجرّعوا الذل على يد النازى ، فإنهم أعادوا انتاج الذل ومارسوه على غيرهم ، وهو الأمرالذى أكده المؤلف قائلا ((إذا جاز لنا القول بأنّ أولئك الذين «كانوا عبيدًا فى أرض مصر» وفق رواية التوراة ، قد تحوّلوا إلى غزاة محتلين لأرض كنعان ، بعد فترة التيه أو الاختيارالطبيعى ، فإنّ أولئك الذين «كانوا عبيدًا فى الجيتو» فى العصرالحديث ، قد تحوّلوا هم الآخرون إلى غزاة محتلين لأرض فلسطين ، بعد أنْ تعرّضوا لسلسلة من الاضطهاد بلغتْ ذروتها فى اللاسامية النازية، التى تركتْ أثرًا واضحًا على السمات السلوكية للنمط الصهيونى ، ثم على الشخصية اليهودية الإسرائيلية)) وأنّ اليهود (بعد تجربتهم مع النازى) نراهم ((عندما يجدون الأشخاص الآخرين أضعف منهم ، يُمارسون معهم نفس الاستخفاف ونفس القسوة اللذين احتملوهما فيما مضى . وهذه الظاهرة معروفة فى علم النفس بـ ((التوحد فى المعتدى)) (ص141) .




@bookarb

الفصل الخامس

الروائي الأيرلندي

جيمس جويس واليهود

اهتمتْ الحركة الصهيونية بالدعاية منذ نشأتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، منذ أنْ فكرتْ فى احتلال أوغندا وفشلتْ ، وفكرتْ فى احتلال سيناء وفشلتْ ، حتى تمكنتْ من احتلال فلسطين .

وقد تأثرعدد من الكتاب الأوروبيين بهذه الدعاية ، فكتبوا عن الحركة الصهيونية دون أنْ يكتبوا كلمة مضادة عن الشعب الذى سُلبتْ أرضه . وبالرغم من ذلك فإنّ تاريخ الفكر والأدب الأوروبى لم يعدم كتابًا لهم وجهة نظرمغايرة تمامًا عن الأولى ، من بين هؤلاء الكتاب الروائى الأيرلندى الكبير (جيمس جويس) .

فى روايته المهمة (عوليس) نتعرّف على مستر(ديزى) الذى يرجو مستر(ديدالوس) أنْ ينشر له بيانًا فى الصحيفة التى يعمل بها . لماذا هذا البيان ؟ لأنّ مستر(ديزى) وغيره من التجار يستشعرون الخطر من ((عصابة ليفربول التى خرّبتْ مشروع بناء جولواى)) ليس ذلك فقط ، بل إنّ هذه العصابة- كما ذكرمستر(ديزى) تُهدد ((تجارتنا للماشية ومصير كل

صناعتنا القديمة)) ولكى يُؤجج فيه غيرته الوطنية ، فإنه أضاف ((إنهم سيضعون حظرًا على الماشية الأيرلندية)) ثم يستعطفه قائلا ((والآن أحاول اللجوء للدعاية .. إنى محاصر من كل جانب بالمشاكل .. بالمكائد .. بالمناورات الخفية)) .

فمن هى عصابة ليفربول ؟ ومن هم الذين يُهدّدون تجارة الأيرلنديين فى لندن ، بل ويُهدّدون إنجلترا نفسها ؟

بعد حالة الذعر يبدأ مستر(ديزى) فى الافصاح ((رفع سبابته مُلوّحًا بها بطريقة عجائزية قبل أنْ يتكلم صوته : « خذ بالك من كلامى يا مستردبدالوس .. إنجلترا فى قبضة اليهود .. فى كل مراكزالنفوذ : مراكزها المالية .. وصحافتها . وهم إمارات الاضمحلال لأية أمة ، أينما يتجمّعون يستنفدون طاقة الأمة الحيوية . لقد شاهدتُ ذلك يحدث فى هذه السنوات . وكتأكدى من وقوفنا هنا أقول لك : إنّ التجار اليهود بدؤوا عملهم التخريبى . إنّ إنجلترا العجوز تحتضر)) .

علّق بطل الرواية قائلا ((التاجر هو الذى يشترى رخيصًا ويبيع غاليًا .. يهودى كان أو ذمى)) فردّ مستر (ديزى) بحزم ((لقد كفروا بالنور.. ويمكنك أنْ ترى الظلام فى عيونهم .. ولهذا فهم مُشرّدون فى الأرض حتى يومنا هذا)) .

وعلى درجات بورصة باريس ، وصفهم جيمس جويس قائلا ((رجال ببشرة ذهبية ، يحسبون الأسعارعلى أصابعهم المرصعة بالجواهر. ثرثرة الأوز. احتشدوا حول المعبد فى جلبة فظة ، ورؤوسهم تزخر بالمؤامرات ، يُدركون الضغائن تتكتل حولهم ، يُدركون أنّ حماستهم عبث ، صبر عقيم للكنز والتكديس ، سيُبعثره الزمان كله بكل تأكيد ، كنز مكتنز على قارعة الطريق : يسلب ويُبعثر. عرفتْ عيونهم سنوات التشرد ، وبصبرتحمّلوا مخازى جنسهم)) .

وفى نهاية اللقاء ، وبعد أنْ همّ مستر(ديزى) بالانصراف توقف ليقول للبطل ((أردتُ فقط أنْ أقول لك هذا : إنّ أيرلندا – كما يقولون – لها الشرف أنْ تكون

البلد الوحيد الذى لم يضطهد اليهود . ألا تعرف ذلك ؟)) .

وعندما سأله مستفسرًا ، قال مستر(ديزى) : ((لأنها لم تـسمح لهـم بـدخولها أبـدًا .. قـال ذلك بافتخار)) وظلّ يُردّد جملته وهو يبتعد ((لأنها لم تسمح لهم بدخولها أبدًا)) .

***

كتب جيمس جويس هذه الرواية ، فى أوائـل القـرن العـشرين ، أى قبـل احـتلال اليهـود لفلسطين والضفة والقدس والجولان وسيناء (لعدة سـنوات قبـل تحريرهـا) وقبـل غـزو جنـوب لبنان وضرب المفاعل الذرى العراقى ، وقبل فرض كلمتهم على المنطقة بأكثر من خمسين سـنة . فإذا قارنّا ما كتبه جيمس جويس فى رواية (عوليس) بما حدث على أرض الواقـع ، تكـون أمامنـا صورتان : الأولى لروائى أيرلندى ، لم يحتل اليهود وطنـه ، ومـع ذلـك يـصفهم بـأنهم ((عـصابة)) وأنهم ((إمارات الاضمحلال لأية أمة ، وأينما يتجمّعون يستنفدون طاقة الأمـة الحيويـة)) لـيس ذلك فقط ، وإنما هم أيضًا ((بدأوا عملهم التخريبى)) .

وفى لهجـة سـاخرة دالـة كتـب ((إنّ أيرلنـدا لم تـشملهم . ولم تـسمح لهـم بـدخولها أبـدًا)) والصورة الثانية المقابلة هى ما حدث من تطبيق عملى للمخطط الـصهيونى عـلى أرض الـشعب الفلسطينى ، وتهديد بـاقى دول المنطقـة ، فهـل يكمـن سـبب المقارنـة فى أنّ الـدول الأوروبيـة أخرجتْ مفكرين ومبدعين انتبهوا للمخطط الصهيونى مبكرًا ، واستشعروا خطر هذا المخطط وهو جنين فى أحشاء الآباء الأول للصهيونية ، بينما الدول التى كانت مستهدفة لإحتلال أراضيها ونهـب ثروات شعوبها ، لم تُخرج مفكرين ومبدعين على مستوى المفكرين والمبـدعين الأوروبيـين ، فـيما يتعلق بالمشروع الصهيونى الذى يستهدف تحقيق الحلـم التـوراتى وتنفيـذ مـشيئة الإلـه العـبرى لبنـى إسرائيـل ، بـاحتلال (أرض الميعـاد) ؟ مجـرد سـؤال . وأيًـا كانـت الإجابـة ، فـإننى أعتقـد

أنّ ما قاله الفيلسوف الألمانى (نيتشه) لشعبه مازال صالحًا وقابلا لترديده اليوم وكل يوم ، بل وطوال ساعات اليوم . ومن واجب كل مفكر وكل مبدع حر أنْ يقتبسه ويُوجّهه إلى شعبه ، كما فعل (نيتشه) الذى قال ((عليكم أنْ تستشعروا الخطر دائمًا حتى تتقدّموا ولاتتخلفوا)) .



الفصل السادس

حنه و ميخائيل: صورة للصراع داخل المجتمع الإسرائيلي

«هذه الأرض وطن لشعبين . من الواضح أنه ليس لديهما وطن آخر ولاخيار آخر»

(عاموس عوز)

إذا كان الأدب الرفيع هو الذى يُعيد صياغة الواقع من خلال رؤى جمالية ، تُخرج الكامن من أعماق شخصيات هذا الواقع ، فتعكس أبعادها النفسية والعقلية ، اذا كان هذا هو أبسط تعريف للأدب رفيع المستوى ، عميق المعنى ، فإنّ قراءة رواية (حنه وميخائيل) للكاتب الإسرائيلى (عاموس عوز) ترجمة رفعت فوده ، الصادرة عن الدارالعربية للطباعة والنشر والتوزيع عام 1994 ، ينطبق عليها هذا التعريف ، خاصة أنه من خلال شخصيات الرواية قدّم المبدع للقارئ صورة أدبية لكل تناقضات المجتمع الإسرائيلى ، وأنّ هذه التناقضات هى التجسيد الحى للصراع داخل هذا المجتمع ، وذلك على عدة محاور:

المحورالأول : هو أنّ المجتمع الإسرائيلى مُتعدد الأعراق ، أى مُتعدد الأجناس ، وبالتـالى فهـو مُتعدد الثقافات واللغات ، لدرجة أنّ أكثر من شخصية تتحدث العبرية بصعوبة وركاكة (ص 24 ، 68 ، 69 ، 176 ، 191) ورغم أنّ هذا التعدد العرقى كان سببًا لإفتقاد التجانس المجتمعـى بـين أفراد شعب يعيش على أرض وطن واحـد ، وتـسبّب فى نزاعـات تـصل أحيانًـا إلى حـد الحـروب الأهلية إلاّ أنّ هذا الافتقاد للتجانس فى المجتمع الإسرائيلى لم يُخلخل انتماء الإسرائيليـين للدولـة التى يعيشون على أرضـها وللنظـام الـذى يحكمهـم . فـما هوالـسبب ؟ الـسبب أنّ الإسرائيليـين (غربيين وشرقيين ، علمانيين وأصوليين) يُؤمنون أنّ دولـة إسرئيـل الوليـدة هـى حقيقـة لايجـب التشكيك فيها ، وبالتالى فإنّ أى تشكيك فى إسرائيل كدولة ، وأى تهديد لهذه الدولة ، فإنّ (كـل) الإسرائيليين يقفون ضد هذا التهديد . أى أنّ مفهوم (الوطن) هو الذى (وحّد) كل الإسرائيليـين ، ويكون الاختلاف داخل هذا المجتمـع حـول الحـق الفلـسطينى . فالأصـوليون ينكـرون أى حـق للفلسطينيين ويُشجّعون على استخدام العنف ضدهم ، وكان الكاتـب موفقًـا وهـو يجعـل عـين البطلة (حنه) تقرأ على أحد الجدران فى مدينـة القـدس ((كتابـة حمـراء غير واضحة مـن أيـام منظمات العمل السرى اليهودى هـذه العبـارة « بالـدم والنـار سـقطتْ يهـودا . وبالـدم والنـار ستنهض يهودا»)) وكان تعليق (حنه) هو : ((لم أحب الفكرة التى وراء هـذا الـشعار. بـل أحـب ترتيبها الداخلى . نوع من التوازن الخطرلا أستطيع أنْ أشرحـه)) (ص84 ، 90) وفى المقابـل نجـد ميخائيل يقول لابنه عن حـرب عـام 1948 ((هنـا كـان العـرب، ونحـن هنـا)) (ص171) ووالـد ميخائيل يحكى لابنه عـن ((عـرب أشرار وعـرب أخيـار)) (ص107) و(حنـه) تـتكلم فى مونولـوج داخلى عن ((فلسطين البعيدة)) (ص188) أى أنّ الروايـة تعكـس صـورة التيـاريْن الرئيـسييْن فى المجتمـع الإسرائـيلى : تيارالأصـوليين الـذين يرفـضون أى حـق للفلـسطينيين فى إقامـة دولـتهم ، تأسيسًا على مرجعيتهم الدينيـة ، والتيـار العلـمانى (وكـذلك فـصائل اليـسار الإسرائـيلى) الـذين

يُدافعون عن حق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم .

هذا الموقف الذى جسّده الكاتب فى الرواية هو تعبير صادق عن قناعاته الشخـصية ، إذْ قال فى حديث صحفى : ((إنّ النزاع العربى الإسرائيلى على الأرض هو نزاع ، ليس بين حق وباطل ، وإنما بين حق وحـق)) وفى كتابـه (هنـا وهنـاك فى أرض الميعـاد) قـال ((إنّ هـذه الأرض وطـن لشعبين . ومن الواضح أنه ليس لديهما وطن آخر ولاخيار آخر، لـذا فـإنّ علـيهما أنْ يتقاسـماها بشكل ما)) (ص 13 ، 15 من مقدمة المترجم) .

المحورالثانى : فى الرواية هو تقديم صورة للأصوليين داخل المجتمع الإسرائيلى فى مقابل صورة العلمانيين . فتتذكر(حنه) أنها وهى طفلـة ((كنـا نتجـول فى شـوارع بعيـدة . نجـوب الغابـات . جوعى . نركض لاهثين نُعذب الأطفال المتدينين)) (ص22) وحنه أثناء فترة الخطوبة مع ميخائيل رفضتْ أنْ تدعوه إلى غرفتها والـسبب ((أنّ أصـحاب المنـزل متـدينون)) (ص29) بـل إنهـا بعـد الزواج ، وعندما كانت مريضة وزوجها فى جبهة القتال ، اطمأنتْ عندما زارها رجلان من الجيران للاطمئنان عليها . وتخشى لو أنّ رجلا واحدًا هو الذى زارها . والسبب كما تقول حنه ((لـو جـاء واحد منهما بمفرده ، سيفتح الباب للأقاويـل الـشريرة)) (ص153) ووالـد ميخائيـل عنـد زيارتـه للمرة الأولى لابنه بعد الزواج ، وعندما سأل على عنوان بيت ابنـه ، ضـلّله الأطفـال المتـدينون)) (ص64) بل إنّ عمات ميخائيل الأربع تتعجبن فى حـيرة وتتـساءلن ((لمـاذا يعـيش ميخائيـل بـين المتدينين ، بدلا من العيش فى مناخ ثقافى متحضر)) (ص81) .

هـذه الـصورة التـى تُركـزعلى أنّ الأصـوليين فى المجتمـع الإسرائـيلى غيرمتحـضرين ، يؤكـد عليهـا الكاتـب فى مواضـع عديـدة . إذْ بيـنما تـسير(حنـه) وميخائيـل فى مدينـة القدس ، ينقض على ميخائيل رجل يهودى ضـخم أمـسك بـزر معطفـه وقـال فى وجهـه ((ويـلٌ لـك يـا مُعكـر صـفو إسرائيـل . إنْ شـاء اللــه تمـوت)) انـدهش ميخائيـل ،

فهو لايعرف الرجل الذى أضاف ((فليكن الموت من نصيب كل أعداء الرب . آمين يا رب العالمين)) وعندما تهيّأ ميخائيل ليقول للرجل : إنه ليس من أعدائه ، أنهى اليهودى الضخم الموقف قائلا ((تفو عليك وعلى كل عائلتك إلى الأبد .. آمين .. آمين)) (ص85) .

واليهود المتدينون فى إسرائيل المدافعون عن الديانة العبرية يرون أنّ ((البنات كلهن من عمل الشيطان الرجيم)) (ص56) والسيدة (هاداساه) صديقة حنه تنتقد الجامعة العبرية ((فهى جامعة حديثة العهد ، ومع ذلك يديرونها بأكثرالطرق أصولية)) (ص57) واذا كان الأصوليون فى كل دين يُحاولون إثبات أنّ كتابهم المقدس سبق العلم فى الاكتشافات العلمية ، فإنّ والد ميخائيل يتكلم عن ((شك الخبراء فى الآية التوراتية التى تقول «أرض حجارتها من حديد . ومن جبالها يُقطع النحاس» الموجودة فى سفرالتثنية (ص108) وميخائيل بعد حرب سنة 48 يرفض الذهاب إلى أية مستوطنة (كيبوتز) فى النقب . وترى عمته (جينيه) أنه بذلك أحسن صنعًا ، لأنه توجّه للدراسة فى الجامعة ليخدم الشعب والدولة بعقله ومواهبه وليس بعضلاته)) (ص109) والسيد قاديشمان الأصولى المتعصب يقول ((سنقوم بإحتلال القدس . الخليل . بيت لحم ونابلس . خيرًا فعل الرب بشعبنا حين منع الحكمة عن الذين يدّعون الزعامة فينا . وجعل على قلب أعدائنا غشاوة. بيده يأخذ وبيده الأخرى يُعيد . مالم تستطع تحقيقه حكمة اليهود ، يتحقق بفضل غباء العرب . قريبًا ستندلع حرب كبيرة وستعود لنا الأماكن المقدسة)) (ص134).

على الجانب الآخر يُبرز الكاتب الوجه المضاد للأصوليين ، فرغم وجود ظاهرة التعصب الدينى داخل المجتمع الإسرائيلى ، فإنّ العلمانيين لهم حق الدفاع عن أنفسهم وإعلان معتقداتهم . وأكثر من ذلك فإنّ والد ميخائيل ((تعوّد أنْ يصف نفسه بأنه يمارس الإلحاد)) (ص112) وميخائيل مثل والده . تقول حنه ((نحن لانُشعل شموع السبت ، لأنّ ميخائيل يرى فى ذلك نفاقًا من جانب الذين

لايتمسّكون بالمبادئ الدينيـة)) وفى نفـس المـشهد يقـول ميخائيـل ((أبى لم يعـرف مـاهو مـدى الصدق فى المبادئ الدينية. وحين انضم أخى عمانوئيـل لحركـة شـباب يـسارية ، حينـذاك فقـط توقفتْ العادات الدينية فى بيتنا يوم السبت . (إنّ) تمسكنا بالقواعد الدينية كان واهنًـا للغايـة. كان أبى رجلا مُتشككًا)) (ص120) .

والتعصب الدينى يصل لدرجة أنْ يقول أحـد الشخـصيات الثانويـة ((جميـع أبنـاء إسرائيـل متساوون أمام الـرب ، إلاّ أولئـك الـذين حلّـتْ علـيهم اللعنـة منـه سـبحانه)) (ص122) أى أنّ التعصب الدينى يُكرّس لإقصاء كل مختلف والدعاء عليهم باللعنـة مـن منظورالإيمـان العـبرى . واذا كان هذا الإقصاء يشمل الفلسطينيين ، فهو يـشمل أيـضًا الإسرائيليـين الرافـضين للمرجعيـة الدينية العبرية. وهذا أحد أهم بؤرالصراع داخل المجتمع الإسرائيلى . وهـو مـا اهتمـتْ الروايـة بإبرازه . وتكتمل الصورة عندما يرفض ميخائيـل أنْ يُلحـق ابنـه بأيـة مدرسـة دينيـة ، وشـاركته زوجته حنـه فى ذلـك وقالـت ((ميخائيـل مُـصمم تمامًـا عـلى أنْ يكـون ابنـه تقـدميًا فى آرائـه)) (ص169) وحنه تكتشف فى ابن جيرانها الفتى (يورام) موهبة كتابة الشعر، ولكنه يكتـب شـعرًا يستمد مادته من التوراة ، فتقول ((حين تكون السيطرة التامة فى يدى ، أنوى أنْ أقنع يورام بأنْ يختار حياة متهورة ، بمعنى أنْ أشجّعه على أنْ يكون شاعرًا، ولـيس مدرسًـا للتـوراة)) (ص162) وتصف تلاميذ المدرسة الدينية للـذكور(تحكمـونى) بـأنهم ((بـدوا لى أكثرهمجيـة. أكثرعنفًـا مـن السنين السابقة)) (ص175) والسيدة (دوباه جليك) تجـد أساسًـا مـضحكًا للتـزامن بـين التراتيـل الدينية وبين المطر، ولهذا انفجرتْ فى ضحك أجش)) (ص188) .

المحور الثالث : هو الموقف من مصر، استنادًا إلى الإيمان العميق بحرفية ما جـاء فى التراث الدينى العبرى المعادى لمصر. تدور أحداث الرواية (دون أنْ يـنص الكاتـب على ذلك صراحة) فى أجواء حرب عام 1956. قال د. أورباخ ((هذه أيام مهمة. ومن الصعب جدًا فيهـا الابتعـاد عـن الأفكـار التوراتيـة. حـسنًا . بـالأمس احتـل الجـيش

الإسرائيلى بالدبابات جبل سيناء ، تقريبًا كما توقع سفرالرؤيا . تقريبًا يوم القيامة)) (ص150) وقال السيد قاديشمان ((فى هذا الوقت قواتنا تُطارد جيش فرعون الهارب . والبحر لم ينغلق لمجرمى مصر)) (ص155) وكما ذكرتُ فى المحورالأول ، فإنّ الإسرائيليين (أصوليين وعلمانيين) يُوحّدهم الدفاع عن بقاء إسرائيل ، لذلك نرى ميخائيل (رغم رفضه للمرجعية الدينية) يقول ((هناك قاعدة معروفة وضعها المستشار الألمانى بسمارك ، مفادها أنه حين يُهاجمك حلف من القوات المعادية ، عليك أنْ تبحث عن أقواهم وتضربه أولا. وهذا ما سيحدث هذه المرة أيضًا . سنُخيف الأردن والعراق حتى الموت ، وبعد ذلك نستدير فجأة لنضرب مصر)) وكان تعليق حنه ((أنا حملقتُ فى زوجى كأنه يتحدث إلىّ باللغة السانسكريتية)) (ص135) وذكرالكاتب على لسان حنه أنّ التلاميذ فى المدارس يتعلمون ((قصة الخروج من مصر، والضربات العشر. أبدى معظم الأولاد فزعًا شديدًا ، ربما مُشوّشًا من قسوة المصريين ومعاناة العبريين . أما جونين (ابنها) فقد سأل أسئلة تتعلق بانشقاق البحر الأحمر. كان لديه اعتراض منمق على أقوال التوراة)) (ص184) وأثناء الحرب أذاع الجيش الإسرائيلى البيان التالى ((توغلتْ قوات جيش الدفاع الإسرائيلى هذا المساء إلى داخل صحراء سيناء واحتلت الكونتيلا ورأس النقب وسيطرتْ على مواقع بالقرب من نِخِلْ على بُعد 60 كم شرق قناة السويس . صحراء سيناء هى المهد التاريخى للأمة الإسرائيلية)) (من ص 146-147) .

المحور الرابع يتناول علاقة الإسرائيليين بالفلسطينيين . وهذا المحورتُجسّده (حنه) التى تدور أحداث الرواية على لسانها . حنه شخصية مركبة شديدة التعقيد . تُهاجمها الأحلام الكابوسية دائمًا . فرغم استقرار حياتها الزوجية. ورغم تقدم زوجها فى أبحاثه وفى وضعه الاجتماعى ، ومع ذلك تشعر دائمًا بأنها على حافة الخطر. هل هو خطرذاتى أم خطرعام ؟ طوال صفحات الرواية يختلط الذاتى بالعام ، فهى فى طفولتها كانت تلعب مع طفليْن عربييْن (توأم) عن هذا التوأم قالت ((كنتُ

أميرة وهما حـارسىّ . كنـتُ قائـدة مغـوارة وهـما الـضابطان . كنـتُ القبطـان وهـما الملاحـان . جاسوسة وهما العينان)) (ص22) ولكن العلاقة بينها وبين الطفلـيْن العـربييْن تتعقـد فتقـول ((أحيانًا كنتُ أحثهما على التمرد وبعد ذلك أخضعهما بيـد حديديـة)) (ص29) ورغـم ذلـك فهـى تحكى لميخائيل ((وأنا فى الثانية عشرة من عمرى وقعتُ فى حبهما معًـا . كانـا ولـديْن جميلـيْن)) وفجأة تراهما ((ذئبيْن رماديين . همجييْن . قرصانيْن بحرييْن)) (ص36) وبعد أنْ تزوّجـتْ تـراهما دائمًا فى أحلامها المخيفة. وأنّ أحدهما أخرج لها من عباءته سـكينًا كبـيرًا ذا بريـق)) (ص48) وفى حلم آخريتدرّبْ التوأم العربى على استخدام القنابل اليدوية (ص81) ورغم ذلك فهى فى يقظتهـا تتمنى أنْ يكون هذا التوأم العربى ضمن المعسكر العربى الذى يسعى للسلام (ص157) .

فى الصفحات الأخيرة من الرواية ، عندما قرّرتْ الانفصال عن زوجهـا (رغـم أنـه زوج مثالى) فإنها تـرى التـوأم العـربى فى أحـلام يقظتهـا ومعهـما صـندوق متفجـرات ورشاشـات محـشوة ومـصوّبة ، وأنّ زنـاد الأمـان مـسحوب منهـا . رغـم ذلـك فـإنّ الخطـر فى حلـم يقظتها الكـابوسى مـازال مُـشوّشًا فتقـول ((أصـابع تـتلمس طريقهـا إلى الزنـاد . تجمعـات صراصير مُختبئة. فجأة يُدوى انفجارٌ مُروّع . وهجٌ من الضياء فى الأفق الغربى . بقايا أصـداء منخفـضة تُجلجـل فى كهـوف الجبـل . عـلى وجـه الأوديـة نـدى ثقيـل . نجمـة. كتـل مـن الجبـال الـصماء . ريـحٌ هادئـة ، تلامـس وتـداعب أشجارالـصنوبر. الأفـق البعيـد يـصير باهتًا ببطء . وعلى الـوادى الفـسيح تهـبط سـكينة بـاردة (مـن ص 194- 196) وحنـه إذا كانت ترى التوأم العربى فى أحلامها الكابوسية وهما ينقضان عليها ، فإنها تـرى أيـضًا سـائق التاكسى الإسرائيلى (رحـاميم رحيمـوف) وهـو يُطـوّق خاصرتهـا كإنـسان همجـى متـوحش (ص138) أى أنّ إحساسها بالخطر نابع من إحساس عام بتركيبة المجتمع الإسرائـيلى ، فهـى ترى أنّ مدينة القدس ((أوهـام وليـست مدينـة)) (ص34) والقـدس ((مدينـة تبعـث عـلى

الحزن . فى كل ساعة وفى كل موسم تُثير القدس حزنًا مختلفًا)) (ص63) والقدس قلعة أشباح يسكنها أصحاب الأرواح الشريرة (ص82) وتقول أيضًا ((من الذى بإمكانه أنْ يستوطن القدس ؟ أتساءل أنا . حتى لو عاش هنا مائة عام . إنها مدينة الأفنية المغلقة. مخنوقة خلف جدران كئيبة. تعلوها قطع زجاج مكسور. حاد . لاقدس . بل فتات متساقط عمدًا كى يُضلل الأبرياء . قشور داخلها قشور. إننى أسجل هنا أننى من مواليد القدس . أما أنّ القدس مدينتى ، فهذه لا أستطيع أنْ أكتبها)) (من ص84- 85) وأكثرمن ذلك قالت ((كانت القدس بعيدة . ولم تستطع أنْ تتعقبْ آثارى . ربما تحوّلتْ فى النهاية إلى غبار. فهى تستحق . لم أحب القدس من بعيد . أضمرتْ لى الشر. أردتُ لها سوءًا)) (ص192) .

إنّ شخصية (حنه) من الشخصيات المهمة فى الأدب العالمى ، والكاتب برع فى تضفير همومها الخاصة بالهم العام . فهى مشغولة بفلسفة الوجود وتسأل زوجها ((مِنْ أجل ماذا نعيش ؟ قل لى من فضلك يا ميخائيل)) (ص178) وهى تعترض على زوجها عندما تلاحظ أنه يُردّد كلمات محفوظة عن أبيه فتقول له ((إنّ أباك هو الذى يتحدث الآن من حلقك)) وعندما يرد عليها ((لم أفكر فى ذلك . لكن الأمر ممكن وطبيعى . فأنا ابن أبى)) ولكنها ترفض منطقه فتقول ((الفظيع ليس فى أنك ابن أبيك . الفظيع أنّ أباك يبدأ الحديث فجأة من حلقك . وجدك زالمان ، وجدى وأبى وأمى . وبعدنا يكون يائير(ابنها) كلنا كأننا نتعاقب شخصًا إثر شخص . كلنا مسودات . نسخة جديدة تظهر بعد الأخرى . مسودة طبق الأصل . بعد أنْ تتلف بالكرمشة تُلقى فى سلة المهملات . وتظهر مسودة أخرى بتغيير بسيط . يا له منْ انعدام للجدوى . يا له من فتور. يا لها من نكتة سخيفة)) (ص181) حنه ترفض أنْ يكون مجتمعها عبارة عن نسخ كربونية ، لذلك يتفهم القارئ هواجسها وكوابيسها عن الذين يُهدّدون حياتها . تخشى منْ التوأم العربى ومع ذلك تحن لطفولتها معهما ، وتتمنى أنْ ينضما إلى العرب المناصرين للسلام . تعشق الحياة

بطريقتها الخاصة ، لذلك كان الكاتب موفقًا وهو يُقدّمها فى السطور الأولى من الرواية وهى تقول ((أكتب لأنّ أناسًا أحبهم قد ماتوا . أكتب لأننى حين كنتُ صبية كانت لدىّ القدرة على الحب . أما الآن فإنّ قدرتى على الحب تموت . أنا لا أريد أنْ أموت)) لذلك جاء قرارها بالانفصال عن زوجها بشكل فنى بديع ، ومُتسقًا مع شخصيتها .

***

الدفاع عن بقاء دولة إسرائيل ، رغم اختلاف التيارات السياسية والثقافية ، الدعوة إلى السلام ، إدانة الأصوليين اليهود ، الصراع بين الأصوليين والعلمانيين ، هذه المحاورالتى تناولتها الرواية ، هى أيضًا مواقف الكاتب الذى قال للناقد الأمريكى (ديفيد سباتر) : ((على السطح فى إسرائيل هناك ثقة فى النفس هائلة. رصيد ضخم من اللامبالاة. ومن إجابات سخيفة تدور فى أى ذهن وتتمثل فى «لاتنزعج . نحن نستطيع أنْ نحل كل شىء . ونتغلب على كل صعوبة » ولكن هذه الثقة تطفح على السطح فقط، بينما فى العمق ، وفى داخل طيات الضمير والعقلية الإسرائيلية ، هناك شعور قديم بالفزع اليهودى التقليدى . هذا الفزع يُبرهن عن نفسه فى الشعور بالذنب تجاه العرب . ويؤدى فى حالة بطلة هذه الرواية إلى نزوات انتقامية)) وفى حديث آخر سأله أحد النقاد الأمريكيين : هل لازال يأمل أنّ دولة علمانية ديموقراطية تستطيع البقاء فى إسرائيل ؟ فقال ((التطرف الدينى والتعصب حققا ارتفاعًا هائلا ، ليس فقط فى القدس ، ولكن فى أماكن كثيرة أخرى من العالم تحت سيطرة الإسلام ، المسيحية ، وبالتأكيد اليهودية. سيؤدى ذلك إلى سيطرة الدينيين الأصوليين على القدس . إننى لن أعتبر موجة التطرف الدينى فى إسرائيل ظاهرة عابرة . إنها ثابتة وقائمة)) .

وعاموس عوز مؤلف الرواية اشترك فى حركة السلام الآن . واشترك فى لجنة السلام الفلسطينية الإسرائيلية. ومع إقامة الدولة الفلسطينية. وخلال الاعتداء على لبنان عام 1982 قاد مظاهرة ضد مناحم بيجين رئيس الوزراء الأسبق ، مُذكرًا إياه

أنّ هتلر قد مات . ونشر قصة قصيرة فى مجلة اليوم السابع تدور حول أم تشعر أنّ احتلال القدس فى حرب 1967 ، لايُساوى إصبعًا واحدًا من أصابع ابنها الذى فقدته فى تلك الحرب (من مقدمة المترجم) .

***

تبقى ملحوظة خاصة بالمترجم : فإذا كان ابن ميخائيل عندما سمع قصة خروج اليهود من مصر((كان لديه اعتراض منمق على أقوال التوراة)) واذا كان مِنْ حق أى مترجم التعليق على أية أخطاء تاريخية تتعارض مع لغة العلم ، وهوما فعله العديد من المترجمين ، لذلك كنتُ أتوقع من مترجم رواية (حنه وميخائيل) أنْ يستشهد بأقوال العلماء الذين فنّدوا افتراءات بنى إسرائيل ضد جدودنا المصريين القدماء ، أمثال جيمس فريزرالذى نفى أنْ يكون قد صدر أمر منْ أحد الفراعنة بطرح كل أطفال العبريين فى الماء (الفولكلور فى العهد القديم – ترجمة د. نبيلة إبراهيم- هيئة الكتاب المصرية- عام 1974- ج 2 ص 12) أو سيجموند فرويد الذى كتب أنّ القصة التى ترويها التوراة عن موسى والخروج ليست أكثرمن أسطورة دينية (موسى والتوحيد- ترجمة د. عبدالمنعم الحفنى- ص 84 ، 109 ، 135) أو د. محمد بيومى مهران الذى كتب ((انتهتْ الأمور باليهود أنْ نسوا لمصر أنها أطعمتهم وآوتهم ، فردوا لها الجميل نكرانًا ، وكانوا عليها للفرس أعوانًا وفى حاميتهم جنودًا . وهم أعوان الهكسوس وخونة وجواسيس وأذناب لأعداء البلاد)) (تاريخ الشرق الأدنى القديم – دارالمعارف بمصر عام 1976- ج 3 ص 325 ، 384) وكتب أ. شفيق مقّار أنّ ((اليهود كانوا رعاة رحل جياع تسلّلوا عبرحدود مصرليأكوا وينهبوا)) (قراءة سياسية للتوراة- رياض الريس للكتب والنشر- ص 92) وكتب جورج هربرت ويلز((إنّ قصة استيطان بنى إسرائيل مصر واستعبادهم فيها وخروجهم منها قصة صعبة للغاية. ففى تاريخ مصر ذكر لأقوام من الرعاة الساميين سُمحَ لهم بالإقامة فى أرض جاسان (الشرقية حاليًا)

بإذن من الفرعون رمسيس الثانى . وفى هذا السياق قال التاريخ إنّ جعل أولئك النـاس يلجـأون إلى مصر كان الجوع ، إلاّ أنه لاذكر هناك إطلاقًا فى أى شىء مما سجّله تاريخ مصر لشخص اسمه موسى ، أوأى ذكر لسيرته ، كما أنه لاذكرهناك لأية ضربات أو كوارث طبيعية حلّتْ بمصر أو لأى فرعون غرق هو وجنوده فى البحرالأحمر)) (نقلا عن شفيق مقار- المصدرالسابق- ص 311) .

لم يُقدّم مترجم الرواية هذه الخدمة لقارئه ، وإنما اكتفى فى الهامش رقم (41) بأنْ لخـص قصة الخروج كما وردتْ فى سفرالخروج . واعتصرنى الألم (أثناء القـراءة وبعـدها لعـدة سـنوات) وأنا أقرأ فى الرواية على لسان الأصولى اليهـودى ((فى هـذا الوقـت قواتنـا تُطـارد جـيش فرعـون الهارب . والبحر لم ينغلق لمجرمى مصر)) (ص 155 من الرواية) واستدعيتُ كل قـراءاتى فى علـم النفس لأعرف الحالة الشعورية للمترجم وهو يُترجم افتراءات بنى إسرائيل ضد جدودنا المصريين القدماء وضد المصريين المعاصرين . طبعًا فـشلتْ محـاولتى واسـتبعدتُ أنْ يكـون المـترجم مـن المؤمنين بالتراث العبرى المعادى للحضارة المصرية ، ولكن آلمنى أكثر أنّ المترجم الذى قـرأ العهـد القديم ، لم يكتشف أنّ المجرمين الحقيقيين من واقع معظم أسفار العهـد القـديم هـم اليهـود ، وبالتالى كانت أمامه فرصة للرد على أكاذيب الأصوليين اليهود من واقع كتابهم الذى يُقدّسـونه . وكمثال واحد فإنّ إله العبريين يُحرّض بنى إسرائيل على سرقـة المـصريين ، فيقـول لهـم ((حيـنما تمضون أنكم لاتمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتهـا ومـن نزيلـة بيتهـا أمتعـة فـضة وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبنـاتكم فتـسلبون المـصريين)) (خـروج 3 : 18- 22) وأكثر من ذلك تحويل أرض مـصر ونيلهـا وحقولهـا وبيوتهـا إلى دم . وإصـدار الأوامـر للبعـوض والذبان والقمل لهلاك المصريين والقضاء عليهم ، بما يُعرف باللعنات العـشر. بـل إنّ هـذا الإلـه العبرى ينزل بنفسه فى منتصف الليل ليقتل كل بكر فى أرض مصر(انظر : أسفار الخروج والتثنية والعدد على سبيل المثال) .

الفصل السابع
جدل العلاقة بين مصر وفلسطين وإسرائيل
وقضية حدود الدولة والدفاع عن الوطن

ترتّب على الصراع الفلسطينى / الإسرائيلى بعض المقولات المتعلقة بمصر، مثل أنّ تصدى مصر لإسرائيل هو فى مصلحة مصرقبل مصلحة فلسطين . وأنّ كل الحروب التى خاضتها مصر ضد إسرائيل ، كانتْ دفاعًا عن أمن مصر، وليس دفاعًا عن فلسطين . أما أخطر تلك المقولات فهى (حصر) حدود مصر عند الحدود الشرقية ، وهى مقولات فى حاجة للمناقشة .

المقولة الأولى صحيحة ولكن بشرط أنْ تكون مصر مُحتلة أو مُهددة بالاحتلال من إسرائيل . فهل كانت مصرعام 1948 مُحتلة أو مُهددة بالاحتلال من إسرائيل ؟ بالطبع فإنّ الإجابة بالنفى ، لأنّ العصابات الصهيونية كانتْ تستهدف احتلال فلسطين ، ومع ذلك دخلتْ مصر فى حرب ضد هذه (العصابات) ، انتهتْ بهزيمة الجيش المصرى وهزيمة جيوش خمس دول عربية. والسؤال المسكوت عنه هو : هل يستطيع العقل الحر إنكار أنّ دخول مصر فى الحرب ضد (الصهاينة) عام 48 ترك أثرًا فى نفوس وعقول اليهود الذين احتلوا فلسطين ؟ وأنه منذ ذلك التاريخ اعتبرتْ إسرائيل أنّ مصر

عدوة لها ، طالما أنها تُساند الفلسطينيين ، وترفض كل عروض السلام التى اقترحتها إسرائيل على مصر، منذ عام 1953 ، خاصة أنّ العلاقة بين اليهود والفلسطينيين عكس الصورة التى روّج لها الإعلام العروبى ، من ذلك ما ذكره المؤرخ أ. عبدالله عنان ، إذْ إنه عندما زارالقدس عام 1926 ((لفت نظرى اتصال الفلسطينيين فى بيت المقدس باليهود اتصالا عاديًا فى الحياة العامة والخاصة. ومعرفة الكثير من شبابهم للغة العبرية. وتحدثهم بها مع اليهود . وتزوج الكثير منهم بزوجات يهوديات فى غاية الحسن والجمال)) (ثلثا قرن من الزمان- كتاب الهلال- يناير88 ص 87 ، 88) وأين كان الفلسطينيون عندما تم إنشاء مدينة باسم (تل أبيب) عام 1926 ؟ (المصدرالسابق ص 89) وأين كان الفلسطينيون عندما تم إنشاء صحيفة ها آرتس (ومعناها الأرض) عام 1919 ؟ إلى آخر الترتيبات والإجراءات التى تمتْ على أرض فلسطين من قِبل الصهاينة منذ أوائل القرن العشرين ، على النحو الوارد فى الفصول السابقة ؟ المهم أنه بعد حرب 48 اعتبرتْ إسرائيل أنّ مصر عدوة لها طالما استمرتْ فى رفع شعارات تحرير فلسطين من العدو الصهيونى ، والكثير من الشعارات (التى لاتمتلك قوة التنفيذ من جهة ، وتستفز إسرائيل من جهة ثانية) مثل إلقاء إسرائيل فى البحر. ووصل الأمر لدرجة أنه فى محضر جلسة (القيادة السياسية الموحدة) المنعقدة فى القاهرة فى الفترة من 19- 25 مايو1965 وبرئاسة عبدالناصر، تم الاتفاق على عدة أهداف لمواجهة (الأخطار التى تواجه الأمة العربية) كان من بينها أنّ ((الهدف القومى العربى هو القضاء على إسرائيل)) (أنظر نص محضر الجلسة فى كتاب «عبدالناصر وتحرير المشرق العربى» تأليف فتحى الديب- مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام- عام 2000 ص 688) أى أنّ مصر- رغم أنها لم تخض إلاّ حربًا واحدة ضد إسرائيل لصالح الشعب الفلسطينى- فإنّ استمرار الدعم السياسى والمادى للفلسطينيين (بالاضافة إلى الشعارات الجوفاء المستفزة لإسرائيل) كل ذلك تسبّب فى تعقيد العلاقة بين مصر

وإسرائيل ، لذلك فإننى أعتقد أنّ دخول مصر فى حرب 48 هو المدخل لفهم علاقة مصر فى الصراع الفلسطينى / الإسرائيلى . ولعلّ السؤال بمفهوم المخالفة : ما هو موقف إسرائيل لو أنّ مصر رفضتْ الدخول بجيشها فى حرب 48 ؟ كما طالب بعض السياسيين المصريين ومن بينهم رئيس الوزراء آنذاك محمود باشا فهمى النقراشى ؟ ولو طبّقنا علم الاحتمالات ، فإنّ السؤال هو: أليس عدم اشتراك الجيش المصرى عام 48 (فرضًا كما طالب بعض المصريين) كان سيُغيرموقف إسرائيل من مصر ؟ خاصة لو وضعنا فى الاعتبار ما قاله الحاج أمين الحسينى (مفتى فلسطين) حيث ذكرأنّ سياسة مصر كانتْ ((مؤيدة وموافقة كل الموافقة لرغبة المسئولين من الفلسطينيين فى ألاّ تدخل الجيوش العربية إلى فلسطين بل يقوم الفلسطينيون أنفسهم بالدفاع عن بلادهم وأنْ تُقدّم لهم المساعدة بالسلاح والذخائر والأموال وكل الوسائل الممكنة)) (انظرمحمد حسنين هيكل- العروش والجيوش- دارالشروق- عام 98 ص 441) كما ذكر هيكل أنّ الجيوش العربية تخلّتْ عن مساعدة الجيش المصرى فى معارك النقب فى شهرىْ نوفمبر وديسمبر48 (المصدرالسابق ص 445) وقال بن جوريون ((إذا تجرّأتْ مصرعلى القتال فلابد أنْ نضرب بورسعيد والاسكندرية وحتى القاهرة)) (يوميات بن جوريون بتاريخ 48/5/24 – نقلا عن هيكل- المصدرالسابق ص 136) كذلك علينا أنْ نتخيل مسار السيناريو الذى تم عرضه على عبدالناصر بعد شهور من استيلائه على السلطة، أى محاولات التفاوض المباشر مع إسرائيل ، لوضع تصور لمستقبل الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وإمكانية التوصل إلى اقتراحات عملية تُحقق الاستقرار بالطرق السلمية وتُرضى الطرفين (الفلسطينى والإسرائيلى) رفض عبدالناصر(الجلوس) مع الإسرائيليين فى أوائل عام 1953، ولكنه بعد أنْ تسبب فى كارثة بؤونة / يونيو67 وبعد أنْ استباح الطيران الإسرائيلى سماء مصر فى السنوات التى تلت هذه الكارثة / المذبحة وقتل (= الطيران الإسرائيلى) أطفال

مدرسة بحرالبقر فى محافظة الشرقية وعمال مصنع أبوزعبل وضرب مدينة الفيوم وحى المعادى إلخ ، بعد هذه الجرائم الإسرائيلية اضطر عبدالناصرأ نْ يقبل المبادرة الأمريكية المعروفة باسم (مبادرة روجرز) يوم 1970/6/25 وكان عبدالناصر يتوقع الهجوم عليه من الفلسطينيين ومن العروبيين ، فقال فى تبريره لقبول هذه المبادرة الأمريكية ((إنّ المضى فى حرب الاستنزاف ، فى حين أنّ إسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل ، معناه – ببساطة – أننا نستنزف أنفسنا)) (انظر د. عبد العظيم رمضان – حرب الاستنزاف بين الحقيقة والافتراء – هيئة الكتاب المصرية- عام 98 ص 48) وأعتقد أنّ العقل الحر هو الوحيد القادر على تخيل واقع مصر وفلسطين والمنطقة كلها ، لو أنّ عبدالناصر وافق على مفاوضات السلام عام 1953 ، وبالتالى فإنّ هذا العقل الحر له أنْ يسأل : لماذا كان الانتظار حتى عام 1970 ؟ أليس من المحتمل (وهو افتراض مشروع) أنّ مفاوضات السلام لو تمّتْ فى عام 53 كانتْ ستُجنّبْ مصر وفلسطين ولبنان والأردن شر الحروب التى يدفع ثمنها البشر من الفلاحين والعمال والموظفين إلخ بينما الرؤساء والزعماء يتابعون الأخبار من قصورهم ؟

كما أنه يصعب الدفاع عن موقف مصرعام 1956 فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، فالعدوان الثلاثى ضد مصر الذى اشتركتْ فيه إسرائيل ، كان بسبب تأميم قناة السويس . ولكن هل أجرى عبدالناصر، وهو يتخذ قرار التأميم بالإرادة المنفردة كعادته ، رد فعل الدول التى تعتبرنفسها مضارة من هذا القرار؟ إنّ صاحب أية منشأة صغيرة (حتى ولو كانت «سوبرماركت» يطلب من الخبراء إجراء « دراسة جدوى» لكل الظروف المحيطة بالمشروع ، لقياس درجات النجاح ودرجات الفشل) فهل طلب عبدالناصر إجراء دراسة علمية تقول له فى نهايتها : إن ردود أفعال (الدول الاستعمارية) التى لم يتوقف لحظة واحدة منذ كارثة يوليو52 عن الهجوم عليها ، سوف تكون كذا وكذا ؟ وكيف سيكون تصرف هذه الدول

(الاستعمارية) ؟ وكيف غاب عن وعى عبدالناصر أنّ إسرائيل هى ((ربيبة الاستعمار)) كما كان يقول دائمًا ؟ والأخطر من ذلك ما ورد فى خطاب التأميم ، إذْ قال عبدالناصر((إنّ الاستعمارأقام إسرائيل من أجل تفكيك الوحدة العربية. سنُناضل ضد الاستعمار وضد إسرائيل التى أقيمتْ على يديه والتى تطمح إلى احتلال المنطقة من الفرات إلى النيل)) إننى أرجو العقل الحر أنْ يسأل : ما علاقة تأميم القناة ، بالنضال ضد الاستعمار وإسرائيل ؟ لماذا لم يكتف بإعلان قرارالتأميم بشكل حضارى ؟ أليس ذكر الاستعمار وإسرائيل فى قرار التأميم هو بلغة أولاد البلد المصريين (جر شكل) وكانتْ النتيجة (التى كان يجب أنْ يتوقعها أى زعيم يحرص على مصلحة شعبه) اشتراك إسرائيل فى الحرب ضد مصر بعملية (قادش) كما ترتب على قرار التأميم تدمير مدن القناة وقتل آلاف المصريين المدنيين والعسكريين . وقامت بريطانيا بتجميد الأرصدة المصرية بالجنيه الاسترلينى ، وتجميد ممتلكات قناة السويس . وذكر عبداللطيف البغدادى فى مذكراته أنّ عبد الناصر طلب من د. عبدالمنعم القيسونى أنْ ((يعمل على تحويل أكبر قدر ممكن من هذه الأرصدة من بنوك كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا إلى دول أخرى . ولضيق الوقت لم يتمكن القيسونى من تحويل كل أرصدتنا التى كانت لدى بنوكهم)) هذا غير التعويضات التى دفعتها مصر لأصحاب الأسهم عند إغلاق بورصة لندن فى اليوم السابق للتأميم)) (المكتب المصرى الحديث عام 77 ج 1 ص 320 ، 328) كما ترتب على ذلك ضياع فرصة استرداد مبلغ 400 مليون جنيه وهو المبلغ الذى كانت بريطانيا مدينة به لمصر، ووفق ما ذكره أ. طارق البشرى فإنه لم يُفرج عن هذه الأرصدة (الديون) إلاّ بمقادير ضعيفة مما أفقد السداد أهميته فى بناء الاقتصاد المصرى (الديموقراطية ونظام يوليو52- كتاب الهلال- ديسمبر91 ص 56 ، 57) انسحبتْ الجيوش المعتدية ، بفضل الانذار الأمريكى ، لتحقيق مصلحة أمريكية ، وليس حبًا فى سواد عيون المصريين ، لأنّ أمريكا قرّرتْ أنْ تحل محل

الاستعمار القديم . وفى تحليله لسنوات 55- 1965 ذكرد. جلال أمين أنّ قادة يوليو اتخذوا بعض الاجراءات التى تتفق مع مصالح أمريكا مثل مساعدة ثوارالجزائر ضد فرنسا ، والعراق ضد بريطانيا ، والأردن ضد القائد البريطانى جلوب ، ولبنان ضد كميل شمعون وممثلى النفوذ الفرنسى (مجلة الهلال- يوليو2002) أما أخطر(فخ) نصبته أمريكا لتوريط الجيش المصرى ، فكان فخ اليمن ، أو (البالوعة) أو(المصيدة) وفق تعبيرالرئيس الأمريكى جونسون . المهم انسحبتْ الجيوش المعتدية بفضل الإنذارالأمريكى ، وكان ثمن الانسحاب باهظًا ، حيث ضغطتْ إسرائيل على الأمم المتحدة بأنّ الانسحاب الإسرائيلى سيتم من منطقتى شرم الشيخ وقطاع غزة بشرط حرية الملاحة الإسرائيلية فى خليج العقبة ومضايق تيران . وهذا الشرط هو ما وافقتْ عليه الأمم المتحدة بقرارمجلس الأمن رقم (1) لسنة 57 هذا بالاضافة إلى تمركز قوات الأمم المتحدة فى غزة وشرم الشيخ .

كان عقد امتيازشركة قناة السويس ينتهى فى عام 1968 أى بعد 12 سنة من تاريخ قرار التأميم . وكان بوسع أى زعيم سياسى يضع مصلحة شعبه فى المرتبة الأولى من توجهاته ، أنْ ينتظر انتهاء المدة القانونية احترامًا لقواعد القانون الدولى ، كما فعلتْ الصين التى استردتْ مستعمراتها بعد انتهاء سنوات الامتياز أوانتهاء سنوات السيطرة الاستعمارية. فعلتْ الصين ذلك بشكل حضارى ، ولم تنل حقها فى أراضيها فقط . وإنما نالتْ احترام الشعوب المتحضرة. واذا كان عبدالناصر لم يهتم بإجراء دراسة علمية عن ردود أفعال الدول الاستعمارية ، فإنّ الأخطر هو رفضه العمل بنصيحة البكباشى ثروت عكاشة الذى أرسل خطابًا من فرنسا (وكان يشغل منصب الملحق العسكرى بفرنسا) يوم 56/5/15 إلى عبد الناصر قال فيه : إنّ فرنسا مستاءة من هجوم إذاعة (صوت العرب) عليها . وتأييد مصر لثوار الجزائر منذ عام 54 وإمدادهم بالمال والسلاح بل وتدريبهم على القتال فى معسكرات مصرية. وحذر ثروت عكاشة من أنّ فرنسا سوف تتخذ عدة مواقف ضد مصر لو

استمرت القيادة المصرية فى سياستها ضدها ، من بين هذه المواقف (التى تمتْ بالفعل) امتناع فرنسا عن شراء القطن المصرى ، الأمرالذى تسبب فى خسارة مصر15 مليون جنيه إسترلينى . ولكن أهم ما ورد فى خطاب ثروت عكاشة ، ووفق تعبيراته بالنص ((تجنب الصدام مع فرنسا لتفادى تأييدها لإسرائيل ومساعدتها ضد مصر(بسبب تأييد مصر لثوارالجزائر) (فتحى الديب – مصدر سابق- ص 86 ، 240) وبعد عدة شهور تحققتْ نبوءة ثروت عكاشة ودفعتْ مصرالثمن عندما اشتركت فرنسا فى حرب السويس عام 56 ضد مصر، متضامنة (فرنسا) مع إنجلترا وإسرائيل . أى أنّ كارثة العدوان الثلاثى عام 56 والدمار الذى لحق مدن القناة ، وقتل آلاف المصريين (مدنيين وعسكريين) وتدميرالاقتصاد المصرى إلخ ، لايمكن عزل كل هذه الكوارث عن شعارات العروبة وتحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل .

كذلك كارثة بؤونة / يونيو67 ليس لها علاقة مباشرة بقضية فلسطين ، بينما علاقتها وطيدة بآفة (القومية العربية والوحدة العربية) فهذه الكارثة كان من الممكن تجنبها لو كان يحكم مصر ساسة يُفكرون فى مصر قبل أوهام العروبة ، فإذا كان سبب حشد الجيش المصرى فى سيناء ، وطرد بعثة الأمم المتحدة إلخ هو ((وجود تحركات إسرائيلية على الحدود السورية)) فإنّ عبدالناصر رفض تصديق التقاريرالمصرية التى أكدتْ أنه لاتوجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية ، كما ذكر د. مراد غالب فى مذكراته وكثيرون غيره . وذكر المشيرمحمد عبد الغنى الجمسى فى مذكراته أنّ أحداث هزيمة يونيو67 ((بدأتْ بمعلومات غيرصحيحة عن حشد للقوات الإسرائيلية على الحدود السورية للاعتداء عليها)) وزاد من تضليل شعبنا المصرى ((أنّ التقارير(الموثوق بها) أفادتْ خلال الأيام الماضية منذ بداية مايو67 أنّ هناك حشدًا إسرائيليًا ضخمًا على حدود سوريا ، بغرض القيام بعمليات داخل الأراضى السورية ، بهدف إسقاط حكم (تحررى) عربى ، وايجاد حكم رجعى

عميل فى سوريا ، وإيقاف حركة التحرر من أجل فلسطين)) وأضاف المشيرالجمسى ((ومن معرفتنا الكاملة بجميع الظروف العالمية والملابسات الدولية المحيطة بالموقف ، وكذا بموقف القوى الاستعمارية التى تساند إسرائيل ، ومع تقديرنا لما قد يتصوره أعداؤنا من أننا قد (نتورّط) فى معركة فى وقت غير ملائم لنا ، فإنه بعد دراسة جميع الاحتمالات ، قرّرنا الوقوف موقفًا حاسمًا من تهديدات إسرائيل العسكرية بالتدخل الفورى فى حالة قيام أى عدوان إسرائيلى على سوريا)) ولكن هل حدث تهديد إسرائيلى على الحدود السورية ؟ يعترف المشيرالجمسى بأنّ ذلك لم يحدث ، وكتب ((وبتكليف من المشيرعامر سافرالفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان إلى سوريا فى نفس اليوم (14 مايو) للتأكد من حشد القوات الإسرائيلية على الحدود السورية ، وإجراء التنسيق العسكرى بين سوريا ومصر. تفقد الفريق أول فوزى قيادة جبهة سوريا ، وبحث مع المسؤولين العسكريين فى رئاسة الأركان (السورية) الموقف لمعرفة مدى صحة المعلومات التى وصلت إلى مصر من سوريا والاتحاد السوفيتى ، وكانت النتيجة كما ذكرالفريق أول محمد فوزى فى كتابه (حرب السنوات الثلاث 67 – 1970 ص 71 ، 72) : « إننى لم أحصل على أى دليل مادى يؤكد صحة المعلومات ، بل العكس كان صحيحًا ، إذْ أننى شاهدتُ صورًا فوتوغرافية جوية عن الجبهة الإسرائيلية ، التقطتْ بواسطة الاستطلاع السورى يومى 12 ، 13 مايو 67 فلم ألاحظ أى تغيير للموقف العسكرى العادى» . انتهى كلام الفريق أول محمد فوزى ، وكان تعقيب المشيرالجمسى ((عاد الفريق أول فوزى للقاهرة يوم 15 مايو، وقدّم تقريره للمشير عامر، وهوالتقريرالذى ينفى وجود حشود إسرائيلية على الجبهة السورية ، وسجل انطباعه قائلا « لم ألاحظ أى ردود فعل لديه (= لدى المشيرعامر) عن سلبية الوضع على الحدود السورية / الإسرائيلية . ومن هنا بدأتُ أعتقد أنّ موضوع الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا ، هو من وجهة نظر المشير عامر ليس سببًا وحيدًا أو رئيسيًا فى إجراءات

التعبئة والحشد فى سيناء بعد الزيارة » كان هذا هو كلام الفريق أول محمد فوزى بعد عودته من سوريا ، وكان التعقيب الأخير للمشيرالجمسى ((وبرغم هذه الحقيقة التى أوضحتها زيارة الفريق أول فوزى لسوريا ، فقد استمر الحشد فى سيناء بعد الزيارة)) (انظر مذكرات الجمسى – حرب أكتوبر1973 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – عام 1998 – ص 19 ، 38 ، 39 ، 40) فى الحيثيات السابقة نلاحظ أنّ التقريرالمصرى تحدث عن أنّ هدف إسرائيل من التحرش بسوريا هو((إسقاط حكم (تحررى) عربى)) فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يتم تحريرالجولان السورية منذ عام 67 وحتى كتابة هذه السطور فى عام 2009 أى أنّ الجولان محتلة من إسرائيل لأكثر من ثلاثين عامًا ، وبعد كارثة بؤونة / يونيو 67 وبعد حرب 73 انشغلتْ سوريا بالتدخل السافر فى شئون لبنان ، التدخل الذى وصل لدرجة السيطرة الكاملة ، بما يشبه الاحتلال ، ولدرجة أنّ شوارع ومطارات لبنان كانت تمتلئ بالصورالضخمة للرئيس حافظ الأسد . ولكن الدرس المهم – فيما يتعلق بمصر- هو : ما مغزى كلام الفريق أول محمد فوزى بعد عودته من سوريا ((بدأتُ أعتقد أنّ موضوع الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا ، هو من وجهة نظرالمشيرعامر ليس سببًا وحيدًا أو رئيسيًا فى إجراءات التعبئة والحشد فى سيناء بعد الزيارة)) ؟ لماذا أصرّ عبدالناصرعلى حشد القوات المصرية فى سيناء وطرد بعثة الأمم المتحدة إلى آخر الإجراءات التى اتخذها فى شهر مايو67 ومهّدتْ لكارثة بؤونة / يونيو التى أطلق عليها الاعلام العروبى اسم الدلع (نكسة) ؟ لماذا أصرّ عبدالناصر على حشد القوات المصرية فى سيناء ، رغم أنّ تقريرالفريق أول محمد فوزى أكد أنه لاتوجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية ، وباعتراف السوريين أنفسهم ؟ وما مغزى حشد قوات مصرية فى سيناء ، رغم أنّ هذه القوات لم تتلق أية تدريبات سابقة للدخول فى حرب مع إسرائيل ؟ (إرسال آلاف الفلاحين المصريين من احتياطى الجيش إلى سيناء بالجلابيب " نموذجًا « كما أنّ أكثر من ثلث الجيش

المصرى كان لايزال موحولا فى بالوعة اليمن «نموذجًا ثانيًا ») وباختصار: ما مغزى إعلان الحرب على إسرائيل والقوات المسلحة المصرية ليست مؤهلة للدخول فى هذه الحرب ، والدليل على ذلك حجم الخسائرالمصرية التى فاقتْ كل تصور؟ فهل كنتُ مغاليًا عندما ذكرتُ فى دراساتى أنّ عبدالناصر هو مهندس هزيمة يونيو 67 ؟ خاصة أنه اعتمد على قيادات عسكرية لم تتلق أية تدريبات ، وليس لهم أية دراسات عسكرية ، وكان معظمهم يقضون أوقاتهم ويُخصصون كل اهتماماتهم بفرق كرة القدم ، أو بقضاء الوقت مع الراقصات والممثلات فى سهرات ماجنة . كما اعتمد عبدالناصر على بعض القيادات المعروف عنها تلفيق التقاريرالكاذبة ، من ذلك ماذكره أحد السفراء المصريين فى مذكراته من أنّ شمس بدران مديرمكتب المشير عبدالحكيم عامر، ووزيرالحربية قبيل هزيمة بؤونة / يونيو67 والذى كان عبدالناصر ينوى تسليمه الرئاسة بعد الهزيمة ، عاد شمس بدران من موسكو التى أرسله إليها عبدالناصر، قبل الحرب بأيام ، وصرّح فى مجلس الوزراء بأنّ ((الاتحاد السوفيتى معنا ، وأنهم مستعدون لضرب الأسطول الأمريكى السادس ، وسيُشفونه عظمًا ولحمًا ، أى سيُمزقونه)) ولكن السفيرالفقى (وكان عضوًا فى الوفد المرافق لشمس بدران) كذّب هذا القول ، وقال : إنّ الاتحاد السوفيتى لم يعد بشىء إطلاقًا من هذا القبيل ، وأنّ شمس بدران كان مشغولا كل الوقت بشراء أثاث ولوازم لمنزله)) (انظرالتفاصيل فى كتاب « أول الحكاية – حكايتى مع الدبلوماسية» تأليف الأستاذ جميل مطر- سلسلة كتاب الهلال المصرى – العدد رقم 616- إبريل 2002 ص 17، 18) كما ذكرالسفيرأحمد الفقى فى مذكراته ، أنّ عبدالناصر برّر أمامه عدم قدرته على التعليق على تقرير كتبه أحد السفراء المصريين عن أحوال مصرقائلا ((لأنى وأنا رئيس الجمهورية كنتُ مغلوبًا على أمرى من المشير وعصابته)) (المصدر السابق ص 19) فإذا صدّقنا هذا التبرير، فإنّ النتيجة هى أنّ رئيس الدولة الذى اعتقل المواطنين الشرفاء ، من كل التيارات – لمجرد أنهم كانوا

يُعبرون عن آرائهم الفكرية والسياسية والاقتصادية – كان (أى عبدالناصر) مغلوبًا على أمره من المشير وعصابته ، فلماذا رضى بالذل لنفسه ، من أذلّ المصريين جميعًا ؟

وفى شهادته عن هذه الفترة الحالكة من تاريخ مصرالحديث ، كتب المؤرخ المستشار طارق البشرى ((بلغ من ابتعاد عبدالناصرعن معرفة أوضاع الجيش ، أنه فى صميم أزمة مايو1967 التى انتهتْ بحرب يونيو وهزيمتها المعروفة ، لم يكن عبدالناصرعلى بينة من حالة سلاح الطيران المصرى ، ولا كان قادرًا على سؤال المشيرفى هذا الشأن ، وذلك حسبما يُفهم من مذكرات محمود رياض وزيرالخارجية (آنذاك) وفى صميم هذه الأزمة كذلك طلب المشير من عبدالناصر أنْ ينقل إلى وزارة الخارجية عشرة من قيادات الضباط الذين فوجئ محمود رياض بأسمائهم ، لسابق معرفته بأنهم من القادة الأكفاء ، وكان فى مقدمة هؤلاء اللواء أحمد إسماعيل الذى قاد – فيما بعد – حرب 1973 . وقد سلم عبدالناصر طلب المشير وقائمة الأسماء إلى محمود رياض دون اعتراض واضح منه . كما (ذكر) محمد فوزى أنّ عبدالناصر لم يكن على معرفة بشؤون الجيش على مدى أعوام سابقة ، حتى أسماء القادة الكبار ومنهم دفعته.. إلخ)) (لمزيد من التفاصيل انظر «الديمقراطية ونظام 23 يوليو- 1952- 1970 تأليف طارق البشرى – كتاب الهلال – العدد 492- ديسمبر91) أما الأستاذ أمين هويدى (الذى شغل عدة مناصب قيادية ومنها المخابرات) فذكر فى مذكراته الكثير من الأمثلة عن أوجه تقصير((القيادة العسكرية ، فى تجهيز الخطط وتعديلها بالسرعة المطلوبة ، وفى التدريب المستمر، وقت السلم لتكون مهيئة لعملها وقت الحرب ، وفى تفرغ الوحدات لمسرح العمليات ووضع خطط التعبئة وتجربتها وإجراء المناورات وتدريب الرئاسات . وذكر أنّ الثابت أنه لم يُخصص من الوقود (البنزين) لأغراض التدريب أكثرمن 5 % من حجم الوقود المخصص للقوات المسلحة . كما أنّ القوات الجوية عجزتْ عن تدريب الطيارين ، فلم يُجاوز عددهم 150 طيارًا ، بينما كانت الطائرات القاذفة والمقاتلة الصالحة يبلغ

عددها 154 طيارة ، ويُقارن ذلك بالوضع فى إسرائيل حيث كان لـديها ألـف طيـار للعمـل عـلى 376 طيارة . وينتهى من ذلك إلى أنّ قيادة الجيش ((فرّطتْ فى الأمانة التى وضـعتها الـبلاد بـين يـديها ، فأهملـتْ إعـداد قواتهـا ... تفـريط فى الأمانـة ، واسـتهانة بمقـدرات الـشعب وعـدم تقديرالأمور)) ثم أشار إلى المعلومات داخل الجيش المـصرى عـن العـدو، فيـصفها بأنهـا لم تكـن متيسرة ، سواء عن مطارات العدو أو أرضه أو مستودعاته. ولم يكـن فى المقـدور تمييـز طـائرات العدو)) (المصدرالسابق – ص 351).

أما حرب 73 فكانت من أجل تحريرسيناء ، وهى قضية ليست محل خلاف .

***

يتبقى أخطرالمقولات وهى (حصر) حدود مصر فى الحدود الشرقية ، وكـأنّ مـصر ليـستْ لها حدود أخرى ، وكأنّ الخطر على أمن مصرالقومى ، لايأتى إلاّمن الحدود الشرقية .

إنّ مساحة مصر1041115 كم مربع . وتقع فى الركن الشمالى الشرقى من قـارة إفريقيـا . يحف بها من الشمال البحرالمتوسـط . وفى الـشرق فلـسطين وخلـيج العقبـة والبحرالأحمـر. وفى الجنوب خط عرض 22 درجة شمالا ، ويُمثل الحدود بينها وبين السودان . وفى الغرب خط طـول 25 درجة شرقًا ، وهى إلى حد كبير بينهـا وبـين ليبيـا . وتنقـسم أراضى مـصر جغرافيًـا إلى ثلاثـة أقسام كبرى : الصحراء الشرقية ويلحق بها جزيرة سيناء ، وأراضى النيـل ويـدخل فيهـا مـنخفض الفيوم . ثم الصحراء الغربية. أما الصحراء الشرقية فمساحتها 223000 كم مربع تشمل الهـضبة الممتدة من وادى النيل إلى البحرالأحمر. أما الصحراء الغربيـة فتـشمل أكـثر مـن ثلثـىْ مـساحة مصر.

هذه هى حدود مصر الجغرافية. كما أنها ملتقى ثلاث قـارات . والبحـر الأبـيض المتوسط يُفرّق ويـصل بـين مـصر وأوروبـا . والبحـر الأحمـر يـصل مـصر بـصفة خاصـة

بالشرق والشرق الأقصى . فإذا أضفنا إلى ذلك أرضها الخصبة بسبب وجود طمى النيل (قبل بناء السد العالى بالطبع) لدرجة أنّ ابن عبدالحكم فى سرده لوقائع الغزو العربى لمصر وصف النيل بأنه ((نهر العسل فى الجنة)) (فتوح مصر وأخبارها- مؤسسة دار التعاون للطبع والنشرعام 1974 ص 103) وكثرة خيراتها واعتدال مناخها ، ترتب على ذلك أنْ أصبحتْ مصر ضحية لموقعها الجغرافى المتميز، فتعرّضتْ- على مر التاريخ- لعدة غزوات . ولم تكن الحدود الشرقية وحدها هى سبيل الوصول إلى مصر، وإنما الحدود الغربية أيضًا مثلما حدث مع الغزو الليبى فى العصورالقديمة .

والكتابة عن (الحدود والغزوات) فى حاجة لدراسة خاصة وفى كتاب مستقل، لذلك فإننى سأقصرالحديث عن الغزوات ضد مصر، عندما كانت الإسكندرية هى (بوابة) الاحتلال . تقع الإسكندرية على ساحل البحرالمتوسط غربى فرع رشيد . أنشأها الإسكندرالأكبرعندما غزا مصر332 ق . م وهى أكبر ثغور مصر. وكان اسمها عند جدودنا المصريين القدماء (راكوتى) وعند اليونان (راكوتيس) وأطلق العرب عليها (راقوده) وكانت مسرح الأحداث عندما جلستْ كليوباتره السابعة على عرش مصر عام 37 ق. م عندما تزوّجتْ أنطونيوس وحرّضته على محاربة أوكتافيوس . ولكن هزيمتها فى أكتوم عام 31 ق. م قضتْ نهائيًا على كل آمالها . وبالرغم من ذلك ظلّتْ الإسكندرية عاصمة مصر حتى تاريخ الغزو العربى ، إذْ إن عمرو بن العاص قبل أنْ يصل إلى مدنها المختلفة ، ومنها ما أطلق عليه الفسطاط (القاهرة فيما بعد) اختار أنْ تكون الإسكندرية هى مدخله لاحتلال مصر. ودعا عمرو بن العاص إلى غزو الإسكندرية مرتين : الأولى عام 641 والثانية عام 645 وذكرابن عبد الحكم أنّ الإسكندرية فُتحتْ عنوة (أى بالقوة) بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولاذمة . وفى وصف عمرو بن العاص للإسكندرية فى كتابه إلى عمر بن الخطاب قال ((ما رأيتُ مثل مصر قط وكثرة ما فيها من أموال))

(المصدر السابق – ص 46 ، 63) .

وأثناء الصراع بين الملك الناصر والأمراء ، كانت الإسكندرية هى مسرح الأحداث للسيطرة على مصر(النجوم الزاهرة فى ملوك مصروالقاهرة- لابن تغرى بردى – ج 12 – هيئة قصورالثقافة عام 2008 من ص 180- 230) وعندما غزا الفاطميون مصر فإنّ المعز لدين الله الفاطمى اختارأنْ يكون دخوله (= غزوه) عن طريق الإسكندرية (بدائع الزهور فى وقائع الدهور- لابن إياس- هيئة الكتاب المصرية- عام 1982- ج 1 ص 186) وكانت الإسكندرية- أيضًا- مسرح الأحداث أثناء الغزو العثمانى على مصرعام 1517 (د . حسين فوزى- سندباد مصرى- مكتبة الأسرة عام 97 ص 43 ، 44) .

وقبل أنْ يحتل جيش نابليون بونابرت الإسكندرية عام 1798 سبقتها محاولة من الإنجليز، إذْ ذكر الجبرتى أنه وردت إلى القاهرة المكاتيب بأنّ عمارة إنجليزية (يقصد الأسطول) من نحو ثلاثين مركبًا وقفتْ بعرض البحر أمام الإسكندرية. وحاول الإنجليز استرضاء السيد محمد كريم ، وإقناعه بأنهم جاؤوا لمدافعة الفرنساوية الذين يتهددون مصر. وأنّ محمد كريم لم يقبل العرض وردّ عليهم بكلام خشن ((هذه بلاد السلطان . وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل)) ولكن بعد هذا التاريخ بعدة أسابيع ، جاء الأسطول الفرنسى إلى مصر، وكانت الإسكندرية هى مدخل الاحتلال ، حيث دخل عن طريق جزيرة العجمى . وبعد خروج الجيش الفرنسى من مصرعام 1801 حاول الإنجليز احتلال مصر. وكانت الإسكندرية – أيضًا- هى مدخلهم فى هذه المحاولة. إذْ أنه فى أول مارس 1807 دخلت سفينة إنجليزية إلى مياه الإسكندرية. وفى يوم 14 دخلت سفينة أخرى ، وفى مطلع يوم 17 وصل عدد السفن الإنجليزية 25 سفينة. وذكر المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ((أنه فى ليلة 21 دخل الإنجليز الإسكندرية دون أنْ تُطلق رصاصة واحدة)) والسبب أنّ ((محافظ الإسكندرية (أمين أغا) شغل منصبه

بفرمان من الحكومة التركية. وكان متواطئًا مع الإنجليز على أنْ يُسلمهم المدينة)) وبعد تفاصيل كثيرة ، زحف فريزرعلى رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة للجيش البريطانى . وفى يوم 29 مارس تحرّكتْ القوات الإنجليزية من الإسكندرية لاحتلال رشيد . ثم وصف المقاومة الباسلة لأهالى رشيد حتى تم جلاء القوات الإنجليزية (لمزيد من التفاصيل : انظرعبدالرحمن الرافعى- مصرالمجاهدة فى العصرالحديث – من ولاية محمد على إلى نهاية حكم سعيد – ج 2 كتاب الهلال – عام 1989 من ص 28- 36) .

تكرر الاعتداء على هذه المدينة (الجميلة / المنكوبة) مرة أخرى ، إذْ فى شهرمايو1882 عندما تفاقم الخلاف بين الخديو توفيق وأعضاء الوزارة ، أعلنتْ الصحف الأوروبية أنّ إنجلترا وفرنسا عازمتان على إرسال أسطوليهما إلى الإسكندرية. وبالفعل تحققت توقعات تلك الصحف . وفى يوم 12 مايو قال اللورد (جرانفيل) وزير خارجية إنجلترا للمسيو(تيسو) سفير فرنسا فى لندن ((إنّ الحاجة ماسة إلى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الإسكندرية)) وذكرعبدالرحمن الرافعى أنّ تلك المظاهرة البحرية كانت الثانية التى قامت بها الدولتان . وأنّ الأولى كانت فى أكتوبر1881 والثانية كانت أشد خطرًا من الأولى ، إذْ أنها لم تكن مظاهرة فحسب ، بل كانت مقدمة لضرب الإسكندرية والإحتلال البريطانى . فقد وصلت البوارج إلى مياه الإسكندرية يوم 19 مايو1882 وفى يوم 11 يونيو وقعت مذبحة الإسكندرية بسبب الشجارالذى وقع بين أحد المالطيين من رعايا الإنجليز والمصرى السكندرى (السيد العجان) الذى أجرّ حماره للمالطى ولم يعطه إلاّ قرش صاغ بعد أنْ استغل الحمار طوال النهار إلى آخر الواقعة المشهورة التى انتهتْ بمذبحة راح ضحيتها 49 قتيلا منهم 38 أجنبيًا والباقى من السكندريين . واستمرالتوتر حتى كانت الذروة يوم 11 يوليو1882 عندما ضرب الأسطول الإنجليزى مدينة الإسكندرية (لمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرحمن الرافعى فى

كتابه «مصرالمجاهدة فى العصرالحديث – الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى والسودان»ج 4 – كتاب الهلال – عام 1989من ص 72- 126) .

هكذا كان قدر هذه المدينة الجميلة ، أنْ تكون مدخل الغزاة لاحتلال مصر. إذن فإنّ حدود مصر لا تقتصرعلى الحدود الشرقية ، وأنّ الغزاة يختارون الدخول (= الغزو) إلى مصر من أية جهة (= حدود) وفقًا لحساباتهم . وإذا كان عام 1882 المحطة الأخيرة بالنسبة للإسكندرية مع الغزاة ، فإنّ عبدالناصر والقيادة العسكرية أثناء حرب السويس بعد تأميم القناة ، توقع أنّ بريطانيا فى حالة استخدامها القوة العسكرية ، فإنها ستتقدم أساسًا بقواتها نحو مصر من ناحية الإسكندرية ورشيد . لذلك بُنيتْ الخطة الدفاعية على أساس هذا الاحتمال . وعندما أبلغ خالد محيى الدين عبدالناصر بالمعلومات التى حصل عليها من أحد أصدقائه بباريس ، وتُشير إلى أنّ فرنسا تعمل متعاونة مع إسرائيل لمهاجمة مصر، فإنّ عبدالناصر لم يأخذ هذه المعلومات مأخذ الجد ، واعتقد هو وعبدالحكيم عامر أنّ الغرض من هذه المعلومات دفع مصر إلى حشد قواتها الدفاعية تجاه إسرائيل ، تاركين الإسكندرية ورشيد (وهى طريق تقدم القوات البريطانية وفق رأى عبدالناصر وعبدالحكيم عامر) دون قوات دفاعية (مصرية) للتصدى لها . وأكثر من ذلك أنّ ضباط الاتصال (المصريين) كان تقديرهم أنه من الصعوبة بمكان إنزال قوات معادية فى بورسعيد أو السويس . وإنْ كانت هناك محاولة من العدو فستكون من غرب الإسكندرية ، ولذلك لم تُعط أهمية قصوى لتقوية الدفاعات فى منطقة القناة ، وذلك رغم أنّ الإنذارالبريطانى / الفرنسى كان قد حدّد المنطقة التى هدّدا باحتلالها وهى منطقة قناة السويس التى هى موضع الخلاف بعد قرارالتأميم (لمزيد من التفاصيل انظر: مذكرات عبداللطيف البغدادى- مصدرسابق- ج 1 ص 327 ، 351) .

والسؤال المسكوت عنه فى مسألة حدود مصر هو: هل استباحتْ إسرائيل المدن المصرية عن طريق الحدود الشرقية فقط ، أم أنّ طيرانها استباح كل الحدود

المصرية واستطاع تدمير الطائرات والممرات المصرية فى كارثة بؤونة / يونيو 67 التى أطلق عليها الإعلام العروبى المعادى لمصر(شعبًا وحضارة) اسم الدلع (نكسة) وأنّ إسرائيل فعلتْ ذلك فى ثلاث ساعات ونصف ، ضربتْ فيها 11 قاعدة جوية مصرية فى وقت واحد من العريش إلى الأقصر؟ (هيكل – حرب الثلاثين سنة- الانفجار1967 من ص 701- 713) فهل يجرؤ الإعلام العروبى تكذيب هذه الحقائق ؟ خاصة وأنها منشورة فى كتاب عروبى كبير هو الأستاذ هيكل . وأثناء السنوات التى أطلق عليها هذا الإعلام (حرب الاستنزاف) فإنه (أى هذا الإعلام) لم يسأل – حتى لاتنتقل (عدوى) السؤال إلى المصريين الذين يدفعون ثمن الحروب ، كيف استباح الطيران الإسرائيلى حدود مصر، فضرب مصانع (أبوزعبل) ومدرسة بحر البقر بمحافظة الشرقية ، وضرب مدينة الفيوم وحى المعادى بالقاهرة إلى آخر الجرائم التى ارتكبتها إسرائيل ضد مصر؟ ولم تتوقف هذه الاعتداءات إلاّ بعد الاستعانة بالطيران الروسى والطيارين الروس ، وهى حقيقة أخرى مسكوت عنها ، مثلها مثل حقيقة أخرى مسكوت عنها أيضًا ، عندما وجّه عبدالناصر النداء إلى الرئيس الأمريكى نيكسون يوم 1970/5/1 للتدخل لوقف الاعتداءات الإسرائيلية داخل الحدود المصرية ، فترتب على هذا النداء من عبدالناصر إلى الرئيس الأمريكى المبادرة الأمريكية المعروفة باسم (مبادرة روجرز) فى 70/6/25 وكان تبريرعبدالناصرلقبول هذه المبادرة ، فى رده على العروبيين الذين اتهموه بالخيانة ((إنّ المضى فى حرب الاستنزاف ، فى حين أنّ إسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل ، معناه – ببساطة- أننا نستنزف أنفسنا)) (د. عبدالعظيم رمضان – حرب الاستنزاف بين الحقيقة والافتراء- هيئة الكتاب المصرية- عام 98 ص 48) .

إذن فإنّ حدود مصر- مثلها مثل أية دولة- مُتعددة . وأنّ الخطر قد يأتى من أية جهة ، وبالتالى فإنّ مقولة العروبيين والإسلاميين أنّ الحدود الشرقية هى الحدود

الوحيدة التى تُشكل الخطر على أمن مصرالقومى ، وأنّ مقاومة مصر لإسرائيل ليس دفاعًا عن فلسطين بل عن حدود مصر، هى مقولة باطلة . والسؤال الذى يتجاهله هؤلاء وأولئك هو: لو أنّ إسرائيل لم توجد من الأصل ، ولم تحدث كارثة احتلال فلسطين ، أليس من واجب القيادة المصرية حماية حدودها ؟ أو ليس من واجب أى نظام سياسى فى أية دولة حماية حدوده ؟

إنّ العقل الحر- وحده – هو القادرعلى الفصل بين تعاطفنا نحن المصريين مع الشعب الفلسطينى ، وإيماننا بقضيته ، وأملنا فى تحرير أرضه وإقامة دولته المستقلة ، وبين توريط مصر فى حرب جديدة مع إسرائيل . وصدق الراحل الجليل لويس عوض فى قوله الحكيم ((أليستْ فلسطين صليبنا الذى نحمله جميعًا إلى أنْ يقضى الله أمرًا كان مفعولا ؟ فما بال مصر تحمل العبء الأكبر من المال والرجال ، وهى أفقر عضو فى المجموعة العربية ؟)) (انظركتابه : لمصروالحرية – مطابع الأهرام التجارية – دارالقضايا – عام 77 ص 126) .

***

أعتقد أنّ مأساة مصر تتجسّد فى الإعلام العروبى الذى يُصر على إلغاء خصوصية الثقافة القومية لكل شعب من شعوب المنطقة ، وعدم الاعتراف بأى تمايز بين دولة ودولة ، وبين شعب وشعب ، وأنّ الجميع متشابهون كأنهم نسخ كربونية. بالاضافة إلى تلك المقولة (غيرالعلمية) التى ردّدها هذا الإعلام الناصرى / العروبى ، وهى (أنّ مصرلاشىء بدون العرب ، والعرب لاشىء بدون مصر) وأرى أنّ هذه المقولة إهانة للعرب ، بقدر ما هى إهانة لمصر . وبعد كل الكوارث التى جلبها النظام الناصرى على الشعب المصرى ، مازال أ. محمد حسنين هيكل (الصحابى الأول لنبى العروبة عبدالناصر) يُردّد تلك المقولات الخاطئة والمضللة ، من ذلك ما فعله فى قناة الجزيرة فى شهر يونيو2009 إذْ ذكر أنه ((يستحيل الدفاع عن الأمن الوطنى المصرى بدون حزام قومى عربى)) ونال هذا الكلام إعجاب

القناة التى تستضيفه ، فأصرّتْ على إعادة هذه الفقرة (بالذات) ضمن فواصلها الإعلانيـة لعـدة أيام . فما مدى صدق هذا الكلام ؟ وهل هو اكتشاف جديد ؟ إنّ بداية التوجـه العـروبى كانـت منذ يناير53 باعتراف ضابط المخابرات المـصرى فتحـى الـديب المولـع بالعروبـة (انظـر كتابـه : عبدالناصر وتحريرالمشرق العربى – مصدرسابق- ص 12 ، 30) أى أنّ ما ذكـره أ. هيكـل فى 2009 ليس اكتشافًا ، وإنما هو يبيـع بـضاعة قديمـة حفظتهـا شـعوب المنطقـة بفـضل الإعـلام الموجّـه وبفضل الكتاب المدرسى . إذن هى رسالة لتكريس التوجـه الأيـديولوجى العـروبى المعـادى لأيـة خصوصية سواء لأية دولة عربية أو لمصر ، حتى فيما يتعلق بقدرة مصر فى الدفاع عن حـدودها الـــــوطنية ، يؤكد ذلك أنّ ما ذكره هيكل فى 2009 هو تكرار لمـا كتبـه عـام 73 إذْ قـال ((إنّ طاقة مصر وحدها لا تستطيع إحراز النصر المرتجى فى الصراع الراهن فى أزمة الـشرق الأوسـط)) (أهرام 73/7/6) أى قبل حرب أكتوبر73 بثلاثة شهور. ولم يكتف هيكل بإنكار قوة مصرالذاتية ، وإنما وصفها فى نفس المقال بأنها ((شظية اسمها مصر)) ونظرًا لإيمانه ب (الوحدة العربية) رغم فشل الوحدة المصرية السورية ، قال ((لا مستقبل للكيانات الشظايا . شظية اسـمها الـسعودية. وشظية اسمها ليبيا .. إلخ)) وفى الأسبوع التالى كرّر نفسه ولكن بمزيد من الهدم لمبـدأ الاعـتماد على القوة الذاتية لأية دولة فذكر لو أنّ ((كل بلد عربى وجد الوسيلة لتنمية مـستقلة ، فمعنـى ذلك أننا سندخل فى عصر من المنافسة الطاحنة بين الضعفاء)) فما هـى النتيجـة فى رأى الأسـتاذ الكاتب الكبير كما تصفه الثقافة السائدة وكل تلامذتـه البؤسـاء ؟ كتـب ((شـظايا تـصطدم مـع الشظايا . فتات يأكـل الفتـات)) ولـشدة ولعـه باللعـب بالألفـاظ أضـاف ((أننـا إذا لم نـنجح فى التنمية المستقلة وقعنـا فى الخطـر. وإذا نجحنـا فى التنميـة المـستقلة وقعنـا فى الأخطـر)) فهـل ينكر أى عاقل أنّ هذا الكلام يصب فى مـصلحة الرأسـمالية العالميـة ؟ لقـد أضـحكنى أ. هيكـل عنـدما سـمعتُ أحاديثـه فى قنـاة الجزيـرة ، وربطتهـا بمقالاتـه فى الأهـرام ، فهـو إذْ يـرى فى

2009 أنّ مصر لا شىء بدون العرب ، كتب فى عام 73 أنّ ((الأمة العربية أمامها فترة محدودة – ثلاث سنوات أو خمس على أكثر تقدير- فإذا لم تستطع خلالها أنْ تبدأ بنوع من العمل العربى وتختم بنوع من الوحدة العربية ، فإنّ هذه الأمة سوف تفقد مكانها على الخريطة السياسية للعالم الجديد . بل أكاد أقول إنها مُهددة بفقد مكانها على الخريطة الجغرافية لهذا العالم أيضًا . وسوف تكون عاجزة عن مواجهة التحدى الإسرائيلى القائم فعلا)) (أهرام 73/7/13) فإذا أخذنا الحد الأقصى الذى حدّده أ. هيكل لفقدان الأمة العربية لمكانها (والأدق لغويًا مكانتها) فإنّ المدة تنتهى فى عام 1978 ، فما هى حالته العقلية فى 2009 وهو يبيع بضاعته القديمة لقناة الجزيرة ، عندما أصرّعلى أهمية العرب لمصر لحماية أمنها القومى ، بعد أنْ فقدوا مكانتهم حسب قوله ؟

وبسبب العروبة التى يرى هيكل أنها الحامية لمصر، تم قتل المصريين واليمنيين فى (بالوعة) اليمن حسب وصفه (أهرام 73/6/1) وأنّ إيمان عبدالناصر بالعروبة جعله يستهين بحديث الحبيب بورقيبة الذى ذكر له أنّ الأمير فيصل قال ((إذا لم ينسحب الجيش المصرى من اليمن ، فنحن على استعداد لأنْ نجعل منها مقبرة كبيرة له)) (نقلاعن كتاب هيكل – الإنفجار ص 62) وبالطبع فإنّ المقبرة كانت للمصريين الشرفاء الذين ماتوا فى كوارث اليمن وفى عام 56 ، 67 وليست (المقبرة) لعبدالناصر الذى استمرحتى يُجهّز لمقبرة الجيش المصرى فى بؤونة / يونيو67 . وبسبب العروبة تم تبديد موارد مصرعلى سوريا واليمن والجزائر إلخ (لمزيد من التفاصيل أنظر كتاب فتحى الديب – مصدر سابق – أكثر من صفحة) .

وهيكل 2009 يتجاهل ما كتبه على لسان عبدالناصرالذى قال يوم 65/8/29 إنّ العرب يُتاجرون بالشعارات ((وبالتالى فإن ج.ع.م (أى مصر) ستجد نفسها مضطرة إلى الانسحاب من مؤتمرات القمة لتحل مسئوليتها التاريخية وحدها)) وعن فلسطين قال عبدالناصر ((نحن جميعًا لا نملك خطة لتحرير

فلسطين ولانملك الوسائل لتحقيق ذلك)) (هيكل – الانفجار- ص 207 ، 208) وهيكل يتجاهل أنه أثناء العدوان الثلاثى على مصر ، فإنّ الطائرات البريطانية كانت تضرب بورسعيد من مطارالحبانية بالعراق (صحيفة الشعب 56/11/25) ويتجاهل أنّ نبى العروبة (عبدالناصر) قال لإيدن ((إذا اعتديتم علينا سنستعين بالاتحاد السوفيتى)) (صحيفة الشعب 56/11/29) فلماذا لم يقل سنستعين بالعرب ؟ هل لأنّ نبى العروبة أكثر واقعية من الصحابى الأول ؟ وهيكل 2009 يتجاهل ما كتبه هيكل 1998 إذْ ذكر أنّ الجيوش العربية سلّمتْ قيادتها للجنرال جلوب الإنجليزى . وأنّ بعض الجيوش العربية تخلّتْ عن مساعدة الجيش المصرى فى معارك النقب وغيرها فى شهرىْ نوفمبر وديسمبر48 (هيكل- العروش والجيوش- دارالشروق- عام 98 ص 445) وهيكل الذى يُروّج لمقولة: إن مصر بدون العرب مجرد (شظية) هو الذى كتب أنّ ((الصراع العربى الإسرائيلى فى جوهره صراع بين (الكم) العربى و(الكيف) الإسرائيلى . قد يكون العرب مائة مليون ولكنهم بعيدون عن روح العصر ولهذا لايلحقون به)) (أهرام 73/6/8) لذا لم تكن مفاجأة أنْ يقوم الطيران الإسرائيلى يوم 81/6/7 بتدميرالمفاعل العراقى (رغم محطة الإنذارالمبكر فى الأراضى السعودية) ويقوم فى العام التالى (يونيو82) بغزو لبنان . فإذا كانت الميديا العروبية تُروّج لمقولة اعتماد مصر على العرب ، يكون من المشروع السؤال : بماذا قدّم العرب للعرب ؟ فعندما غزا جيش صدام دولة الكويت ، فإنّ الكويت استعانتْ بأمريكا لتحرير أراضيها . وذكر فتحى الديب أنّ قاعدة الظهران الأمريكية التى أقامتها أمريكا بالسعودية ، كانت بديلا مأمونًا وبعمق المشرق العربى)) (مصدرسابق- ص 181) ولكنه لم يذكر الهدف من إقامة هذه القاعدة العسكرية الأمريكية. وأنّ إقامتها ضد من ؟ وباعتراف هيكل فإنّ السعودية بها 1600 خبير عسكرى بريطانى وأمريكى (الانفجار- ص 241) وهيكل الذى كتب كثيرًا عن (الاستعمار الأمريكى) وعن (الكيان الصهيونى) فى

وصفه لإسرائيل ، يتحدث فى فضائية الجزيرة التى تقع على بعد عدة أمتار من أكبر قاعدة عسكرية أمريكية فى (الخليج العربى) وعلى بعد عدة أمتار من المكتب التجارى الإسرائيلى بالدوحة . فكيف تصوّر أنْ يُصدّقه أحد غير البلهاء حسنى النية ؟ أم أنه يعتمد على المشاهدين العروبيين ودراويش الناصرية وحدهم ؟

ويتجاهل هيكل أنّ نبى العروبة (عبدالناصر) هو مهندس هزيمة بؤونة / يونيو67 . ولم تكن أكذوبة الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية ، إلاّ (الشماعة) التى علّق عليها توريط مصر فى هذه الكارثة التى يصعب محو آثارها من نفوس المصريين ، والتى تبدو وقائعها أغرب من الأساطير ومن خيالات كتّاب ألف ليلة وليلة ، خاصة وأنّ التقاريرالمصرية أكدت له (أى لعبدالناصر) أنه لاتوجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية. فكانت النتيجة كارثة الهزيمة التى أطلق عليها الصحابى الأول اسم الدلع (النكسة) رغم أنّ إسرائيل دمّرتْ كل الطائرات والممرات المصرية فى مدة قدّرها هيكل نفسه ب ((ثلاث ساعات ونصف)) (هيكل- الانفجار- ص 710) وإسرائيل التى كتب هيكل أنه ((لامستقبل لها فى المنطقة)) (أهرام 73/6/8) والتى قرّر العرب فى بيان القيادة السياسية الموحدة فى شهرمايو65 أنّ ((الهدف العربى القومى هوالقضاء على إسرائيل)) (فتحى الديب- مصدرسابق- ص 688) إسرائيل (المزعومة) فى الميديا العروبية ضربت 11 قاعدة جوية مصرية فى وقت واحد من العريش إلى الأقصر(هيكل- الانفجار- ص 713) وتحت شعارالقومية العربية أتاح نبى العروبة لإسرائيل ، ليس احتلال سيناء فقط ، وإنما أيضًا القدس والضفة الغربية وغزة والجولان السورية. والأكثر فداحة ما ذكره ماكنمارا وزيرالدفاع الأمريكى من أنّ ((دولة عربية طلبت كمية من الأسلحة لمواجهة السوفيت ، وأننا وافقنا بشرط أنْ لاتُستخدم أسلحتنا ضد إسرائيل)) (الانفجار- 241- 242) وهيكل الذى نقل هذا الحديث لم يُعلّق عليه بكلمة واحدة .

يُفرّق هيكل والميديا العروبية بين أنظمة رجعية وأخرى (تقدمية) وأنّ الأمـل فى الاعـتماد على الأخيرة (الانفجار- ص 66) وليس لدىّ تعليق أبلغ من الواقعة التى ذكرها المـؤرخ المرحـوم د. رؤوف عباس الذى ترجم كتابًا عن جريمة أمريكا ضد الشعب اليابانى فى هيروشيما وناجـازاكى فى أغسطس 1945 . كان الكتاب بعنوان (اليوميـات والـشهادات) طبـع د. رؤوف الكتـاب عـلى نفقته الخاصة وكان ذلك فى عام 1975. تعاقد د. رؤوف مع الأهرام لتوزيعـه ، فقـال لـه صـلاح الغمراوى مديرالتوزيع آنذاك (أنّ الوقت غيرمناسب لـصدورهذا الكتـاب) طـاف د. رؤوف عـلى مكتبات القاهرة يعرض عليها توزيع الكتاب ، فاكتشف أنّ هناك تعليمات شفوية من المباحـث العامة بعدم طرح الكتاب للبيع . دلّه صديق على مكتبة الخانجى التى قبلتْ الكتاب لتـصديره إلى دول (جبهة الرفض : العراق ، سوريا ، ليبيا ، الجزائـر) كانـت القاعـدة المعمـول بهـا تقتـضى إرسال عدة نسخ إلى البلد المعنى للحصول على موافقة الرقابـة. كانـت النتيجـة أنّ ((الرقابـة فى البلاد الأربعة رفضت السماح بـدخول الكتـاب)) وكـان تعليـق د. رؤوف عـلى هـذه الكوميـديا الـسوداء ((اكتـشفتُ زيـف تـشدق الـنظم العربيـة (التقدميـة) بـشعارات معـاداة الامبرياليـة (الأمريكية) ومدى ارتباط أجهزتها المعنية بالولايات المتحدة الأمريكية)) (مشيناها خطى- كتاب الهلال- ديسمبر2004 (من 183- 186) فهل هناك تضليل إعلامى وثقافى أكثر مـن ذلـك ؟ وهـل صحيح أنّ مصر(أو أية دولة أخرى) لاتستطيع أنْ تعتمد على قواها الذاتية أو تحمـى حـدودها إلاّ بعد الاعـتماد عـلى دول أخـرى ؟ ألا يـؤدى هـذا الكـلام إلى كـسرالقوة الذاتيـة لأى شـعب ؟ وبالتالى يصب فى صالح الرأسمال العالمى ؟ وألا يعنى أنّ شعارالعروبة الذى باركته بريطانيـا ثـم أمريكا هو ضد العرب مثلما هـو ضـد مـصر؟ وصـدق الـشاعرالكبير نزارقبـانى فى قولـه الحكـيم ((سقط الفكرفى النفاق السياسى / وصارالأديب كالبهلوان / تستبد الأحـزان بى .. فأنـادى / آه يـا مصر من بنى قحطان)) .

أعتقد أنّ العقل الحر لا ينكرأنّ لغة العلم تختلف عن لغة الخطابة ولغة المشاعر- سواء عاطفية أو دينية أوعرقية- لأنّ هذه اللغة- وبغض النظر عن البحث وراء أهدافها- هى التى جعلت عبدالناصر يرمى بالجيش المصرى فى (بالوعة) اليمن حسب وصف هيكل ، وهى البالوعة التى راح ضحيتها آلاف الأرواح المصرية وملايين الجنيهات المصرية. وباعتراف عبد الناصر أنّ الخزينة المصرية كانت تتحمل 45 مليون جنيه مصرى (بسعرالستينيات) كل سنة. وكتب هيكل أنّ ((حرب اليمن كلّفتْ الخزينة المصرية كل سنة ما بين أربعين إلى خمسين مليون جنيه ، أو مايوازى مائة مليون دولار وقتها)) (الانفجار- ص 185) واعترف عبد الناصر أنّ القبائل اليمنية (التى تظاهرت أنها مع النظام الجمهورى) كانتْ تأخذ المال والذهب من مصر ومن السعودية فى نفس الوقت (فتحى الديب- مصدر سابق من ص 520- 522) ووصل عدد الجنود المصريين فى اليمن وفق تقدير عبدالناصر أربعين ألفًا (نقلا عن هيكل- الانفجار- ص 168) وذكرأ. ياسين سراج الدين أنّ عدد الشهداء من أبنائنا المصريين فى اليمن بلغ خمسة عشرألفًا ، أى بنسبة 37.5 % من إجمالى العدد السنوى لقواتنا فى اليمن (صحيفة الدستورالمصرية- الإصدار الأول 97/7/23) وعبدالناصر وهو يُمهّد لهذه المجزرة التى راح فيها الآلاف من المصريين واليمنيين ، لجأ إلى اللغة الدينية فقال ((إنّ جبال اليمن تحمل قبسًا من نفس الشعلة المقدسة التى يحج إليها المسلمون فى عرفات)) (نقلا عن أ. عبدالحليم قنديل- الناصرية والإسلام- مركز إعلام الوطن العربى- صاعد- 1991- ص 22) .

وبسبب هذا التوجه العروبى الذى أهدر دماء المصريين وأموالهم ، لم يراع أية خصوصية لمصر، وحتى بعد كارثة بؤونة / يونيو67 التى كان من المفترض أنْ تكون وقفة مع الذات لمراجعة كل أخطاء الحقبة الناصرية / العروبية / الإسلامية ، فإنّ عبدالناصر أصرّ على تنفيذ مخطط شطب أية مصلحة قومية تخص مصر فقال

((إنّ سيناء بكل ما فيها من بترول ومعادن ، لاتهمنى بقدر اهتمامى بالضفة الغربية)) وقال أيضًا ((إنّ القدس أهم من سيناء)) لذلك كانت الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان صادقة مع نفسها عندما قالت ((الله فى السماء وعبدالناصر فى الأرض)) (نقلا عن أ. رجاء النقاش- أهرام 4 ، 11 يناير2004) .



صدر للمؤلف

* مدينة طفولتى : مجموعة قصص قصيرة- هيئة الكتاب المصرية- عام 1990 وأعيد طبعها ضمن مشروع مكتبة الأسرة عام 2001 .

* أبعاد الشخصية المصرية بين الماضى والحاضر- هيئة الكتاب المصرية.عام 1999. وأعيد طبعها ضمن مشروع مكتبة الأسرة فى نفس العام .

* الثقافة السائدة ومقاومة الميديا الصهيونية بالعبرى – عام 1999 على نفقة الكاتب بالتعاون مع الجمعية المصرية للتنوير.

* أنساق القيم فى الإبداع المصرى- مجموعة دراسات فى النقد الأدبى- هيئة قصور الثقافة- سلسلة كتابات نقدية عدد رقم 103 – مايو2000 .

* العسكر فى جبة الشيوخ : الأصولية الإسلامية قبل وبعد 1952 – مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان – عام 2003 ، وأعيد طبعه باسم (الثقافة المصرية والأصولية الدينية – قبل وبعد يوليو 1952) مع المزيد من الإضافات . وصدر عن«الدار للنشر والتوزيع » عام 2010 .

* ترنيمة عشق : رواية- هيئة الكتاب المصرية- عام 2006 .

* هديل الحمام : مجموعة قصص للأطفال – هيئة قصور الثقافة- العدد رقم 174 عام 2008.

* موسيقى من السماء ـ مجموعة قصص للأطفال ـ هيئة الكتاب المصرية ـ عام 2011.

* الليبرالية المصرية قبل يوليو 1952 ـ مكتبة الأسرة ـ عام2010.

* العلمانية والطريق إلى الاستقرار الاجتماعي ـ دار الدار للنشر عام 2011.

الفهرس

